زوبع

قصة قبيلة .. وقضية وطن



ابو الحسن
د. عبدالحكيم الضاري

د . عبد الحكيم الضاري
زوبع قصة قبيلة وقضية وطن

دار المنهــج للطبــاعة والنشــر

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ
أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

آية ١٣ سورة الحجرات


زوبع
قصة قبيلة .. وقضية وطن

الكتاب: زوبع قصة قبيلة وقضية وطن
المؤلف: أبو الحسن د. عبد الحكيم الضاري
عضو اتحاد المؤرخين العرب
تصميم الغلاف: د. عبد الحكيم الضاري
تنفيذ الغلاف: دار الجزيرة للطباعة

الطبعة الثانية

١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٢٢٥٦ لسنة ٢٠١٨م

دار المنهج للطباعة والنشر

العراق - بغداد – باب المعظم

زوبع

قصة قبيلة .. وقضية وطن

أبو الحسن

د. عبد الحكيم الضاري

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد الصادق الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، تسليماً دائماً إلى يوم الدين.

من دواعي سعادتي وفخري هذا الجهد المتميز والكبير الذي قام به أبننا الدكتور عبد الحكيم حامد سليمان الضاري، والذي وضعه على صفحات كتابه هذا الذي أسماه في مقدمته (سفراً)، فكان بحق سفراً كبيراً وصادقاً، نقل فيه الحقائق بكل صدق وأمانة، ومما زاد سعادتي هو تحريه عن الوقائع التي نفخر بها، كما يفخر بها أبناء بقية قبائل العراق الأخرى، التي نكنّ لها كل حب واعتزاز، وقد وضع في سفره الجوانب المشرقة التي سادت تعامل أبناء قبائل العراق العربية، ومكوناته الأخرى، وبيّن تلك الروح السامية التي سادت بين أبناء العراق، والتي نرجو الله صادقين أن تبقى إلى الأبد شعاراً ومنهجاً وسلوكاً يلتزم به أبناء بلدنا العزيز العراق... اللهم آمين.

وهنا لا بد أن يذكر الفضل لأهله، لذلك كله: أتقدم بالشكر والتقدير والعرفان له، باسمي، ونيابة عن أبناء زوبع والعشائر المتحالفة معها، وكل الخيرين والأصلاء من أبناء العراق، داعياً الله تعالى أن يحذو حذوه أبناء قبائل العراق الأخرى، من الكتاب والمؤرخين، بأن يقدموا لأخوتهم العراقيين تاريخ قبائلهم وبصورة تدعوا إلى التلاحم ووحدة الصف، كما فعل أخوهم عبد الحكيم، جزاه الله خيراً، عن زوبع، وعن بقية قبائل العراق التي نقل مآثرها من خلال(سفره) الجميل والراقي.

حفظ الله العراق وأبناء العراق، وألهمنا السداد في القول والفعل...آمين.



ظاهر خميس الضاري

بغداد- ٢٠١٨/٨/١٦

شكر وتقدير مقدم للمؤلف من الشيخ ظاهر خميس الضاري شيخ قبيلة زوبع والعشائر المتحالفة معها

المحتويات

تـنـويـه

============

مواضع الصور في الكتاب جاءت حسب تسلسل الوقائع التاريخية

تـقـديــم

بسم الله الرحمن الرحيم

شاء القدر أن أحضر وأنا شاب جامعيّ يافع أدرس التاريخ صحبة والدي - رحمه الله - مجلساً حافلاً في مضيف شيخ قبيلة زوبع، في أبي غريب ذات التراث الحافل وهو المرحوم سليمان بن الشيخ ضاري المحّمود، كان قد دعا إليه جمّهرة من أعيان بغداد والعشائر المجاورة، فضلاً عن عدد كبير من رجال زوبع نفسها، واتذكر أن من الشخصيات البارزة التي حضرت .. الداعية الإسلامي اللواء محمود شيت خطّاب وزير البلديات آنذاك، والمؤرخ الأستاذ ناجي معروف عضو مجلس الخدمة العامة - آنذاك - وعمادة الآداب سابقاً، ورجل مَهيب لم يكن عراقياً، لكنه كان مجاهداً بارزاً، علمت أنه فوزي القاوقجي، قائد جيش الإنقاذ العربي، الذي كلفته جامعة الدول العربية بقيادة هذا الجيش التطوعي في فلسطين عام النكبة سنة (١٩٤٨م).

صرت أصغي باهتمام شديد إلى ما كان يدور بين أولئك القوم ومضيّفنا الكريم من أحاديث شائقة، فلاحظت أن أكثر تلك الأحاديث كانت تدور حول حرب فلسطين والقضية العربية، والعمل القومي في الحرب العالمية الأولى وما بعدها، وما إلى ذلك من شؤون كانت تستهويني بحكم دراستي الأولية في قسم التاريخ.

وكم كنت أتمنى لو تفرّغ أحد الضيوف المتدفّقين علماً والممتلئين ذكرى فسجل ذلك الحديث النادر، الذي تناول فصولاً من تاريخ فلسطين والعراق وقبيلة زوبع بالذات، وقلت في نفسي لو فعل أحد ذلك إذن لخرج بكتابٍ جليل، حافلٍ بكثير مما سكت عنه التاريخ.

تذكّرت ذلك المجلس بالأمس فقط، حينما تفضّل عليّ الصديق الكريم الدكتور عبد الحكيم الضاري وهو من بيت الرئاسة في قبيلة زوبع؛ بكتاب مُستطاب بعنوان (زوبع ..قصة قبيلة وقضية وطن)، وما إن

شرعت بقراءته حتى أدركت - على الفور- أني أمام الكتاب الذي تمنيت ذات مرة في مجلس جده المرحوم سليمان أن يجمع بين دفّتيه كل ما سمعته من ذكريات وأكثر منها، وحمدت الله على كرمه، وشكرت المؤلف على إنه حقق أمنيتي القديمة.

وفي الواقع فإن المؤَلف نجح على نحوٍ باهر في أن يجمع شُتات كم هائل من المعلومات المبعثرة عن قبيلته العتيدة؛ لم يسبق أن جمعها كاتب، بعضها من كتب التاريخ والنسب والسير، ووثائق الأسرة، وغيرها مما تحتفظ به قبيلة زوبع، وبعضها الآخر من ذكريات الشيوخ، وأهمها ذكريات الشيخ سليمان وأفراد أسرته، وهم شهود عيان على حقبٍ حافلة من تاريخ قبيلتهم، وهو لم يكتف بهذه الشهادات وإنما تجاوزها إلى ذكريات القبائل الأخرى، ممن كانت لها صلات وثيقة بقبيلته، فأدى ذلك إلى تكامل موضوعه على نحوٍ فريد، وإثرائه بالمزيد من التفاصيل.

من محاسن الكتاب وهي كثيرة أن مؤلفه اعتمد منهجاً علمياً سليماً، حيث رتبه على فصول، ثم على مباحث، ابتدءها بتاريخ أصول قبيلته منذ العهود القديمة، فانتشار المسيحية، ثم انبلاج نور الإسلام، ودورها في التاريخ الإسلامي، فالعثماني، وصولاً إلى التاريخ الحديث فالمعاصر، وعلاقتهم بالقبائل واحدة فواحدة، وبالحكومات المتعاقبة، من الولاة والملوك والحكّام، والثورات والانتفاضات وغير ذلك.

وعلى الرغم من اكتظاظ الكتاب بالحوادث وكثرة التواريخ فإن طبع المؤلف وشخصيته قد انعكسا على إسلوبه؛ فجاءت فصوله متلاحقة، مترابطة، وأسلوبه واضحٌ جليٌ، وعبارته مشرقة، وبعد هذا فالكتاب نبيلٌ في غايته، هادئ في عرض مادته، متوازن في تناوله الشؤون القبلية، فلا انحياز إلى قبيلة على غيرها، ولا لطائفة دون أخرى، وإنما هو يعرض المشهد القبليّ والاجتماعي والسياسي كما هو، بعبارةٍ لينةٍ، لا أكثر من ذلك ولا أقل.

أظن أن المنهج الذي اتبعه المؤلف يصلح أن يكون النموذج الأمثل للكتابة في هذه الموضوعات الشائكة، وأنا أرجو أن كتاباً تتحقق فيه كل هذه المزايا سيجد من الانتشار ما يستحقه، ومن الأجر ما يُثاب عليه.

والله من وراء القصد

أ. د. عماد عبد السلام رؤوف

أربيل - ٢٠٢١/٦/٢٣



المقـدمـة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا السفر(زوبع .. قصة قبيلة وقضية وطن) عشنا صدى وقائعه أطفالاً، ونحن ننصت إلى الذين صنعوا بعضاً منه، أو عايشوا جانباً من وقائعه، أو الذين نقلوا لنا عن آبائهم بعضه الآخر، وهم يتغنّون به، ويفخرون، وعايشنا وقائع أخرى شباباً، ثم كهولاً.

في (زوبع .. قصة قبيلة وقضية وطن) أنقل ما سمعت عن أكابر رجالات زوبع، في روايات متواترة، معززة أحياناً بمصادر ومراجع رصينة، تناولت الوقائع التي سطّرتُ أحداثها هنا، ووقائع أخرى كنت شاهداً عليها، وربما أحد الذين عاشوها وعايشوها.

كما يُقال: (المجالس مدارس). وحين غابت أو تكاد تلك المجالس؛ وجدت الحاجة ماسة لتدوين تاريخ قبيلتي زوبع، في علاقاتها مع القبائل، ومع مكونات الشعب العراقي الأخرى، القومية والدينية، وعلاقتها بالسلطات الوطنية العراقية، وكذلك علاقتها بالدولة العثمانية التي كان العراق جزءاً من ممتلكاتها، ثم موقفها من سلطتي الاحتلالين البريطاني والأمريكي للعراق، مبيّناً بكل صدق ونزاهة وأمانة علمية فصول وأحداث تلك العلاقات والمواقف، قاصداً منها أن تكون مرجعاً ينهل منه أبناء زوبع تاريخ قبيلتهم، ويستلهمون العبر، مستشرفين من خلالها المستقبل، وهو ما أظنه وأرجوه في أبناء العراق الآخرين، أن تكون حافزاً لهم ليراجعوا تاريخ أسلافهم، فيُسطّرون صحائفه المشرقة في أسفار مشابه، نحن في أمسّ الحاجة إليها، وبخاصة في هذه الظروف التي يمر فيها بلدنا الحبيب العراق، وما ناله من دمار وويلات بعد الاحتلال الأمريكي الغاشم والظالم، ومن محاولات تمزيق وحدته الوطنية، ونسيجه الاجتماعي.

الذي دفعني لكتابة هذا السفر أيضاً هو الحاجة المُلحّة لتوضيح كثير من الحقائق الغائبة، أو التي غُيّبت قسراً لأسباب عديدة، وفي هذا الوقت الاستثنائي من تاريخ العراق بصورة عامة، وتاريخ قبيلتي زوبع

بخاصة، إذ تعرّضت هذه القبيلة على مدى وجودها في العراق إلى هجمات مبيتة، ووراءها دون ريب أيادٍ خارجية، ولأسباب غير مجهولة، وعلى أقل تقدير بالنسبة إلى أبناء زوبع، والسبب الأول والكبير وربما يكون الوحيد.. هو تمسّك زوبع بوحدة واستقلال العراق وعزته وكرامته، وقد بذلت في سبيل ذلك الدماء والأرواح رخيصة، فكانت المكائد لهذه القبيلة كثيرة، وكبيرة أيضاً.

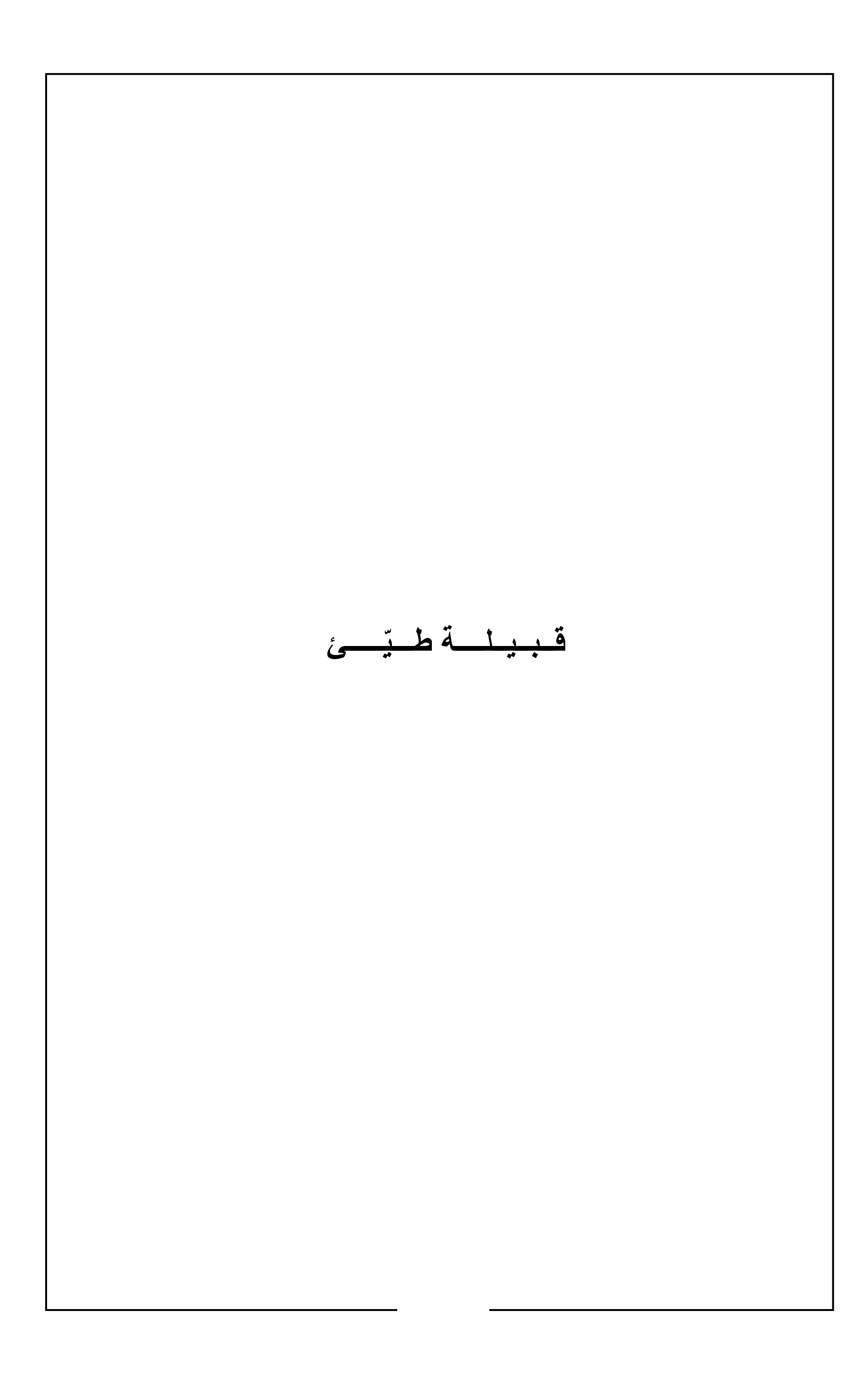
ألصقت التهم بزوبع في أغلب العهود التي مرت على العراق، وبخاصة في عهدي الاحتلال - البريطاني والأمريكي - الغربي لبلدنا الحبيب، وعملت الماكنة الإعلامية المسخّرة والمدعومة من الاحتلال على شيّطنة زوبع، فدمغتها بوصمة الخروج عن القانون تارة، ونعتت أبناءها بالمخربين أخرى، ثم الإرهابيين تارة أخرى، وصار بعض الذين يُحسبون على العراق يرددون صدى تلك التهم، لأنها وافقت أهواءهم ومآربهم، حتى صار الزوبعي مثار شك وريبة لدى السلطات التي جاءت برعاية المحتل، سواء البريطاني أو الأمريكي، فنال أبناء زوبع حيف كبير، وما زالوا يعانون منه أو من آثاره إلى هذه اللحظة، التي أخط فيها هذه الكلمات، وربما لا أجانب الحقيقة حين أقول: إن زوبع يصدق فيها القول: (لَمْ يَدَعْ ليّ الحَقُ صاحباً).

حفظ الله العراق وأهله الطيبين...

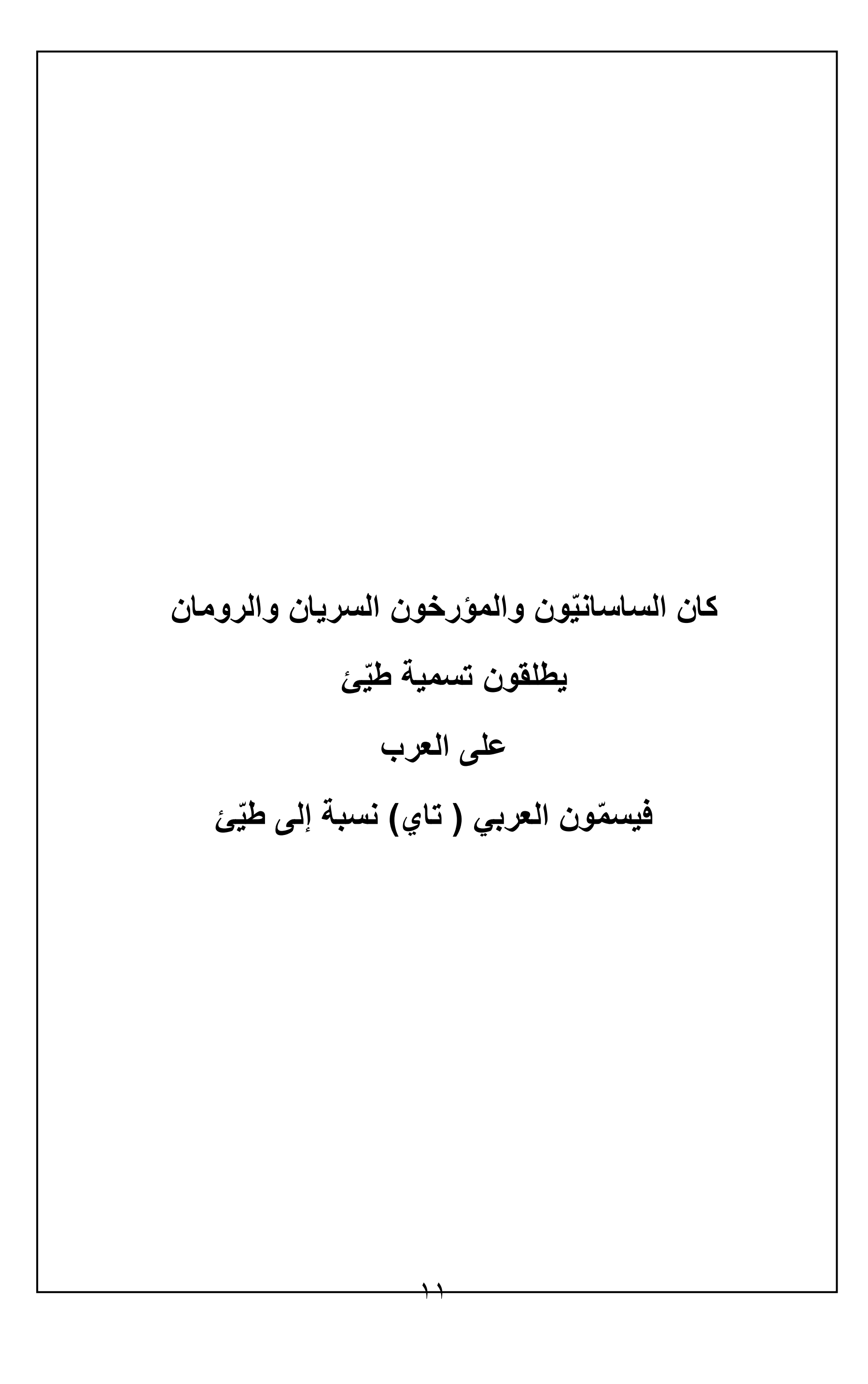
والله من وراء القصد...

أبو الحسن

د. عبد الحكيم الضاري



قبيلة طيّئ



كان الساسانيّون والمؤرخون السريان والرومان

يطلقون تسمية طيّئ

على العرب

فيسمّون العربي (تاي) نسبة إلى طيّئ

أولاً- أصل تسمية طيّئ:

طيّئ: بفتح وتشديد الياء وهمزة في الآخر، والنسبة إليهم (طائيَّ) وهو جد جاهلي قديم، خرجت من نسله بطون عظام، تفرّعت إلى قبائل كبيرة عديدة، انتشرت في مشارق الأرض العربية والإسلامية ومغاربها، وطيّئ من بطون كهلان، من الجذم القحطانيّ[١]، واسمه جُلهمة بن أدد ابن زيد بن الهُميسع بن يشجُب بن عُريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجُب بن يعّرُب بن قحطان[٢]، واتفقت على هذا النسب كل العلماء[٣].

وعن سبب تسميته طيّئاً فإن بني سبأ لما تفرقوا أيام سيل العرم سار (جابر وحرملة) ابني أدد بن زيد بن الهُميّسع وتبعهما ابن أخيها جُلهمة؛ فساروا نحو تهامّة، وكان فيما بينهم وبين اليمن - منازلهم - قد وقع بينه وبين عمومته ملاحاة - خصام - ففارقهما، وسار نحو الحجاز بأهله وماله، متتبعاً مواقع القطر، فسُمي: طيّئ، لطيه المنازل والغفار، فأوغل في أرض الحجاز، فكان لابتعاده عن قومه ذاك سُمي طيّئاً، والطاءة هي الابتعاد في المرعى[٤].

ثانياً- طيّئ قبل الإسلام:

قبائل طيّئ العربية الأصيلة ترسّخ وجودها في كل بقاع الأرض العربية والإسلامية، ولها تاريخ حافل في مختلف المجالات، فيهم حاتم الطائي، الذي لم يعارضه بالكرم ممن خلق الله من العرب والعجم، وهم درة تاج العرب، لم يدرك المادح حصر فضائلهم، ولم يقف العائم على بحر مكارمهم على ساحلهم، فاقوا الأمم باكتساب الشيّم، واعلوا نيران

---

(١) القلقشندي، نهاية الأرب، ص١٩١.

(٢) ابن قتيبة، المعارف، ص٢٩.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص١٧٥.

(٤) ابن دريد، الاشتقاق، ص٢٧٩؛ السمعاني، الأنساب، ج٥، ص٢٤٠.

القرى على البقاع، فأخبارهم نار على علم، أشجع لدى القراع، وأرفع أقرانهم بقاعاً، وأطولهم في طلب العلياء باعاً[١].

اعتنقت طيّئ الديانة المسيحية منذ القرون الأولى للميلاد، وتعزز المعتقد المسيحي في طيّئ بعد اعتناقه من قِبل حاتم الطائي، وابنه عَديّ، واتبعوا في ذلك الفرقة المنوفوزية، المعروفة أيضا باليعقوبية، المخالفة للملكانية، الفرقة الرسمية عند الروم، وهم في ذلك مثل سائر القبائل العربية النصرانية، كالغساسّنة، والتي رفضت المذهب المسيحي الملّكاني الرسميّ، وكذلك دخل بعض طيّئ المجوسية، فقد اعتنق بعض العرب المجوسية، كما ذكر ابن قتيّبة، مثل سكان هجر، والذين شهد عبد الرحمن بن عوف عند عمر بن الخطاب(رضي الله عنه): أن رسول الله(صلى الله عليه وسلم) قد أخذ منهم الجزية، وعدهم من أهل الكتاب، وفي الجانب الديني كانت حرية العقيدة مكفولة في طيّئ، إذ كانت تعبد فئات منها أوثاناً، وكان أشهرها (الفلس) فاليس اليوناني، وكان منحوتاً بحجم كبير على اللائحة الجنوبية الشرقية من جبل (أجا)، غير أن خالد بن الوليد(رضي الله عنه) حطمه بعد الفتح الإسلامي لها في السنة التاسعة الهجرية[٢].

بروز طيّئ وقبائلها على الأرض العربية قديم جداً، قدّره بعض العلماء بحدود ألف عام قبل الميلاد، وقال بعض العلماء: بل هو أقدم من ذلك بكثير، حتى أن بعض المؤرخين القدماء من السريان والرومان كانوا يطلقون أسم (طيّئ) على كل العرب، ويرجع ذلك لسببين هما: قدم وجود قبائل (طيّئ) في الجبلين - أجا وسلمى - حيث هاجرت منه بطونهم إلى بلاد الشام، ومشاركتهم الفاعلة في الأحداث التاريخية آنذاك دون سواهم من القبائل العربية، واحتفاظهم بالانتماء القومي إلى العرب، مما حدا بهؤلاء المؤرخين أن يعتبروا طيّئاً هي العرب[٣].

---

(١) البسّام، الدرر الفاخر، ص٧٥

(٢) الأستاذ الدكتور خليل الزركان، مدونة – قبيلة طيّئ – على النت.

(٣) المرجع نفسه.

ثالثاً- مساكن طيّئ وهجراتها:

خرجت طيّئ من موطنها الأصلي في اليمن بعد سيل العرم المشهور، وقيل: إن بلادها هي الجوف، فسارت في الجزيرة، واستقرت في جبلي (أجا وسلمى)، حيث سُميّ الجبلان بعدها بجبلي طيّئ، واختصّت بهما دون غيرها من العرب، ولا تزال بطون منها تنزلهما، ويسمى الجبلان الآن جبليّ (شمّر)، وشمّر من بطون طيّئ المشهورة[١]. وعن سبب نزول طيّئ الجبلين هناك روايات عديدة، لكنها كلها تؤكد نزولها الجبلين، فقد ذكر الرواة أن طيّئ حين أوغل في الحجاز كان له بعير يشرد كل سنة ثلاثة أشهر، ثم يعود إليه وقد سمن وآثار الخضرة بادية في شدقية، فلما كان الربيع وشرد البعير تبعه ابنه (عمرو)، حتى صار إلى جبل، ووجد هناك أرضاً واسعة كثيرة المياه والشجر، فغلب ساكنيه عليه، وتحول إليه بأهله[٢].

كانت منازل طيّئ في اليمن، ثم خرجوا منها على إثر خروج الأزد، فكانت منازلهم الجبلين (أجا وسلمى)، واستمروا في السكن هناك، ثم افترقوا في أول الإسلام خلال الفتوحات، وهم الآن أمم كثيرة يملئون السهل والجبل، حجازاً وشاماً وعراقاً، وهم أصحاب الرياسة في العرب إلى الآن في العراق والشام، وبمصر منهم بطون، وقد ارتبط ذكر جبلي (أجا وسلمى) بطيّئ منذ نزلت فيهما، فلا يرد ذكر لهما إلا وقيل: جبلا طيّئ، وقد اشتهر ذكرهما في أشعار العرب[٣].

القدوم الأكبر لطيّئ إلى مصر في عهد الدولة الفاطمية، ومن تلك القبائل كانت قبيلة سُنبّس، وتُعرف أيضا بالسنابّسة من طيّئ، والتي كانت تستقر في جنوب فلسطين بمنطقة الرملة والداروم، وكانت زعامة سُنبُس الطائيّة في الخزاعلة، ويُعرفون أيضا بالخزاعل وبني خزعل، واستقرت

---

(١) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص٥٩.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٦، ص٥.

(٣) صالح الكرعاوي، الموسوعة الكاملة في أنساب العرب، ص١١.

القيادة في بني يوسف من الخزاعلة، وبني يوسف هم في الجيزة، وفي مركز السنطة بمحافظة الغربية، والمنوفيّة، وكفر الشيخ، ودمياط بمصر[١].

تنتشر قبيلة طيّئ في بلاد الشام، حيث كانت أولى هجراتها إلى حلب، إذ رحلوا إليها بعد حرب الفُسّاد بين قبائل طيّئ، وسُميت حرب الفُسّاد لأنها أفسدت قبائل طيّئ، ورحل على إثرها السهليون عن الجبل، فلحقوا بحاضرة حلب في بلاد الشام، وتزوجوا من الأنباط، ثم اختلطوا بهم، ونُسب أولادهم فيهم، فهم لا يُعرفون منهم، وهم أهل حاضر حلب اليوم[٢]، وقد خرجت هجرات أخرى لطيّئ بعد حربها مع شمّر، وهي إحدى بطونها الكبيرة، فاستحوذت شمّر على زعامة السهل والجبل، مما أدى إلى هجرات جديدة لكثير من بطون طييّء إلى العراق وبلاد الشام.

رابعاً- إسلام طيّئ:

دخلت طيّئ الإسلام بعد أن أسلم كبيراها، زيد الخير وعَديّ بن حاتم(رضي الله عنه)، حيث قدم وفد طيّئ وفيهم زيد الخير على رسول الله(ﷺ)، وأعلنوا إسلامهم، فأكرم رسول الله(ﷺ) وفادتهم، وذلك في السنة التاسعة للهجرة، ثم وفد عليه عَديّ بن حاتم الطائيّ وأعلن إسلامه أيضاً، وقصة إسلام الرجلين مشهورة في كتب الحديث النبوي الشريف، وفي كتب التاريخ[٣].

خامساً- مآثر طيّئ:

لم تتأخر طيّئ عن مكرمة، ولم تتوانى في نصرة الحق يوماً، وكانت لذلك في كل منازلة هي التي تحصد الغلبة، وتظفر بالنصر على من

---

(١) خليل الزركان، مدونة.

(٢) ياقوت الحموي، المقتضب، ص٢٩٢.

(٣) الطبري، التاريخ، ج٣، ص١٤٨-١٦٦،١٥٠.

واقفها في ساحة المنازلة، وكانت تنحاز إلى الحق وأهله، ومواقفها معلومة مشهورة، ومن تلك المواقف:

أ- في فتح العراق:

في فتح العراق قاتلت طيّئ تحت قيادة زعيمها عَديّ بن حاتم(رضي الله عنه)؛ بعد أن قسّم خالد بن الوليد (رضي الله عنه) جيشه إلى أقسام، فكان هو على رأس الجيش الذي جاء به من المدينة، وأمّر المثنى بن حارثة الشيبانيّ على الجيش الذي معه من بني شيبان وحلفائهم، وكذلك أقر عَديّ بن حاتم الطائي قائداً على قومه طيّئ، فقاتلت بقيادته في أغلب معارك فتح العراق[١].

ب- في حروب الردة:

لم ترتد طيّئ عن الإسلام، وكانت اليد الضاربة على رؤوس من ارتد من العرب، فقاتلت مع خالد بن الوليد المرتدين بكل قوة وبسالة ونكران ذات، ويشهد لذلك قول سيدها عَديّ بن حاتم لخالد بن الوليد(رضي الله عنهم): لو ترك هذا الدين أسرتي الأدنى فالأدنى من قومي لجاهدتهم عليه[٢].

قام خالد بن الوليد بحمل لواء حروب الردة، حتى أصاب جيشه يوماً التعب والإنهاك، فأمرهم أن يميلوا إلى طيّئ للراحة، وكان قُبيلها قد بعث إليه عَديّ بن حاتم الطائيّ طالباً منه القدوم إليه، والإقامة عنده، حتى يبعث إلى قبائل طيّئ، فيجمع منهم عدداً أكبر مما هو مع خالد من الرجال، ووعده بأن يُصاحبه في حربه لقتال المرتدّين[٣].

بعد أن وصلت رسالة عَديّ إليه دعا جنوده واستشارهم في النزول على طيّئ، قائلاً لهم: هل لكم أن أميل بكم إلى حيٍ من أحياء العرب كثير

(١) القلقشندي، نهاية الأرب، ص٣٠٠؛ القزويني، أنساب القبائل، ص٨٥؛ ابن قتيبة، المعارف، ص٦٤-٦٥.

(٢) الطبري، التاريخ، ج٣، ص٢٢٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٢٨.

عددهم، شديدة شوكتهم، لم يرتد منهم عن الإسلام أحد. فقال له الناس ومن هذا الحي الذي تعني، فنعم والله الحي هو. قال لهم: طيّئ. فقالوا: وفّقك الله، نعم الرأي رأيت. فانصرف بهم حتى نزل بالجيش في طيّئ[١].

ت- موقف طيّئ من قبيلة أسد بعد ردتها:

كانت قبيلة أسد قد دخلت في حلف مع طيّيء في الجاهلية، بعد حروب دامت زمناً طويلاً، لم تفلح فيها بالتغلب على طيّيء، وحين ارتدت أسد بعد إسلامها كبُر على طيّيء أن تقاتلهم، فآثرت أن تقاتل سواهم من القبائل، وقد أقرهم خالد بن الوليد على ذلك واستحسن رأيهم، لذلك قال لعدي: أمض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط[٢].

لم تنس طيّئ في ذلك الوقت العصيب حلفاءها بني أسد، فكانوا حريصين على عودتهم إلى حظيرة الإسلام أشد الحرص، يدفعهم لذلك أخوّة الإسلام، ووفاؤهم بعهدهم القديم معهم، ويذكر الطبري[٣]: إن خيل طيّئ كانت تلقى خيل أسد وفزارة قبل قدوم خالد عليهم، فيتشاتمون ولا يتقاتلون، فتقول أسد وفزارة: لا والله لا نبايع أبا الفصيل[٤] أبداً. فتقول لهم خيل طيّئ: لا والله حتى تُكنّوه أبا الفحل الأكّبر[٥].

بقيت طيّئ مع حلفائها على تلك الحال، لكنهم لم يجرّدوا عليهم سيفاً حتى عادوا إلى الإسلام، وتلك من مآثر طيّئ التي تُظهر معدنهم الأصيل، فقد حفظوا عهودهم؛ وإن كانت من عهود الجاهلية، وأرجعوا

---

(١) الطبري، التاريخ، ج٣، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٢٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٢٩.

(٤) الفصيل: طور من أطوار نمو البعير،وهم يعنون أبا بكر تصغيراً لكنيته، واستهزاءاً به، لأن البكر أيضا طور من أطوار نمو البعير، وهو أكبر من الفصيل.

(٥) الطبري، التاريخ، ج٣، ص٢٢٩.

أسد إلى حظيرة الإسلام دون أن تُراق الدماء، في حرب هم أهلها بكل المقاييس.

ث- نصرة طيّئ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه):

موقف طيّئ المساند لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب(رضي الله عنه) ليس بدعاً عن مواقفها السابقة، والتي وقفتها مع الحق، فقد أيقن قادتها أن علياً(رضي الله عنه) على الحق، وأن نصرته واجبة عليهم، لذلك أتته جماعة طيّئ فقيل له: هذه جماعة من طيّئ قد أتتك فيهم من يريد الخروج معك، ومنهم من يريد السلام عليك. فقال: جزى الله كلاً خيرا، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. ثم دخلوا عليه فقال: ما شهدتمونا به، قالوا شهدناك بكل ما تحب. قال: جزاكم الله خيراً، فقد أسلمتهم طائعين، وقاتلتم المرتدين، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين[١].

كان سيد طيّئ الصحابي الجليل عَديّ بن حاتم(رضي الله عنه) رسول عليّ(رضي الله عنه) إلى معاويّة قُبيل صفّين، وحين دخل على معاويّة حمد الله ثم قال له: أتيناك بأمر يجمع الله (عز وجل) به كلمتنا وأمتنا، ويحقن به الدماء ... إن ابن عمك سيد المسلمين، أفضلها سابقة، وأحسنها في الإسلام أثراً، وقد استجمع له الناس، وقد أرشدهم الله (عز وجل) بالذي رأوا، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك، فانته يا معاويّة لا يُصيبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل[٢].

بعد أن تأججت الحرب بين الفريقين قاتل عَديّ بن حاتم(رضي الله عنه) وقومه مع أمير المؤمنين عليّ (رضي الله عنه)، وقُتل أولاده الثلاثة في تلك الحرب، وبقي وفياً لمبادئه، ولصاحبه أمير المؤمنين عليّ (رضي الله عنه) حتى بعد رحيله عن الدنيا، رغم تولي معاويّة (رضي الله عنه) أمر المسلمين، فقد دخل عَديّ على معاوية فقال له: صف لنا علياً. فقال: إن رأيت أن تعفيني. قال: لا أعفيك. فقال:

---

(١) الطبري، التاريخ، ج٦، ص١٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٦، ص٢-٣.

كان والله بعيد المدى، شديد القوة، يقول عدلاً، ويحكم فصلاً، وأطال في وصف خصاله الحميدة ومعاويّة يسمع، وحين أتم كلامه بكى معاويّة، ثم قال: يرحم الله أبا الحسن، كان كذلك، فكيف صبرك عنه. قال: كصبر من ذبُح ولدها في حجرها، لا ترقأ دمعاً، ولا تسكن عبرتها. حينها قال له: فكيف ذكرك له. قال: وهل يتركني الدهر أن أنساه[١].

ج- موقف طيّئ من الحسين (رضي الله عنه):

قدم الحسين بن علي(رضي الله عنه) إلى العراق فقابله في الطريق أربعة رجال، كان بينهم الطرمّاح بن عَديّ الطائيّ، وقد سألهم عن حال الناس في الكوفة، فأخبروه الخبر، وأن قلوب الناس معه، لكن سيوفهم ستكون غداً عليه.

أقترب الطرمّاح من الحسين(رضي الله عنه) فقال له: أنشدك الله إن قدرت على أن لا تقدم عليهم شبراً إلا فعلت، فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتى ترى من رأيك ويستبين لك ما أنت صانع فسر حتى أنزلك مناع جبلنا الذي يُدعى أجا، امتنعنا والله به من ملوك غسان وحميّر، ومن النعمّان بن المنذر، ومن الأسود والأحمر، والله أن دخل علينا ذلُ قط، فأسير معك حتى أنزلك القرية، ثم نبعث إلى الرجال ممن بأجا وسلمى من طيّئ، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتى تأتيك طيّئ رجالاً وركباناً، ثم أقم فينا ما بدا لك، فإن هاجك هيج فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائيّ يضربون بين يديك بأسيافهم، والله لا يوصل إليك أبداً ومنهم عين تطرف. فقال له: جزاك الله وقومك خيراً[٢].

---

(١) البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٢٥.

(٢) الطبري، التاريخ، ج٦، ص٢٣٠-٢٣١.

ح- موقف طيّئ من مماليك مصر وتوحيد عربها:

كانت في مصر فروع من طيّئ يُسمّون السنابّسة، وهم من سُنبُس الطائيّة، ويُعرفون أيضا بالخزاعلة، وبني خزعل، واستقرت القيادة في بني يوسف من الخزاعل.

شاركت سُنبُس تحت قيادة بني يوسف الخزاعلة في ثورة الشريف حصن الدين ثعلب الجعفري الطالبيّ القرشيّ، والتي كانت رافضة لحكم المماليك في عهد السلطان المملوكي الأول عز الدين أيبك التركماني، وذلك لأنفة القبائل العربية بمصر من الخضوع لحكام مسّهم الرق - أي المماليك- فكانت سُنبُس عماد تلك الثورة.

وصف المقريزي[١] تلك الثورة أنها: آخر ثورة عربية بمصر، وعُرف تحالف القبائل العربية هذا بالحلف القرشيّ، وسُميّ الحلف القرشيّ لأن زعامته كانت للجعافرة الطالبين بزعامة الأمير حصن الدين ثعلب، وكان من فضل هذا الحلف أن اختفى من مصر الصراع اليماني القيسي، والذي ابتُليت به القبائل العربية في كافة البلدان، وكانت سبباً في نكبة العرب في كثير من الأحيان، لافتراق كلمتهم، والذي ظل للأسف قائما في بعض البلدان، كما في لبنان، وبذلك كانت طيّئ دائماً في مقدمة الداعين إلى توحيد العرب.

خ- معارك طيّئ مع المغول:

دحر المسلمون بقيادة السلطان المظفّر قطز خرافة التفوق الساحق للمغول في معركة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٥٨م)، وعلى إثر ذلك حاول المغول رد هيبتهم التي ضاعت في تلك المعركة، فحشدوا كل قواتهم مستنفرين حلفاءهم من أعداء الإسلام، ومستعدين للقاء حاسم

---

(١) المقريزي، البيان والإعراب، ص١٠.

حسب ظنهم، وكان ذلك اللقاء في معركة حمص الكبرى عام (٦٨٠هـ /١٢٨١م)، وكانت قيادة الجيش الإسلامي بيد السلطان غلاوون.

كادت أحلام المغول أن تتحقق في يوم ١٤ رجب عام (٦٨٠هـ)، فانكسر الجيش الإسلامي، وهرب كثير من قيادات المعركة، وذهبوا بها بعيداً، حتى جعل ذلك الروح المعنوية للمغول تزداد قوة وعنفواناً، لكن الصدمة التي أحدثها القائد العربي الوحيد في المعركة وهو الأمير عيسى بن مهنّا الطائيّ هي التي قلبت موازين القوى، بهجومه المباغت على الجيش المغولي، وكان هذا القائد على رأس طيّئ وحلفائهم من العرب في طليعة ميمنة الجيش المملوكي، وقد أدى عمله ذلك إلى اختلال صفوف المغول، ثم هزيمتهم هزيمة نكراء، ومذبحتهم مذبحة عظيمة هم وحلفاءهم من .

سادساً- أعلام طيّئ:

ورث أبناء طيّئ الكرم والجود وكل سجايا العرب الحميدة، فكان فيهم رجال لا يحصون قد نبغ ذكرهم، وشاع بين الناس كرم صنائعهم، وكذلك نساء، ومن هؤلاء:

أ- حاتم الطائي:

هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائيّ، وهو أشهر من دبُر السماء، لم يعارضه أحد في الكرم ممن خلق الله في العرب والعجم، وأخباره ليست مجهولة ولا مكذوبة، وأسانيدها منقولة[1].

كان حاتم جواداً شاعراً كريماً عفيفاً، حتى قال عنه رسول الله (ﷺ) يخاطب سفانة ابنته:((لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه، خلو عنها فإن

---

(١) محمد بن حمد البسام، الدرر الفاخر، ص٧٥.

أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق))[1]، ومن شعر حاتم الذي يُظهر مدى مروءته ونبله:

وإني لعبدُ الضَيفِ ما دامَ ثاوياً

وما فيّ إلا تلكَ من شيمةِ العبدِ[2]

لم يكن حاتم في كرمه بدعا عن بقية أهله، فكانت أمه أكرم نساء العرب، حتى حجر عليها إخوتها من شدة كرمها، وتوفي حاتم سنة (٤٦ق.هـ)، ولم يدرك الإسلام، وهو يُضرب به المثل حتى الآن في الجود والكرم، فُيقال: أكرم من حاتم.

ب- زيد الخير(رضي الله عنه):

زيد الخير بن مُهلهل أبو مُكنف الطائيّ النبهانيّ، المعروف بزيد الخيل في الجاهلية، ثم سماه النبي محمد(صلى الله عليه وسلم) زيد الخير، كان هذا الصحابي الجليل علماً من أعلام الجاهلية، وكان سيداً في قومه، وكان من أجمل الرجال وأتمّهم خلقة، وأطولهم قامة، وقد عده ابن حبيب في جملة المتعمّمين مخافة النساء على أنفسهم لجمالهم، وكان فارساً عظيماً، ورامٍ من الطراز الأول، ويُعد من مشاهير فرسان العرب، ومن سادات طيّئٍ، ومن الشعراء، وكان بينه وبين كعب بن زهير هجاء[3].

قدم زيد الخير إلى رسول الله(صلى الله عليه وسلم) في رهط من طيّئ يعلنون إسلامهم، فتوسّم فيه الخير، وقال له: ((يا زيد الخير إن فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله. قال(رضي الله عنه) وما هما يا رسول الله. قال(صلى الله عليه وسلم): الأناة والحلم. فقال زيد الخير(رضي الله عنه) وكله أدب: الحمد لله الذي جعلني على ما يحب الله ورسوله. ثم التفت إلى النبي(صلى الله عليه وسلم) وقال: يا رسول الله أعطني

---

(١) البيهقي، دلائل النبوة، ج٥، ص٣٤١.

(٢) ديوان حاتم الطائي، تحقيق أحمد رشاد، ص١٩.

(٣) الطبري، التاريخ، ج٣، ص١٤٥؛ ابن حبيب، المحبّر، ص٢٣٤،٣٠٣؛ الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٤٥.

ثلاثمائة فارس وأنا كفيل لك بأن أغير بهم على بلاد الروم وأنال منهم. فأكبر رسول الله(ﷺ) همته هذه وقال له: لله درك يا زيد أي رجل أنت))[1]. وكان حينها شيخاً كبيراً، وقال عنه رسول الله(ﷺ): ((ما ذُكر رجل في العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخير، فإنه لم يبلغ الذي فيه))[2].

حين عاد زيد الخير(رضي الله عنه) إلى أهله كان يمر ببلاد العرب، وحين وصل بلاد قيس قال لصحْبه: جنّبوني بلاد قيس، فقد كانت بيننا وبينهم حماقات من حماقات الجاهلية، ولا والله لا أقاتل مسلماً حتى ألقى الله(عز وجل)، فكان ذلك الفارس الذي نُسب أسمه إلى الخيل لطول طراده عليها فهو لا يمل القتال والحروب في الجاهلية؛ بعد أيام من إسلامه يتحاشى المرور على أحياء قيس، وقد أسلمت، مخافة أن تثور بينهم نعرات الجاهلية، ويُشهد الله أنه لا يقاتل مسلماً بعد أن أسلم، ويستجيب الله تعالى لدعائه ورجائه، فيموت في الطريق قبل أن يصل أهله.

ت- عدَيّ بن حاتم الطائيّ:

هو عَديّ بن حاتم بن عبد الله بن سعيد بن الحشرج الطائيّ، كُنيّ بأبي وهب، وأبي طريف، أسلم سنة تسع هجرية، كان خطيباً حاضر البديهة، وكان رئيس طيّئ في الجاهلية والإسلام، أسلم وحسن إسلامه، فكان من خيار الصحابة، وروى عن رسول الله(ﷺ) أحاديث، وله موقف مشهود هو وطيّئ في حروب الردة، وشهد فتح العراق، فقاتل مع خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيبانيّ، وسكن الكوفة وبها توفي، ويروي ابن كثير عن صحيح البخاري عن عَديّ(رضي الله عنه) أنه قال: أتينا عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) في وفد، فجعل رجلاً رجلاً يُسمّيهم، فقلت أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟

---

(١) ابن كثير، التاريخ، ج٥، ص٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٦٣.

فقال: بلى أسلمت إذ كفروا، وأقبلت إذا أدبروا، ووفيت إذ غدروا، وعرفت إذ أنكروا. فقال عدي: لا أبالي إذاً[1].

وعن قصة إسلامه المشهورة يروي أنه قد أسلم بنصيحة من أخته سفانة بنت حاتم، فقد كانت امرأة جزلة، ذات رأي سديد، فوفد على رسول الله(ﷺ)، ففرح به أشد الفرح إذ جاء مسلماً، فوقر الأيمان في قلبه، ويتضح ذلك من خلال رواياته عن رسول الله(ﷺ)، إذ يذكر أن رسول الله(ﷺ) قال: **((فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم، ووالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه. قال فأسلمت ومضت اثنتان وبقيت الثالثة، ووالله لتكونن، وقد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فُتحت، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وأيم الله لتكونن الثالثة، ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه))**[2].

أنجز الله تعالى وعده لرسوله، وأبرّ ثقة عَديّ بن حاتم حين أقسم، فكانت الزكاة لا تجد أحداً يأخذها في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز (رحمه الله).

ث- سفانة ابنة حاتم الطائيّ:

هي سفانة ابنة حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائيّة، وكانت أخت الرجال، وأفعالها أفعال الرجل، أبوها حاتم الجواد الموصوف بالجود، الذي يُضرب به المثل، وكان يُكنّى أبوها بها، فُيقال: أبو سفانة، لأنها أكبر ولده، وكذلك بابنه عَديّ[3].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٦٤– ٦٥.

(٣) ابن الأثير، أسد الغابة، ص١٨٣٦.

كانت سفانة (رضي الله عنها) من فواضل النساء، جزلة فصيحة متكلمة، تملأها الثقة والعزة بمكارم الأخلاق، وكانت تعتزّ بنسبها، وبأبيها، وبكرمه، وتفاخر بذلك بين الناس، وكانت سديدة الرأي، قوية الشخصية، ويظهر ذلك من خلال نُصحها لأخيها عَديّ، بعد أن لامته على تركها وحيدة لتقع في الأسر على أيدي المسلمين، حين أشارت عليه بزيارة النبي(ﷺ) والمثول بين يديه[١].

وعن قصة إسلامها فإن خيل رسول الله(ﷺ) قد أصابتها في سبايا طيّئ، فقدمت بها على رسول الله(ﷺ)، وحين مر بها رسول الله(ﷺ) قالت له: يا محمد إن رأيت أن تُخلي عني فلا تُشمت بي أحياء العرب، فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يفك العاني، ويحمي الذمار، ويقري الضيف، ويُشبع الجائع، ويُفرّج عن المكروب، ويُفشي السلام، ويُطعم الطعام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم الطائي. فقال رسول الله(ﷺ): ((يا جارية هذه صفات المؤمن حقاً، ولو كان أبوك إسلاميا لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق))[٢].

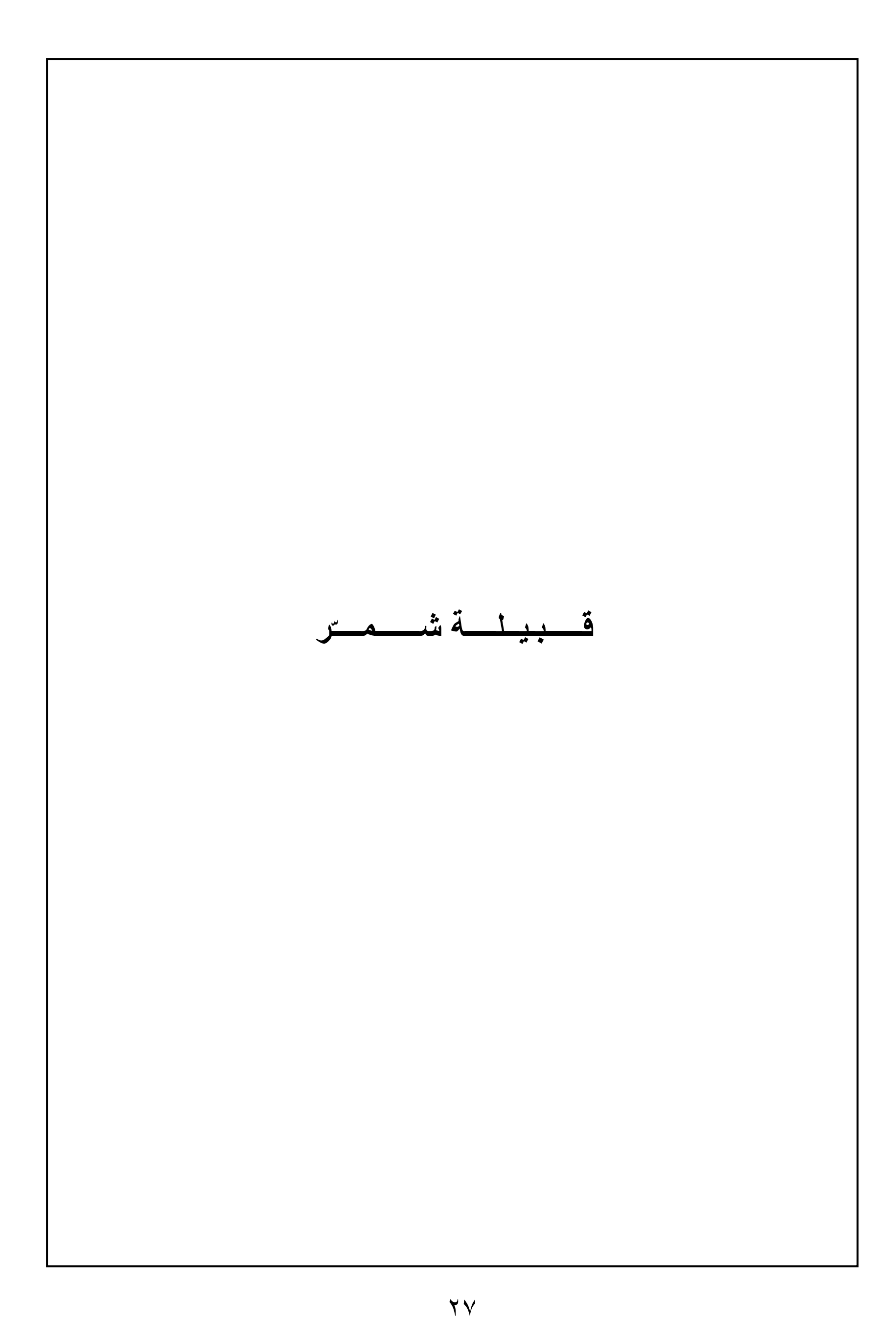
كانت سفانة من أجود نساء العرب كأبيها، وكان أبوها يعطيها من إبله فتهبها، وتعطيها الناس، فقال لها: يا بنية إن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإما أن أعطي وتُمسكي، وإما أن أمسك وتُعطي، فإنه لا يبقى على هذا شيء. فقالت: والله لا أمسك أبداً. وقال أبوها: وأنا والله لا أمسك أبداً. فقاسمها المال وتباينا ولم يتجاورا[٣].

---

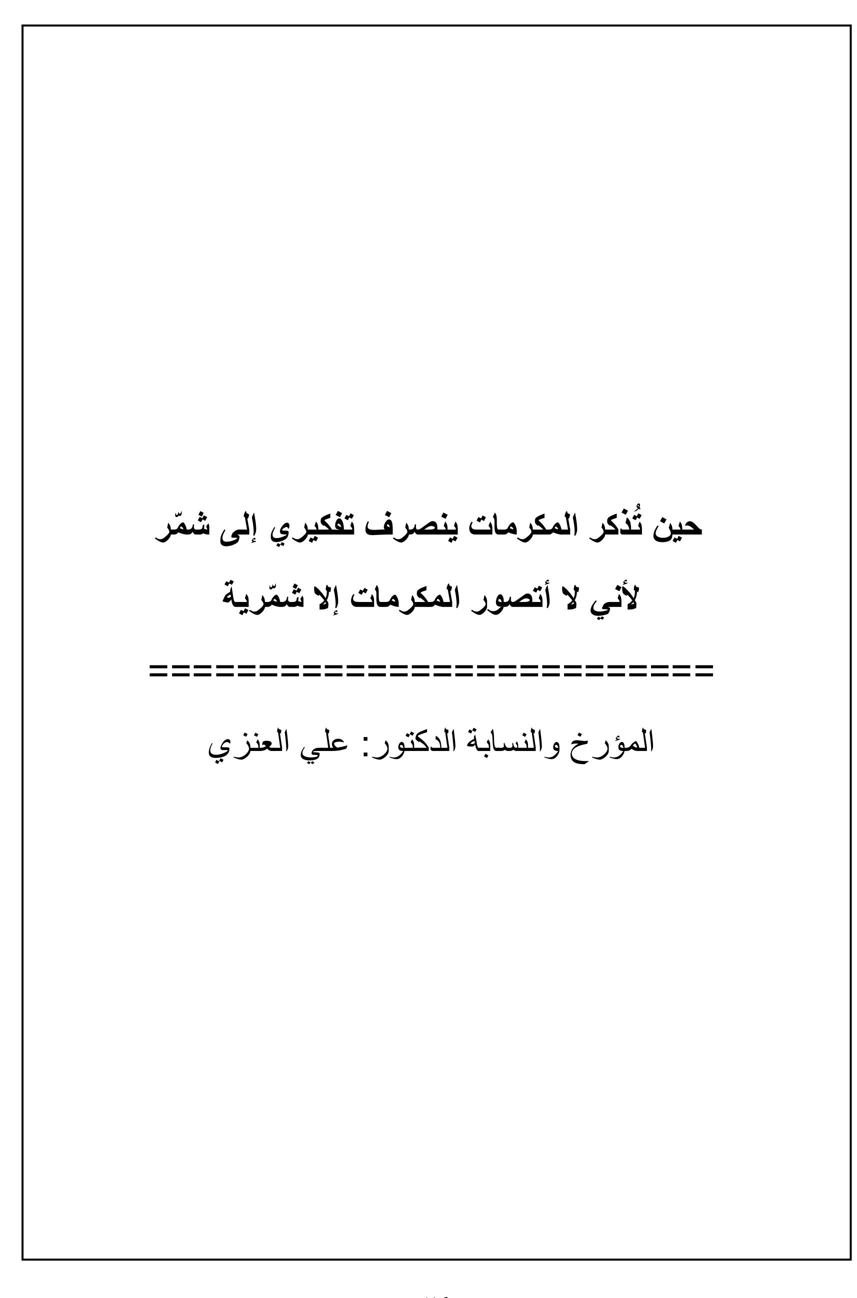
(١) ابن الأثير، أسد الغابة، ص٣٣١٣.

(٢) البيهقي، دلائل النبوة، ج٥، ص٣٤١.

(٣) ابن الأثير، أسد الغابة، ص٣٣١٣؛ عمر رضى كحالة، أعلام النساء، ج٢، ص١٩٧.



قبيلة شمّر



حين تُذكر المكرمات ينصرف تفكيري إلى شمّر

لأني لا أتصور المكرمات إلا شمّرية

==========================

المؤرخ والنسابة الدكتور: علي العنزي

أولاً- الأصول والتسمية:

أ- الأصول:

قبيلة شمّر هي الغصن الأكبر في دوحة شجرة طيّئ الوارفة الظلال، وهي تنتمي بفروعها الثلاثة - زوبع وأسلم وعبدة - إلى قبيلة طيّئ، أكبر قبائل العرب، وأشهرها على الإطلاق، قبل الإسلام وبعده، لما ذكرنا من أسباب في المبحث الأول - قبيلة طيّئ - من الكتاب، ويكاد يُجمع الباحثون على أن شمّر ينحدرون من صلب رجل واحد، وحفظ أبناؤها نسبهم عن آبائهم كابراً عن كابر، وحسبهم القاعدة التي قررها العلماء ومنهم الأمام مالك: الناس مؤتمنون على أنسابهم ما لم يدّعوا شرفاً[١]

ب- التسمية:

اختلف البعض في أصل تسمية شمّر، إذ يزعم البعض أنهم إنما سموا بتلك التسمية لأنهم سكنوا الجبل وشمّروا عن الأرض - أي ارتفعوا - فسموا شمّراً، أو لأنهم شمّروا عن ساعد الجد في اكتساب المكرمات، فسموا لذلك، لكن الراجح أنهم لحقهم هذا اللقب لأنهم أبناء رجل يُدعى شمّر، وهو جد كبير وقديم، برز ولده (قيس بن شمّر)، ونبغ ذكره بين الناس لمكارمه وفضائله، فتبعه اللقب من اسم والده، لأن العرب كانت تسمي الرجل المشهور باسم والده، فيقال (ابن فلان)، وكذلك كان قيس، فحين يذكره الناس يقولون (قيس بن شمّر)، فلحق اسم والده بأبنائه، وصاروا يُدعون (أبناء شمّر)، ثم لحق ذلك الاسم اللقب بكل نسله إلى يومنا هذا.

ذكر الشعراء القدماء قيس بن شمّر، وحددوا مكان إقامته، مما يدل على أنه هو المعنيّ في كلامنا هنا، ومن ذلك قول طرفة بن العبد فيه:

هل أنا ماشٍ بين شوطٍ وحيةٍ وهل أنا لاقٍ حيّ قيسٍ بن شمّرا

---

(١) بكر بن عبدالله أبو زيد، فقه النوازل، ص٥٢.ويقصد بالشرف هنا الانتساب إلى الدوحة النبوية الشريفة .

ثانياً- الموطن والهجرات:

أ- الموطن:

استوطنت شمّر بلاد نجد، وموطن الغالبية العظمى منهم حائل، لأسباب سياسية واجتماعية، منها أنهم أبناء طيّئ، وموطن طيّئ هو حائل، إذ استوطنت الجبلين (أجا وسلمى) وسميا باسمها، وحين غلبتها عليهما شمّر صارا يعرفان باسمها، فسُميا (جبل شمّر)، ورحلت غالبية طيّئ عنه، فملأت شمّر المكان، إضافة إلى أن السلطة السياسية قد أصبحت بيدها في عهدي آل علي ثم آل رشيد والعهود التي سبقت نشوء أمارتيهما، وكان أصحاب تلك الإمارات يقرّبون أبناء شمّر، ويعتزون بهم، ويشعرون بالفخر والعزوة بتجمّعهم حولهم، ويدل على ذلك التمسك الشديد بصلة القربى والرحم من قبل أمراء جبل شمّر بأبناء عمومتهم قول محمد بن عبد الله بن رشيد الذي توفي عام (١٨٩٧م) أمير حائل القوي والشجاع والحكيم، والذي يعتبر عصره عصراً ذهبياً لشمّر بخاصة، وبلاد نجد عامة، إذ قال: **(الدماء التي تجري في عروقنا واحدة وحتى دماء خيلنا واحدة)**[١].

ب- الهجرات:

كانت هجرات شمّر من نجد إلى العراق وبلاد الشام على مراحل، وهي تحدث غالباً نتيجة للظروف السياسية التي تحكم نجد حينذاك، فكانت المعارك التي تنشب بين شمّر وغيرها في الجزيرة العربية هي السبب الرئيس لأغلب تلك الهجرات، وبخاصة الهجرات الكبيرة منها، وقد نزحت بطون كاملة من شمّر عن نجد لذلك السبب، فنرى أن مشايخ شمّر آل الجرباء كانت هجرتهم الرئيسة بعد مقتل الشيخ الفارس مسلط بن مطلق الجرباء، حيث هاجر والده مطلق مع قسم كبير من شمّر إلى بادية العراق المجاورة لجزيرة العرب، وكذلك كانت هجرات أسلم

---

(١) آن بلنت، رحلة إلى نجد، ص٢٠٠.

الشمّرية، بينما هاجر قسم كبير من شمّر بعد سقوط دولة آل رشيد عام (١٩٢١م).

استمرت هجرات شمّر بين نجد والعراق ثم بلاد الشّام، بينما تحدث هجرات معاكسة إلى نجد تحت ظروف معينة، ثم تعاود تلك القبائل هجرة أخرى بالاتجاه الآخر، كما حدث في زمن الشيخ صفوك الجرباء شيخ شمّر، ومنها قبيلة زوبع بقيادة محّمود بن ظاهر عام (١٨٠٠م) تقريباً، إثر خلافهم مع الدولة العثمانية، ثم عودتهم بعد ذلك، حين عفت عنهم، نتيجة الظروف التي مرت بها الدولة في حربها مع الدولة الصفويَة.

ثالثاً- بطون شمّر:

نقول هنا بطون تجوزاً بدلاً عن أقسام أو قبائل، بينما أصبحت الآن تلك البطون قبائل كبيرة جداً، تضم بطوناً وعشائر كبيرة، وتنقسم شمّر إلى ثلاث قبائل هي:

أ- قبيلة زوبع:

قبيلة زوبع أكبر قبائل شمرّ، وكان النسابون والرواة يطلقون عليها اسم سنجارة، لأن غالب ذرية زوبع بن محمد الحارث هم من نسل زوجته (سنجارة)، أما القسم الآخر فهم من نسل زوجته الثانية (زايدة)، وقد صار لقب أولئك الذين من فرع سنجارة هو (زوبع)، انتساباً إلى جدهم الأكبر زوبع، بعد أن أصبحت زوبع قبيلة كبيرة ومستقلة، بينما بقي قسم منهم على لقبهم الأول (شمّر).

ب- قبيلة أسلم:

وهي الفرع الثاني من قبيلة شمّر الطائيّة، وهي قبيلة كبيرة تتوزع ما بين نجد والعراق، وقسم منها في بلاد الشام، أما القسم الأكبر منهم الآن فهم منتشرون في أغلب مناطق المملكة العربية السعودية.

ت- قبيلة عبدة:

ويُطلق عليهم الضياغم، وهم كذلك يتواجدون في نجد والعراق وبلاد الشام، وفيهم كانت إمارتا شمّر، وهما إمارة آل علي وإمارة آل رشيد.

رابعاً- مشْيّخة شمّر:

تنحصر مشيّخة شمّر في آل الجرباء، والجرباء لقبٌ، نسبة إلى الأرض التي سكنوها في نجد، ويسمّون المّحمّد أيضاً، نسبة إلى والدهم الأكبر، وهم زعماء شمّر دون منازع، وهم أشهر من نار على علم، يعترف لهم بالفضل والزعامة عموم قبائل شمّر، ولا يغيب عن ذلك أمراء إمارات شمّر - آل علي وآل رشيد - رغم أن إمارتيهم كانتا في طور من أطوارهما دولة بكل معنى الكلمة، بل دولة قوية وكبيرة، بل هي أكبر قوة في الجزيرة العربية[١]، لكنهم درجوا على احترام وتقدير وحب مشايخهم من آل الجرباء، وقد دانت شمّر في ظاهرها وباطنها لزعامتهم.

خامساً- أعلام شمّر:

أ- عبد الكريم الصفوك الجرباء (أبو خوذة):

عبد الكريم صفوك الجرباء الشيخ والفارس الذي أصبحت سيرته كأنها أسطورة، سواء في كرمه أو شجاعته، رغم أن كل ما قيل عنه هو بعض ما فيه، ولا شك أن يكون كل ذلك فيه، وهو سليل طيّئ من أبيه وأمه، فأبوه شيخ شمّر صفوك(المحزّم) الشمّري الطائيّ، وأمه سليلة العسّاف أمراء طيّئ، فلا ريب ولا شك أن يصدق القول فيه: إنه كحاتم الطائيّ في كرمه، لأننا لم نعرف أو نسمع عن أحد بعد حاتم يُضرب به المثل كعبد الكريم أبو خوذه.

---

(١) آن بلنت، رحلة إلى نجد، ص٥٨.

سُمي عبد الكريم (أبو خوذه) نسبة إلى قوله: خوذه – أي خذها حسب لهجة شمّر- لمن يطلب منه حاجة، حتى أنه أعطى لصاً جاء يسرق إبله كل الإبل، فلامته أمه على ذلك، لكنه جعل اللوم عليها حين قال لها: ماذا أفعل يا أمي وقد أسميّتني عبد الكريم.

قاد الشيخ عبد الكريم ثورة على السلطات العثمانية، التي تغيرت سياستها في عهدها الأخير، وكان سبب ثورته الرئيس احتجاجه على غدر بعض أركان السلطة بوالده الشيخ صفوك، إذ اتهم بالإعداد لثورة على الدولة العثمانية، وحُكم عليه بالإعدام، لكنه سار بشمّر إلى نجد ليمنع مذبحة محتملة لقبيلته إذا ما ألقي القبض عليه ونُفذ فيه الحكم، إذ ستثور شمّر لتثأر لشيخها.

عادت شمَر بعد حين، وقد عفت عنها الدولة العثمانية، وهي تُعد لقتال الصفويين، شريطة أن يشتركوا في حربهم تلك، فعادت وقاتلت بقيادة الشيخ صفوك الجرباء، لكنه بعد الانتصار في المعركة واستقرار الشيخ صفوك في أبو غريب قريباً من أبناء عمومته زوبع تعرض للغدر من قبل السلطة، التي لم تنس ثأرها معه رغم العفو الذي مُنح له ولشمّر، فقُتل الشيخ صفوك في مضيفه وهو نائم رحمه الله، ودفن في (تل الفرس) في أبو غريب.

استمرت ثورة الشيخ عبد الكريم ضد الدولة العثمانية، التي أصبحت بالنسبة له عدواً لدوداً، نتيجة إحساسه بالظلم الذي وقع على والده، وعلى عموم شمّر، لكنه في نهاية المطاف وبعد معارك ومواجهات مع الدولة العثمانية ألقي القبض عليه، ثم حُكم عليه بالإعدام، ونُفذ فيه الحكم عام (١٨٧١م)، وبذلك طويت صفحة هذا الشيخ الذي حاز حب وفخار شمّر، واحترام كل من عرفه، وسجل اسمه في صفحات التاريخ كأكرم رجل بعد جده حاتم الطائيّ.

ب- محمد بن عبدالله الرشيد(المهاد):

محمد بن عبدالله بن علي الرشيد خامس أمراء إمارة حائل، ولد بين عامي (١٨٢٠-١٨٢٢م)، وتولى السلطة عام (١٨٧٣م)، وهو أشهر وأقوى حكام آل الرشيد، حيث أصبحت الإمارة في عهده دولة بكل ما يعنيه مصطلح دولة من معنى، بل هي دولة كبيرة وقوية، وتضاهي الدول الحديثة في نظامها وتطبيقاته على أرض الواقع، لذلك تصف آن بلنت الإمارة بأنها: إن عظمة ابن سعود والوهابيين الآن شيء يتعلق بالماضي، ومحمد بن رشيد أقوى حاكم في جزيرة العرب[١].

حين نقول عن الإمارة أنها أصبحت دولة في عهد محمد بن رشيد نقول ذلك لأسباب منطقية وواقعية، إذ أن هذه الدولة في عهده قد توسعت كثيراً، وصارت حدودها مترامية الأطراف، وكذلك استتب الأمن في عهده إلى أبعد الحدود، حتى يعتبر عهده العهد الذهبي في تاريخ الجزيرة العربية في تلك الحقبة، وهذه الدولة لها دستور مميّز، ذلك لأن: (الدستور السياسي لجبل شمّر عجيب للغاية، ليس فقط من حيث أنه غير شبيه بما هو مألوف لنا في أوربا، بل ربما كان فريداً حتى في آسيا.. ولا أشك كثيراً في أن نجاحه يعود إلى أنه في الواقع في تناغم مع أفكار العرب والتقاليد العربية)[٢].

وربما من أسباب قوة ورسوخ حكم محمد بن رشيد هو قربه الكبير من قبيلة شمّر، قبيلته وعزوته، التي ساندته وآزرته، حيث تصف آن بلنت هذه العلاقة بأنها: لقد أدهشنا علي أي حال أن نجده مطلعاً على كل شيء، وعارفاً عن كل إنسان في أقصى الشمال، ونحن مهتمون كثيراً من حيث أنه قد حل لنا إحدى المشاكل عن نجد، التي طالما حيرتنا، وتلك هي العلاقة التي ترعاها قبائل جبل شمّر من قبائل الشمال، فقد أخبرنا

---

(١) آن بلنت، رحلة إلى نجد، ص٥٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٠٦.

الأمير أن شمر الذين في الجزيرة وشمّر أتباعه يعدون أنفسهم أقرباء قرابة رحم، حتى قال: إن دماء خيولنا واحدة[1].

هذه الدولة الحديثة والعصرية بالنسبة للحقبة التي عاصرتها لها عاصمة جميلة ونظيفة الجدران والشوارع بشكل خارق للعادة، والذي يكاد يكون جواً خيالياً[2]، وهذا يبين بوضوح مستوى التطور الذي بلغته تلك الدولة.

كان لهذه الدولة بقيادة محمد بن رشيد قوات عسكرية متخصصة، هي الشرطة الداخلية، والحرس الخاص، والجيش، لذلك بسطت سيطرتها على كافة الأراضي التابعة لسلطتها، ما أدى إلى حدوث ازدهار اقتصادي عام، فكانت القوافل في عهده تنطلق من العراق ودمشق حتى حائل ونجد والرياض، وتصل الحجاز غرباً ونجران جنوباً دون أن تتعرض لأي أذى، وبذلك مُهّدت الطرق وأمنت في وقته، وسمي محمد بن رشيد لذلك (المهاد).

بقي الأمير محمد في السلطة حتى توفي عام (١٨٩٧م)، حيث أوصى بالسلطة من بعده لابن أخيه عبد العزيز المتعب الرشيد الملقب (بالجنازة).

سادساً- من مآثر شمّر:

أيقنت الحكومة البريطانية في النهاية أن محمد بن رشيد هو أقوى حاكم في الجزيرة العربية[3]، وأن إمارته هي أكبر قوة فيها، بل هي الدولة الوحيدة في الوطن العربي التي تتمتع باستقلال وسيادة كاملتين، وقد تكون نواة لدولة كبيرة تضم إضافة إلى جزيرة العرب العراق أو أجزاء كبيرة منه، وكذلك أجزاء كبيرة من بلاد الشام، وذلك بسبب الانتشار الكبير لقبيلة شمّر في هذه الأقاليم، وكذلك لارتباط أبناء شمّر

---

(١) آن بلنت، رحلة إلى نجد، ص٢٠٠.

(٢) المرجع نفسه، ص١٨٥.

(٣) المرجع نفسه، ص٥٨.

الوثيق بصلات القربى، التي يتشبثون بها كأمر لم نعهده في سواهم من القبائل، وهو الأمر الذي أثار تساؤل الغربيين، وتصفه آن بلنت: إنها مشكلة كبيرة [1].

لقد حل لهم تلك المشكلة وذلك اللغز الأمير محمد بن رشيد حين أخبر آن بلنت: إنهم أقرباء قرابة رحم، والدماء التي تجري في عروقهم واحدة، وحتى دماء خيولهم واحدة[2]، لذلك بادرت بريطانيا بإرسال وفد رفيع إلى الأمير عبد العزيز بن متعب الرشيد (الجنازة)، وحمّلته بالهدايا الكبيرة والكثيرة، وكانت تحاول استمالته إلى جانبها بالضد من الدولة العثمانية حليفته، ولأنها تظن أن فرصتهم باتت سانحة بعد رحيل محمد بن رشيد وتولي عبد العزيز السلطة من بعده، لكن أحلامهم كانت هباءً منثورا، بعد لقائهم به، وحال طرحهم فكرتهم تلك عليه، إذ كان رده ساحقاً وبعنف لتلك الأحلام حين قال لهم: يأبى الله .. يأبى الإسلام .. تأبى المروءة .. أن أضع يدي في أيديكم بالضد من أحد من المسلمين.

قام الوفد يروم الرحيل، لكنه نادى عليهم: احملوا هداياكم. فحملوها وخرجوا يجرون أذيال الخيبة والخسران، ونار الحقد والضغينة تكوي قلوبهم، وعند الباب التفت رئيس الوفد وقد قطع كل أمل في الرجل ليقول: أعلم أن دولتك لن يكتب لها البقاء بعد اليوم. فرد عليه عبد العزيز بكلمة واحدة: (أعرف). فكان الرجل رغم حداثة سنه يعرف ما ستؤل إليه الأمور، ويعرف أن الغرب كله على قلب رجل واحد تجاه الدولة العثمانية، وهو وجوب القضاء عليها، بعد أن دب الوهن في أوصالها، وباتوا يسمونها (الرجل المريض)، لكنه لم يُعط الدنية في دينه، وتاريخه،

---

(١) آن بلنت، رحلة إلى نجد ، ص٢٠٠.

وتاريخ آبائه، ونجد ذلك التصور حاضراً في بعض من أشعاره التي قالها في أخريات أيامه، حين يقول:

راعي الجمل ودو يطيح

والّي على متنو رماه

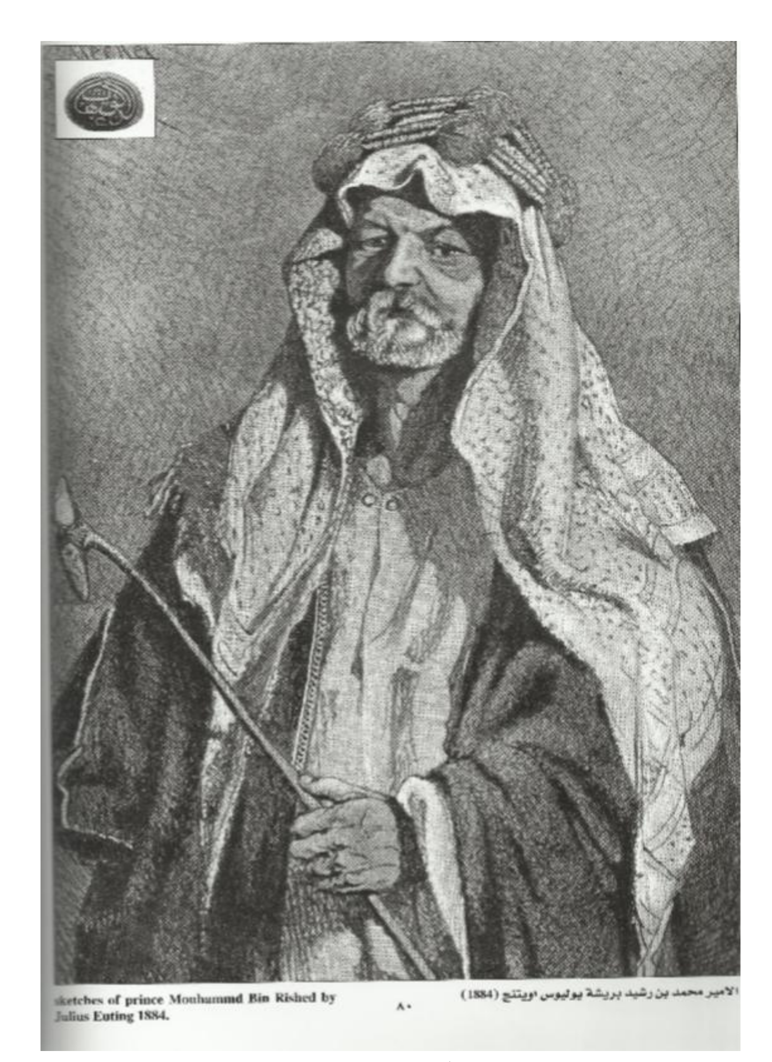
يعيال أنا مالي نطيح

مليت من تالي الحياه

نعم .. ملّ من الحياة وهو في ريعان الشباب، وهو يرى أن تراث آبائه آيل إلى السقوط والزوال، لأنه لم يرضخ لمطالب بريطانيا العظمى، ولأنه لم يمالئهم ضد الدولة العثمانية، لذلك سار على دربه الذي ارتضاه حتى النهاية، وترجل عن جمله وهو يحمل سيفه بيمنه وليس على متنه.



الشيخ عجيل الياور



الأمير محمد بن رشيد



الشيخ ضاري بن طواله



قــبـيــلـــة زوبـــــــع

متى وجدت السلطة في العراق تحترم

عائلة الضاري وزوبع

فاعلم أنـها سلطة وطنيـة

=====================================

الداعية والمفكر الإسلامي اللواء الركن: محمود شيت خطاب

أولاً- الأصول والموطن:

أ- الأصول:

تنتمي قبيلة زوبع إلى قبيلة شمّر الطائيّة، وهي أكبر قبائل شمّر الثلاث - زوبع وأسلم وعبدة - وأوسعها انتشاراً، ويُجمع مؤرخو زوبع وشيوخها والعارفون بشؤون النسب فيها أن نسبهم ينتهي إلى شمّر والد قبيلة شمّر الأكبر.

ب- الموطن:

لا شك أن كل قبائل شمّر موطنها الأول هو نجد، وتحديداً في الجبلين أجا وسلمى وسهلهما في حائل التي استوطنها أسلافهم طيّئ، حيث تشير الدلائل الآثارية والأخبار أن حاتم الطائيّ كان يسكن هناك، وفي قرية تُدعا **(توارن)**، وكذلك قبيلة زوبع، إذ إن موطنها الأول كان تلك القرية، قبل أن تهاجر إلى العراق، وما زال هناك قوم من زوبع في حائل، وفي نجد عموماً، ويؤكد ما ذهبنا إليه قول الشاعر الحريّصي الزوبعي سالم بن عيّاش في ذكر مناقب الشيخ ضاري شيخ زوبع :

زيزوم[١] زوبع من (توارن) ليا[٢] هان[٣]

ومعنى كلامه أن الشيخ ضاري بطل غيور على قبيلته، وقد أخذ تلك الصفات والخصال عن آبائه الذين كانوا في **(توارن)**، ويؤكد ذلك ويعضّده أن الشاعر كان قريب عهد من الرجال الذين نقلوا أخبار قبيلته عن أهله، وكذلك وجود بطون كثيرة من عشائر زوبع ما زالت تسكن حائل، ومنهم عشيرة الشاعر الأدنى - الحرصا - الذين ما زالوا يستوطنونها.

---

(١) زيزوم: بطل صنديد.

(٢) ليا: إلى

(٣) هان: هنا

ثانياً- التسمية:

أخذت زوبع اسمها من اسم جدها الأعلى زوبع بن محمد الحارث، واختصّت بتلك التسمية، وكان محمد الحارث يُسمى (شريف شمّر)، ورغم أن هناك عشائر عديدة وكبيرة يعود نسبها إلى زوبع بن محمد الحارث لكنها بقيت تتسمّى بالمسمّى الأول - شمّر - لأسباب جغرافية وسياسية، وتكاد تكون تسمية زوبع تعم نسل سنجارة زوجة زوبع، وهم الفرع الأكبر من ذرية زوبع، أما الفرع الآخر فهم أبناء زايدة زوجة زوبع الثانية، وأبناء زوبع هم:

أ- أبناء سنجارة:

١- زميل: وهو والد الفروع الخمسة من زوبع (الجتادة، الكروشييّن، السعدان، الحمّام والشيتي وكذلك النمور والرموث)، وهناك فروع أخرى من أبناء زميل ما زالوا في نجد، وهم ينتسبون إلى القبيلة الأم شمّر، ومنهم عشائر الزميل والسلمان والشيحة، وكذلك لهم امتدادت في العراق.

٢- زامل: وهو جد الزامل، ومنهم عشيرة الفدّاغة الكبيرة، والتي تضم عشائر كثيرة، تنتشر في العراق وبلاد الشام والمملكة العربية السعودية، وبعض تلك العشائر ما زالت تتسمى بالتسمية الأولى – شمّر - ومنهم (أبو الغنم، أبو رمان، والعربيات، اللوزية، والكوكزة)، وتستوطن تلك العشائر المملكة الأردنية الهاشمية في وقتنا هذا، وقسم من أبو رمان في سوريا، بينما ينتمي عموم أبناء عشيرة الفدّاغة في العراق إلى قبيلة زوبع.

٣- ثابت: وهو جد عشيرة الثابت الكبيرة، والتي تضم بطوناً عديدة، منهم التومان، وغالبيتهم اليوم في المملكة العربية السعودية، ومشيختهم في التمياط، وهناك منطقة في الرياض تُسمى باسمهم، والتومان هم أخوال الشيخ حارث الضاري(رحمه الله)، فجده لأمه الشيخ مطلق العايش.

٤- علي: وهو الجد الأكبر لعشيرة الغفيّلة، ومنهم أبن رمال ثم الحرصا، وهم عشيرة كبيرة، وصل امتدادها إلى سيناء في مصر.

٥- نابت: وهو جد عشيرة النابت.

ب- أبناء زايدة:

١- سيف: وهو جد عشيرة الخرصا، ومنهم آل الجرباء شيوخ شمّر.

٢- صبحي: وهو جد الصبّحي ومنهم الصّديد.

٣- عامود: وهو جد عشيرة العامود المعروفة.

ثالثاً- مشيّخة زوبع:

بعد أن استقلت زوبع في كيان خاص؛ أصبحت لها شخصيتها المستقلة، وموقعها الجغرافي تقريباً، وكذلك مشيّختها الخاصة، فكان شيخها بكر الحمّام، الذي ضرب أروع الأمثلة في نكران الذات، حين تخلّى عن المشّيخة لابن أخيه محّمود الظاهر، خروجاً على الأعراف القبلية في تولّي أحد أبناء الشيخ المشيخة من بعده، بعد أن رأى في ابن أخيه كل آمارات القيادة التي يستحق معها ذلك المنصب، يوم كانت مشيخة القبيلة بالنسبة للرجل البدوي تعدل كرسي الرئاسة أو الإمارة في ذلك الزمن، وهكذا ما زالت مشّيخة قبيلة زوبع في عقب محّمود إلى يومنا هذا[١].

رابعاً- هجرات زوبع:

الدخول الأول لزوبع إلى العراق كان فردياً، إذ دخلها سليمان بن حمّاد وهو والد حمّام والد عشيرة الحمّام، ثم عاد بعد حين إلى (توارن) في حائل، وبعد فترة حدث خلاف بين أبناء سليمان وأبناء عمومتهم

---

(١) عبد العزيز محمد باقر السهيل، في نسب العرب، ص٦.

الشمّروخ، سال فيه الدم، لذلك هاجر حمّام إلى العراق، وكان معه بعض أصحابه من قبيلة الخوالد، منهم (الجّنابي والمسّحلي)، وبقي في العراق فترة من الزمن، ثم عاد إلى نجد، بعد أن حدث الصلح مع أبناء عمومتهم الشمّروخ.

ما شاهده حمّام في العراق بقي حاضراً في ذهنه، حيث المياه الوفيرة، والمراعي الخضراء، لذلك عاد مصطحباً قبيلته إلى العراق، فكانت تلك الهجرة الأولى لزوبع إلى العراق.

ذلك يعني أن زوبع قد هاجرت إلى العراق في بداية القرن الثامن عشر الميلادي، أو في نهايات القرن السابع عشر ولجملة شواهد منها: إن أول ذكر تاريخي مدوّن وثّق وجود زوبع في العراق وورد في عدة مصادر أنهم موجودون هناك جاء من خلال الحديث عن شيخهم بكر الحمّام والحادث الذي جرى بينه وبين الوالي سليمان باشا المملوكي المسمّى (بقاهر البدو) عام ١٧٤٩م، والأحداث اللاحقة في عام ١٧٥٥م[١].

في ذلك الحين كان الشيخ بكر الحمّام شيخ زوبع شخصية معروفة في العراق، بل كان لها تأثير واضح في سير الأحداث في تلك الفترة يتضح من خلال موقفه من الوالي سليمان باشا المشهور بالقسوة والبطش في التعامل مع القبائل البدوية، لذلك أطلق عليه لقب (قاهر البدو)، لكن بكر الحمّام وقف بوجهه، ولم يرضخ لجبروته، وهذا يدلل على أن زوبع كانت لديها من بعضاً من أسباب القوة التي تجعل شيخها يقف بوجه الوالي سليمان، أي أنها قبيلة كبيرة وقوية ومتمسكة بأرضها في العراق، ولو علمنا أن حمّام والد الشيخ بكر قد هاجر صحبة القبيلة قبل أن يترأسها ولده بكر بوقت طويل حينها يمكن أن نطمئن إلى التقديرات الزمنية التي حددناها حول أوان هجرة زوبع إلى العراق،

---

[١] أوبنهايم، البدو، ص٥٥؛ كركوكلي، دوحة الوزراء، ص٨٧؛ داني شمطوط، تحفة المداد، ص٣١.

ويؤيد زعمنا هذا ما أورده عباس العزاوي بقوله: ((ورد ذكرهم - زوبع - في وقائع العراق سنة ١١٦٩هـ/ ١٧٥٦م ورئيسهم آنئذ بكر الحمّام .. والمحفوظ أنهم جاءوا إلى هذه الأنحاء أيام حمّام جد فرقة الرؤساء))[١].

وفي فترة زعامة محّمود أعادت زوبع الكرة في هجرة معاكسة إلى حائل، موطنها الأول، على إثر خلاف شخصي بين فارس المحّمود وبعض الجنود العثمانيين، تطوّر إلى أبعد من ذلك، فقتل عدداً منهم، وقررت السلطة في بغداد معاقبة زوبع، حيث حشدت القوات، وجهّزت المدفعية والعتاد لضربهم في اليوم التالي، في حال لم يُسلّم محّمود ولده فارس إلى السلطة، لذلك قرر الخروج بزوبع في ذلك اليوم على عجل، وقد التقى في طريقه ببقية شمّر الذين خرجوا مع شيخها صفوك الجرباء، بعد أن حكمت عليه السلطة العثمانية بالإعدام، لاتهامه بالتآمر لقلب نظام الحكم.

وهكذا كانت الهجرة المعاكسة لشمّر جميعها إلى نجد مرة أخرى، وسنتطرق إلى هذه الواقعة في المبحث الخاص بعلاقة زوبع بالدولة العثمانية.

حين استعدّت الدولة العثمانية لحرب الدولة الصفويّة كانت بحاجة إلى العون والمساندة، وهي تعرف قوة شمّر وبأسها في القتال، وقد خبرت ذلك منهم في حروبها السابقة مع الصفويين، لذلك منحتهم عفواً عاماً، شريطة أن يعودوا لمناصرتهم في تلك الحرب، وهكذا عادت شمّر إلى العراق، وزوبع من ضمنها بلا شك، لتكون تلك الهجرة هي الثانية والأخيرة لزوبع إلى العراق، حيث استقرت فيه إلى يومنا هذا.

لا يعني ذلك أن زوبع قد انقطعت عن جذورها في موطنها الأول جزيرة العرب، فهناك بطون عديدة وكبيرة من عشائرها لم تغادر موطنها الأول نجد، وبخاصة حائل، وهناك أيضاً جماعات وأفراد عادوا

---

[١] **عباس العزاوي، عشائر العراق، ج١، ص٧١.**

إلى نجد وعموم الجزيرة العربية، في هجرة معاكسة على فترات زمنية متتالية، وهم اليوم عشائر كبيرة تحمل ذات الأسماء، تفرعت منها بطون وعائلات عديدة، ومن تلك العشائر عشيرة الجتادة، ومن أشهر حمائلها هناك: الفجري، وكانوا بيت رئاسة في الجتادة، ومنهم العبيدان، والذوالفة، والزبار، والبصيص، والربعية، والناعور، وكذلك عشيرة الشمّروخ ومن حمائلهم: الضوّي، وعشيرة الرموث ومن حمائلهم: المطرود والثامر، وعشيرة القويدان، كما أن هناك بطون من عشيرة الثابت، وعشيرة الحرصا، ومنهم عشيرة كبيرة تسكن منطقة جبة في حايل، وهم المسّلّم عشيرة الشاعر الزوبعي المشهور سالم بن عياش، وكذلك عشيرة الفدّاغة، وبقية عشائر زوبع الأخرى، وتتوزع بين دول الخليج العربي، بيد أن تواجدهم الأكبر هو في المملكة العربية السعودية، ويمكن أن ترى تواجدهم واضحاً في مناطق مثل حائل، ورفحاء، وحفر الباطن، والرياض، وغيرها من مناطق المملكة.

خامساً- حلفاء زوبع:

بعد أن استقلت زوبع وأصبح لها كيان خاص - سياسي قبلي - وأرض تحت سيطرتها؛ عقدت تحالفات مع عشائر وبيوتات من قبائل أخرى متعددة، وكلمة تحالف نذكرها هنا لأنها المصطلح الذي درج الناس على استخدامه، بينما كانت العلاقة بين زوبع وأولئك الحلفاء أبعد من ذلك بكثير، إذ أصبحت العلاقة بينهم علاقة مصير مشترك، بعد أن اختلطت دماؤهم بالمصاهرة، وكذلك في ساحات المنازلة، سواء في الدفاع عن بيضة زوبع، أو حين ينادي منادي الوطن للجهاد، وذلك ما حصل في ثورة العشرين، وفي ثورة مايس عام (١٩٤١م)، وكذلك بعد احتلال العراق من قبل القوات الأمريكية الغازية عام (٢٠٠٣م).

تحوي زوبع عدداً كبيراً من الحلفاء، الذين انصهروا لاحقاً في بوتقتها، وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ من كيانها، وربما هي من أكثر القبائل

التي حوت مثل تلك التحالفات، لذلك سُميت عشائر زوبع (بالحيوات) نسبة إلى ذلك، وهؤلاء الحلفاء هم:

١- **الخوالد:** وهؤلاء هم خمسة رجال من قبيلة بني خالد، جاءوا مع حمّام بن سليمان في مجيئه الأول إلى العراق، وهم من أصدقائه الخُلّص في نجد، وقد عادوا معه حين عاد إلى أهله بعد أن تصالح مع بني عمه الشمروخ، كما ذكرنا آنفاً، وحين رجع إلى العراق مع قبيلته جاءوا معه مرة ثانية، واستقروا فيه.

٢- **الهلّيل:** تنتمي عشيرة الهليّل إلى قبيلة المجمّع، وهي أول عشيرة من عشائر العراق تتحالف مع زوبع بعد هجرتها إلى العراق.

٣- **الزرفات:** الزرفات فرعان من قبيلة زبيد العربية المشهورة، وهما ألبو سودة والمعامير، والمعامير لقب أطلق عليهم لأنهم عمّروا الأرض -زرعوها- التي أصبحت ضمن سيادة زوبع في ذلك الحين، بعد أن تحالفوا معها، ثم تصاهروا، وهم من أوائل العشائر المتحالفة مع زوبع.

٤- **الهيتاويين:** وهم عشيرة كبيرة وتنتمي إلى قبيلة زبيد أيضاً.

٥- **الصبيحات:** الصبيحات تجمع لرجال من أبناء قبيلة شمّر، استمالهم الشيخ ظاهر المحّمود، ووهبهم أرضاً في منطقة الكرمة، التي كانت تحت سيطرة زوبع، وكانوا يسكنون العاصمة بغداد، وهم أربعة رجال، ثلاثة من الصبحي وواحد من أسلم.

٦- **الدرافلّة:** وهم ينتمون إلى قبيلة اللهيب العربية المعروفة في العراق، وينتشر أبناء تلك القبيلة في وسط وغرب العراق.

٧- **بني زيد:** تنتمي هذه العشيرة إلى قبيلة بني زيد العربية المعروفة، والتي لها امتدادات في أغلب محافظات العراق.

٨- **المعاضيد:** وهم من قبيلة شمّر.

٩- الشعّار: وتضم هذه العشيرة تجمعاً من عدة قبائل، من الجبور، والعبيد، والبعيج، والرفيع، والمنتفج، تحالفت فيما بينها، ثم تحالفت مع زوبع.

١٠- القراغول: وهم إحدى عشائر قبيلة القراغول المنتشرة في وسط وجنوب العراق.

١١- السميلات: وهم من قبيلة ربيعة.

١٢- الفياض (ألبوحيمر): وهم ينتمون إلى قبيلة بني تميم.

١٣- الغريباويين: وينتمون إلى قبيلة بني كلاب العربية العريقة.

١٤- المساعيد: وهم من قبيلة طيّئ.

١٥-المسآرة: وهم من قبيلة طيّئ.

١٦-الرواجح: وهم من قبيلة طيّئ.

١٧-الحرابا: وهم من قبيلة طيّئ.

١٨-العبادلة: وهم من قبيلة طيّئ.

١٩- الصُفر: وهم من قبيلة طيّئ.

٢٠-الشورتان: يُرجِع بعض علماء النسب الشورّتان إلى العرب القحطانيين.

٢١-العنّاز: وهم ينتمون إلى قبيلة عنزة.

٢٢-الخوابرة: وهم من قبيلة العكيدات.

٢٣-الزوينات: وهم من قبيلة الجبور.

٢٤-**المريزة:** وهم ينتمون إلى قبيلة العبيد المعروفة.

٢٥-**المشاهدة:**وهم ينتمون إلى قبيلة المشاهدة العربية القرشية المعروفة.

٢٦-**الفلوجيين:** وهم ينتمون إلى قبيلة ألبو ناصر التكريتية.

٢٧-**النوافلة:** وهم ينتمون إلى قبيلة خزرج.

٢٨-**الفريجات:** وهم من قبيلة العزّة المعروفة.

٢٩-**ألبو مفرّج:** وهم ينتمون إلى قبيلة العبيد.

٣٠-**اللكاد:** وهم من قبيلة أسلم الشمرية.

٣١-**أكراد(كرام) زوبع:** وهم ينتمون إلى القومية الكردية.

٣٢-**الغصنة والدوّارة:** وهم من قبيلة الجنابيين.

٣٣-**الكوّام:** وهم أيضاً من قبيلة الجنابيين.

٣٤-**العزّة:** وهم ينتمون إلى قبيلة العزة المعروفة.

٣٥-**البرطلّيّة:** وهم من قبيلة عبودة.

٣٦-**الحصاميت:** وهم من قبيلة عبودة أيضاً.

٣٧-**الهراجات:** وهم من قبيلة بني رجاب.

٣٨-**الرباكات:** وهم ينتمون إلى قبيلة سراي من قبيلة ربيعة المعروفة.

٣٩-**المداريخ:** وهم من قبيلة البعيج.

٤٠-**الجوادس:** وهم ينحدرون من القبائل العربية التي سكنت القدس، ثم هاجروا إلى العراق، وهناك عشائر وعائلات في دول عربية عدة تتسمى بهذا الاسم(مقدسي).

سادساً- الشيخ ضاري:

إني إن متُ أو قُتلت فحسبي أبنائي وعشيرتي وهم كثيرون ولله الحمد، ومَنْ مثلي لا يمكن أن يموت، وإن أبناء العراق الطيبين سيذكرونني، وهذا من فضل الله عليّ، وعلى أبنائي وعشيرتي.

======================================

من أقوال الشيخ ضاري التي خاطب بها قائمقام قضاء سنجار في الموصل بعد إلقاء القبض عليه[1]

---

(١) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٧٦.

الشيخ ضاري بن ظاهر بن محّمود بن ظاهر بن حمام بن سليمان ابن حماد بن بركات بن غانم بن فليح بن علي بن سالم بن نبهان بن عبد الله بن نبهان بن زميل بن زوبع بن محمد الحارث (شريف شمّر).

يُعد الشيخ ضاري رمزاً لقبيلة زوبع[١]، فحين تُذكر زوبع يتبادر إلى الأذهان ذكره بصورة مباشرة وعفوية، وهو شيخها الأشهر تاريخياً، نتيجة موقفه المعارض والصارم والمبدئي من الاحتلال البريطاني للعراق، وهو من أشهر قادة ثورة العشرين في العراق ضد الاحتلال البريطاني.

حاز على حب وتقدير أبناء العراق، وخلدته ذاكرة العراقيين بأسمى الأوصاف، بعد أن قاتل البريطانيين في مواقع عديدة، في الرمادي والفلوجة، وأبو غريب، والتاجي، وكربلاء، ثم توج جهاده بقتل أكبر وأشرس ضابط استخبارات في الجيش البريطاني وهو الكولونيل لجمان.

يكفيه شرفاً أن حكومة بريطانيا (العظمى) والتي لا تغيب الشمس عن مستعمراتها؛ قد جعلته نداً وعدواً لدوداً، فلم تعفوا عنه فيمن عفت عنهم من قادة الثورة العراقية الكبرى - ثورة العشرين-، وألقت القبض عليه في عملية تآمرية لصوصيّة، وهو شيخ كبير، قد هد قواه المرض والغربة، فحكمت عليه بالموت في أشهر محاكمة في تاريخ العراق الحديث، خلال مرحلة الانتداب البريطاني على العراق، وبعد تأسيس الحكم الملكي، ثم أبدلت الحكم إلى المؤبد، لكنها دست له من يفتك به في المستشفى بعد يومين من صدور الحكم عليه، فرحل عن هذه الدنيا ولم

---

(١) لينا هويّان الحسن، رجال وقبائل، ص٢١.

يُصانع أو يُمالئ أحداً على حساب مبادئه، حتى وإن كان ذلك الأحد بريطانيا (العظمّى)، لأنه كان يصدر في أفعاله وتصرفاته عن فهم عميق لما يحصل في بلده، والبلدان العربية الأخرى، ويعي تماماً نتائج التعاون مع الدول الأوربية المستعمرة، أو مهادنتها، ويتضح ذلك جلياً في مواقفه تجاه العديد من القضايا، ومنها:

أ - موقفه من الثورة العربية الكبرى:

للشيخ ضاري رأي مخالف لرأي الشريف حسين ومن وقف إلى جانبه بالضد من الدولة العثمانية، وهو يرى كما أخبرني الشيخ سليمان الضاري أن موقفهم ذلك مخالف لتعاليم الشريعة الإسلامية، رغم تحفظاته على سياسة الدولة العثمانية في عهودها المتأخرة، نتيجة ارتهان قراراتها بأيدي الجمعيات والشخصيات التي لا تهتم لأمر تلك الدولة، بل إن بعضهم كان يسعى تحت ستار التغيير في سياسة الدولة إلى نقض أساسها، وهدم صرح بنائها، لذلك يرى أن التحالف مع الدول الأوربية سيعود بالويل والثبور على الأمة العربية، لا سيّما وأن تلك الدول كانت مدفوعة بدوافع مصالحها القومية، والتي هي بالضد من مصالح العرب، فهي تسعى إلى تمزيق إرث الدولة العثمانية الآيلة للسقوط، واستلابه حال سقوطها، ومن ذلك الإرث الدول العربية، وأن التحالف معها سيُفضي في النهاية إلى الوقوع في فخ احتلال غاشم متغطرس، لا يمكن الخلاص منه، وأن الأمة ستدفع ثمناً باهظاً من دماء أبنائها للخلاص من ذلك الاحتلال، فكان كما توقع الشيخ ضاري دون ريب.

ب- موقفه من الاحتلال البريطاني للعراق:

ناهض الشيخ ضاري مؤامرة الغربيين على الأمة منذ البدء، وحذر من الوقوع في شراكهم وحبائلهم، وحين وقع ما كان يخشاه لم يهرب إلى الأمام، فلم يُهادن، ولم يجلس يجترّ الماضي، فيلوم هذا على ما فعل، ويعاتب ذاك، بل شمّر عن ساعد الجد، وعضّد سواعد إخوته غيارا العراق، الذين رفعوا راية الجهاد ضد المحتل.

ت- مواقفه الوطنية:

يصدر الشيخ ضاري في مواقفه وتصرفاته من منطلق إسلامي حقيقي، وكذلك من منطلق وطنيّ، والذي تمّيز به، ومنها رفضه للاحتلال البريطاني، ومناهضته له، فهو متمسك بوحدة العراق وأبنائه، لا يفرق بين واحد وآخر، أو قومية ومذهب وآخر، وقد أكسبه ذلك عداء البريطانيين، والكولونيل ليجمن بخاصة، حين رفض سياسة (فرّق تسُد) التي انتهجها المحتل البريطاني، وروج لها لجمن، ويتضح ذلك من خلال الحوار الذي جرى بينهما في أحد الاجتماعات في الرمادي، إذ كان يحاول بث سمومه بين أبناء الشعب العراقي، فجمع رؤساء القبائل، وكان بينهم الشيخ ضاري، وادعا أنه جمعهم ليستوضح رأيهم كقبائل سنيّة في الثوار الشيعة، الذين يطالبون السلطات البريطانية بقيام حكومة وطنية مستقلة، لكن ضاري استغل الموقف ليبيّن رأيه بكل جرأة، ولم يفسح المجال لأحد من الحضور بالكلام، فنهض قائماً ليقول: **لا تذكر ياليجمن كلمة (شيعة)، فليس في ديننا سنة ولا شيعة، بل هناك دين واحد، وعراق واحد، وكلمة واحدة، وإجماع على تشكيل حكومة وطنية، فإذا لبيتم مطالب الثورة فإن الاستقرار والأمن سيسودان العراق، وإنني في موقفي هذا أُخاطبك بلسان الجميع. لكن لجمن أصر على ترديد ذات النغمة، حين زعم أن حكومة جلالة الملكة في حيرة من أمرها، فهل تشكّل حكومة شيعية أم سنيّة، عند ذلك قال له: دعك من هذه النغمة، وليس في عراقنا شيعة أو سنّة، إنما هناك علماء أعلام نرجع إليهم في أمورنا، وهم حكومتنا[1].**

قبل ذلك اللقاء كان ليجمن يكنّ العداء للشيخ ضاري، بعد أن أسهمت زوبع بقيادته في معركة سلمان باك، وحصار الكوت إلى جانب الجيش العثماني، وهي معارك ما يزال يئن من وطأتها تاريخ الحرب البريطاني،

---

(١) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٥، ص٦٨؛ العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٥٠.

حيث أسر الجنرال تاوزند مع عموم الجيش البريطاني الزاحف إلى بغداد، وقد نجا ليجمن من الأسر مع بعض الخيالة البريطانيين قبل ساعات من استحكام الحصار على ما أشار إليه الفريق السر أيلمر هولدين، وكانت هذه إحدى العقد التي ترسّبت في صدر ليجمن ضد ضاري[1].

بعد ذلك اللقاء العاصف حاول ليجمن أن يغدر به، فدعاه مرات عدة لمقابلته، لكن ضاري لم يُلبّي رغبته في اللقاء، حتى اضطر في نهاية المطاف إلى مقابلته في مخفر أبو منيصير في منطقة خان ضاري، وكان لقاءاً أخيراً بين الرجلين، إذ أجهز عليه الشيخ ضاري في ذلك اليوم .

ث- ولادته ووفاته:

ولد الشيخ ضاري بن ظاهر المحّمود في بغداد قضاء أبو غريب سنة (١٨٦٣م)، وتوفي في المستشفى العسكري ببغداد فجر اليوم الأول من شهر شباط سنة (١٩٢٨م)، وتشير أغلب الدلائل على أنه مات مسموما، بتدبير من سلطات الاحتلال البريطاني، وقد صدرت جريدة الاستقلال البغدادية صباح يوم الخميس ٢ شباط مجلّلة بالسواد، وهي تُعلن:

مات ضاري المحّمود ...

بغداد في مأتم ...

لتقول بعد ذلك: **الشيخ ضاري نار على علم، يحبه العراقيون حباً جماً، ويقدّسه المخلصون منهم تقديساً .. تخفق لذكراه القلوب، وتهفو لأسمه الأرواح .. لأنه لم يكن كسائر الناس، وإنما كان الكل يعتقد فيه الإخلاص والشهامة والإباء العربي الصميم، ويرى في شخصيته**

---

(١) عبد الجبار العمر، مصرع الكولونيل لجمان، ص٥٤.

المحبوبة نور الآمال الوطنية والأماني القومية، ويضيء النفوس الحرة البريئة[1].

حاولت السلطات العراقية بتوجيه من سلطة الانتداب البريطاني أن تنقل جثمان الشيخ ضاري بإحدى سيارات الشرطة، بعد أن تجمّع أهل بغداد لتوديعه، خشية حدوث أعمال شغب نتيجة حزن وغضب العراقيين على مصابهم.

خرجت بغداد عن بكرة أبيها نساءً ورجالاً وطلاب مدارس، وقد أقسمت أن تشيّع فقيدها على أكتافها، فهجموا على سيارة الشرطة، واستنقذوا النعش المحمول فيه جثمانه من الأسر، وطافوا به شوارع بغداد، واختلطت في ذلك اليوم النساء بالرجال مودعين شيخهم الثائر[2].

وصف الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف مشهد تشييع الشيخ ضاري بقوله: كان سني يوم استشهد الشيخ ضاري اثني عشر عاماً، وقد رأيت بغداد قد خرجت عن بكرة أبيها لتشييعه إلى مثواه الأخير. ليس غريباً أن نرى ذلك من العراقيين بحق **(رجل باع نفسه للعراق فاشتراه العراقيون)** كما قال رئيس وزراء العراق عبد المحسن باشا السعدون.

رجل أحدث نكاية عظيمة في البريطانيين بقتله رجل من أشجع وأمهر رجالهم، وكان لمقتله تأثير معنوي كبير على العشائر، حتى وصف ذلك أحد القادة البريطانيين قائلاً: إن خبر مقتل ليجمن انتشر بين العشائر كانتشار النار في الهشيم، فصارت العشائر تقول: (راح ليجمن، انتهت الحكومة كلها). ويُعلل ذلك: بأن العشائر كانوا يتصورون ليجمن كأنه قائد القوات الإنكليزية كلها، أو هو ملك إنكلترا، ولهذا عمدت العشائر إلى إشهار سلاحها عقب مقتله وأعلنت الثورة[3].

---

(١) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص١٢٠-١٢١.

(٢) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص١٢١-١٣٠.

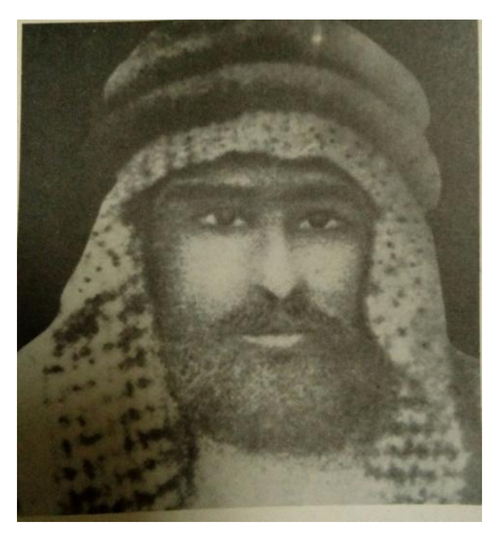
(٣) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، ص٧١- ٧٢.

يتكلم الجنرال أيلمر هالدين قائد القوات البريطانية عند نشوب الثورة العراقية عام ١٩٢٠م عن فاجعة قتل ليجمن وما تلاها من أحداث قائلاً: **إن توالي هذه المصائب قد يجعل الإنسان يشعر بأن الآلهة لا تحارب إلى جانبنا[١].**

كان هتاف البغداديين يوم ودعوا بطلهم ضاري .. موجعاً لبريطانيا وسلطتها في العراق، ومن يمالئ تلك السلطة، حين هتفوا:

(هز لندن ضاري وبجّاها)

وأيقنوا أن العراقيين يستشرفون المستقبل بكل ثقة، ويدركون أن العراق لا بد أن يكون حراً سيداً.

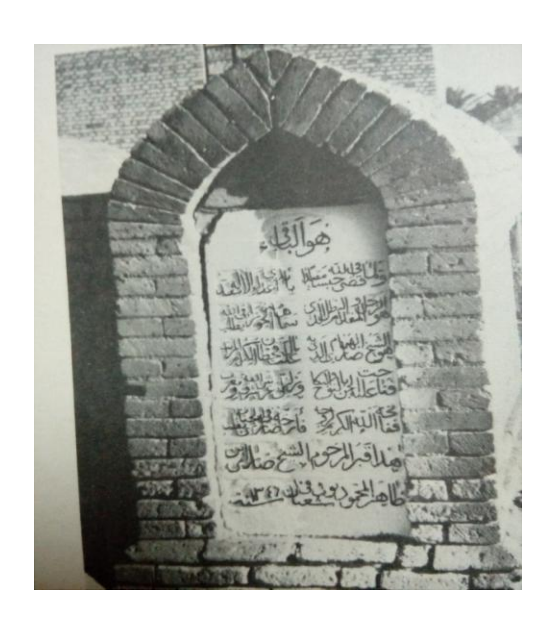


الشيخ ضاري المحّمود

(١) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، ص٧١.



بغداد تشيّع الشيخ ضاري المحّمود



ضريح الشيخ ضاري المحّمود في مقبرة الشيخ داود ببغداد

علاقة زوبع بالعشائر المتحالفة معها وبقبيلة شمّر والقبائل المجاورة

أولاً- علاقة زوبع بالعشائر ا ها:

تنتمي العشائر المتحالفة مع زوبع إلى قبائل متعددة، كبيرة ومعروفة، ويُطلق عليها تسمية أحلاف وحلفاء، وهو مسمّىً مجازي، أُطلق في بداية تكوين التحالف، لكنه بقي يتردد على الألسن، بينما الحقيقة أن أولئك الحلفاء أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من كيان قبيلة زوبع، لهم ما لها، وعليهم ما عليها، بعد أن اختلطت دماؤهم بالمصاهرة، كما اختلطت في ساحات الوغى، سواء في ذودهم عن بيضة وكرامة زوبع، أو في وقوفهم تحت رايتها مدافعين وذائدين عن تراب العراق وسيادته وعزته .

لم تقتصر تحالفات زوبع على القبائل العربية، إنما تحالفت أيضاً مع عشائر من قبائل كردية، وما أكراد زوبع أو (كرام) زوبع - كما سماهم الشيخ ظاهر المحّمود - إلا دليل على ذلك .

ما يميز زوبع عن غيرها من القبائل أنها استقطبت عدداً كبيراً من الحلفاء، لذلك سُميت عشائر زوبع بالحيوات، لأنهم احتووا تلك العشائر الكثيرة، ثم انصهرت في بوتقة الزوبعية، وكان مشايخ زوبع لا يفرقون بين من هم من زوبع نسباً، وبين مَنْ هم من حلفائهم، وكانت قلوب وضمائر الجميع تنبض بحب قبيلتهم زوبع، ونكران الذات من أجل عزتها وكرامتها، وكما سيتضّح في الأمثلة الآتية:

أ- قسمة الشيخ ظاهر للأرض التي تحت سيادته على أبناء زوبع:

أيقن الشيخ ظاهر المحّمود أن حياة البداوة والترّحال لا جدوى منها، وأن الاستيطان والاستقرار في وطن؛ يمنح قبيلته مزايا عديدة، وأولها إطفاء نار العصبية القبلية، والمشاحنات بين القبائل من أجل المراعي، وكذلك ظاهرة الغزو بين القبائل، وهي من بقايا الجاهلية التي حرّمها الإسلام، وقد حرّمها الشيخ ظاهر على قبيلته، وهو يصدر في ذلك عن

وعي ديني إسلامي حصيف، إذ كان الرجل زاهداً في الدنيا، مُقبلاً على الآخرة بكل جوارحه، فهو (حكيم متديّن) .

من أجل ذلك الأمر قرر أن يقسّم الأرض التي تحت سيطرة زوبع بين عشائرها، فأقر كل عشيرة على الأرض التي سكنتها، وقسّم بقية الأرض على العشائر الأخرى، ولم يكتف بذلك، بل حض من يعرف من أبناء طيّئ وشمّر القاطنين في بغداد على النزوح إليه، وأقطعهم أرضاً، ومن هؤلاء عشيرة العبادلة من طيّئ، حيث كانوا يسكنون بغداد، فجاء بهم إلى أبو غريب، وأقطعهم أرضاً، وكذلك الصبيحات، حيث أقطعهم أرضاً في منطقة الكرمة القريبة من الفلوجة، وهم عدة رجال من قبيلة شمّر، من عشيرة الصبحي من زوبع، ومن قبيلة أسلم الشمّرية أيضاً، سمّوا آنفاً الصبيحات، نسبة إلى قدومهم المفاجئ، فقد أصبح الصباح وإذا بهم قد نزلوا تلك الأرض، أو نسبة إلى عشيرة العدد الأكبر منهم، وهم الصبحي، فسموا الصبيحات، (وهو ما أرجّحه).

لأن زوبع حديثة عهد بالزراعة فقد استعان ظاهر بحلفائه الزرفات الزبيديين؛ الذين سكنوا المنطقة قبل قدوم زوبع في زراعة الأرض، وتعليم بقية زوبع فنونها، لذلك سُميّ قسم من الزرفات بالمعامير، لأنهم عمّروا الأرض بالزراعة، فشاعت بعد ذلك تسميتهم بهذا الاسم.

ب- الفدائي مطر ناصر حسين الباز من أكراد(كرام) زوبع:

مطر الناصر أحد أبناء فخذ الباز من عشيرة أكراد (كرام) زوبع، كان فدائياً وهب نفسه للموت من أجل قبيلته زوبع، حين كلفه الشيخ ظاهر بمهمة كان فيها موته متوقعاً، بعد أن عرف عن قرب شجاعته وإقدامه، والذي ستأتي قصته لاحقاً في الحديث عن علاقة زوبع بالقبائل المجاورة .

ت- موقف عشيرة بني زيد في نكران الذات من أجل الشيخ ضاري:

بعد أن قتل الشيخ ضاري الكولونيل لجمان غادر خان ضاري، فاتجه إلى مضارب عشيرة بني زيد حلفائه، على أمل البقاء هناك حتى تهدأ ثورة الغضب البريطاني، عقب مقتل ضابطهم الكبير، لكن أحد الوشاة

الذين سخّرهم الاحتلال لتتبع أخبار زوبع أعلمهم أن ضاري في ديار بني زيد، وقد وصل خبر الوشاية إلى ضاري، فقرر الرحيل على عجل، لكن بني زيد رفضوا خروجه، وقرروا أن لا يصل إليه مكروه حتى يبادوا عن بكرة أبيهم، وهم لا شك يقولون ويفعلون، إذ كانوا أحسن وأكثر زوبع تسليحاً، فهم يعشقون السلاح، ويتفاخرون باقتنائه، صغاراً وكباراً، وكانت قوات الاحتلال تعي ذلك جيداً.

قرر ضاري المغادرة خشية على بني زيد من قوات الاحتلال التي بدأت تتهيأ لمحاصرتهم، وقد خرج بالفعل، لكن الواشي الخبيث لم يُعلم أسياده هذه المرة بالأمر .

ولأن قوات الاحتلال تريد رأس ضاري بأي ثمن؛ قررت الهجوم على بني زيد بالقوة الجوية خشية من المواجهة المسلحة، والتي قد تكلفهم خسائر كبيرة، وهكذا قصفت الطائرات مضارب بني زيد، فقتلت ثلاثين شخصاً، وجرحت العشرات، وهي لا تُفرّق بين كبير وصغير، رجل أو امرأة، وكما يصف ذلك أحد الشهود: اختلط الدم بالدبس ذلك اليوم .

استشهد عدد كبير من بني زيد، لكنها لم تمت، وهي الآن عشيرة كبيرة، تملأ العين، وتُفرح القلب، وهي تحمل على رأسها تاج العز الذي ما بعده عز.

ث- موقف شيخي الزرفات بُعيد ثورة العشرين:

الزرفات هم ألبو سودة والمعامير حلفاء زوبع، وترجع أصولهم إلى قبيلة زبيد العربية المعروفة، وقد تصاهر الزرفات مع زوبع، فصاهرهم الشيخ محّمود ثم الشيخ ظاهر المحّمود، ثم توالت مصاهراتهم مع بقية زوبع، وأصبحوا بعد حين يُلقبون بلقب زوبع، ومآثر رجالهم لا تغيب عن ذاكرة أبناء زوبع، ومن تلك المآثر ما تناقله كل أبناء زوبع بفخر واعتزاز موقف شيخي ألبو سودة والمعامير .

حين أحبطت ثورة العشرين وغادر الشيخ ضاري العراق؛ تفرقت زوبع في المنافي، وعندها أرادت السلطة البريطانية الإجهاز عليها بصورة نهائية، فلا تُبقي لها موطئ قدم أو ذكر في العراق، وبذلك بدأت تحركها على حلفائها، ترغيباً وترهيباً، حين ذكّرتهم بأنهم ليسوا من

زوبع، وعليهم أن يتبرءوا منها، وتوعّدت من لا ينصاع لقرارها بالويل والثبور، وأول ذلك فرضها على شيخ العشيرة الذي لا يتبرأ من زوبع غرامة باهظة جداً، وهي أربعون بندقية، يوم كانت البنادق تُعتبر سلاحاً حديثاً ونادراً لدى القبائل، وأسعارها خيالية بالنسبة لهم، ومن أولئك الذين فُرضت عليهم الغرامة شيخ ألبو سودة من عشيرة الزرفات الشيخ حسن العلي، وقد نصحه بعض شيوخ العشائر أن يُجامل البريطانيين ويتبرأ من زوبع، ليتخلص من تلك الغرامة التي لا قبل له بها، لكنه قال لذلك الشيخ: يعرف كل زوبع أني إذا وافقت البريطانيين على مطلبهم أني معذور، لكني استحي من الشيخ ظاهر وهو في قبره أن أنكث بالعهد .

وهكذا تحمّل الشيخ حسن العلي شيخ ألبو سودة وابن عمه محّيميد الحسن شيخ المعامير تلك الغرامة برحابة صدر، دون أن يتبرءا من زوبع، فكتبت صحائف تاريخها لهم صنيعهم الكبير بأحرف لن تمحوها عاديات الأيام .

ج- موقف شيخ عشيرة السميلات :

يعود نسب عشيرة السميلات المتحافة مع زوبع إلى قبيلة ربيعة العربية المعروفة، وهم من الذين حاول البريطانيون أن يحملوهم على التبرئ من زوبع، وكان شيخهم في ذلك الوقت الشيخ عباس الحسين، ففرضوا عليه غرامة باهظة في حال رفضه، وهي أربعون بندقية، أو ثمنها، وهو أمر يُعد تعجيزياً في ذلك الوقت، لكن الشيخ عباس الحسين رحمه الله رفض طلب القيادة البريطانية، رغم علمهم أنه لا يملك حتى بعض مبلغ الغرامة، بل قال لهم بكل عزة وشموخ: لن أتبرأ من زوبع، وافعلوا ما بدا لكم .

أمام موقف الشيخ عباس الصلب تراجع البريطانيون عن مطلبهم، لأنهم كانوا يحاولون استخدام السياسة الناعمة بعد قمعهم للثورة بكل عنف وجبروت، فتقاضوا عن شدة وصلابة الشيخ التي واجههم بها، واحتالوا للأمر للحفاظ على ماء وجههم القبيح أن قالوا له: إنك رجل شجاع وصادق، لذلك قررنا إعفاءك من الغرامة، شرط أن لا تتعاون مع أيٍ من أتباع ضاري المحّمود .

ح- موقف الشيخ درفيل شيخ عشيرة الدرافلة اللهيبية:

تقطن عشيرة الدرافلة اللهيبية منطقة الكرمة شمال شرق الفلوجة، وتتوزع قبيلتهم الأم في مناطق وسط وغرب العراق، وقد لاقت هذه العشيرة ما لاقته بقية العشائر المتحالفة مع زوبع، من تهديد ووعيد، من قبل البريطانيين.

حاول البريطانيون استثمار الفوز الذي حققوه بالقضاء على الثورة العراقية الكبرى، بأن يمنعوا أي تحرك جديد ضدهم، من خلال تهديد شيوخ العشائر الذين أبوا أن يتعاونوا معهم، ومن هؤلاء الشيخ درفيل شيخ عشيرة اللهيب، إذ هددوه بالاعتقال إن هو آوى أياً من أفراد قبيلة زوبع، بعد وصولهم معلومات تُفيد أنه يستقبل بعض رجال زوبع الذين تخلّفوا في المنطقة لأسباب شتى، لكن الشيخ درفيل جابههم بكل شجاعة وبسالة وعناد قائلاً: إذن اعتقلوني منذ الآن، لأني لن أرد أي زوبعي يقصدني، ولو كلفني ذلك حياتي .

لا شك أن هذا الوفاء كان مدفوعاً بحب كبير عمر قلب درفيل ومن مثله من الرجال الأوفياء، الذين يعرفون قدر الرجال أمثالهم، ولو لم يكن ضاري وقبيلته كفواً لذلك؛ ما كان من درفيل وأمثاله من الرجال ما كان، لتخطه صحائف التاريخ بكل فخر واعتزاز .

خ- الفدائي ياسين العايد النصّار الخالدي:

ياسين العايد النصّار هو أحد أبناء عشيرة الخوالد المتحالفة مع زوبع، وهو من أبناء تلك العائلات القريبة من بيت مشيّخة زوبع، مسكناً ومودة.

اشتركت زوبع في ثورة مايس عام (١٩٤١م) في العراق ضد البريطانيين، وقاد الشيخ خميس الضاري قبيلة زوبع والعشائر المتحالفة معها.

تحرك الجيش العراقي الثائر لكرامته وإرادته التي أراد البريطانيون مصادرتها، فوصلت بعض قطعاته إلى أبو غريب، متجهة إلى الفلوجة، وفي الطريق عرّجت على مضارب زوبع، لتصطحب معها دليلاً له خبرة بالطريق، فأوعز الشيخ خميس إلى من حضره من الرجال أن يرافق أحدهم القطعة العسكرية، مما حدا بالجميع التسابق لنيل ذلك الشرف، لكن ياسين النصّار قرر أن يكون هو من يرافق الجيش، لغاية في نفسه، فقد تحنّط، وتعطّر، وارتدى كفنه فوق ملابسه، وقرر الذهاب إلى الفلوجة، فوافق طلب الجيش رغبته.

خرج مع الجيش وأوصلهم إلى مشارف الفلوجة، وبينما اتخذت تلك القطعة العسكرية موقعها هناك بانتظار بدء المعركة مع القوات البريطانية؛ تسلل إلى داخل المدينة، ثم غابت أخباره إلى أن انتهت المعركة، وانجلى غبارها، فوجد صريعاً مُكباً على بندقيته في أحد المواضع التي أقامها الثوار داخل المدينة، وقريباً منه جثث عدد كبير من الجنود البريطانيين، بينما استنفد كل الذخيرة التي بحوزته.

د- الفدائيّان كردي ومحمود سليمان الضاري:

عام (١٩٩٥م) حدث نزاع بين جماعتين من عشيرتي الهيتاوييّن والحمّام من قبيلة زوبع، تطور إلى مواجهة مسلحة، وما أن علم الشيخ كردي سليمان الضاري؛ حتى استدعى أخاه محمود، واصطحبه إلى موقع المعركة، وكان حينها متعباً صحياً، بعد أن أجريت له عملية جراحية في القلب .

وصل الأخوان والمعركة يزيد أوارها، فلا تسمع إلا أزيز الرصاص الذي ينّهال من الجانبين، فدخلا بين الجانبين المتقاتلين، ورفع كل منهما

غترته بيد، وعباءته بيده الأخرى، وسار كل منهما باتجاه أحد الطرفين المتقاتلين، يلوّحان لهم، طالبين منهم التوقف عن إطلاق النار، بينما خرّق رصاص المتقاتلين ثيابهم ، دون أن يفطنوا لذلك، وما أن اقترب كل واحد منهما من الفريق الذي يريده حتى نادى الجميع على بعضهم طالبين أن يوقفوا إطلاق النار.

لم يدر في خلد الرجلين ذلك الوقت أي هواجس سوى إنهاء ذلك القتال بأقل الخسائر من الطرفين المتقاتلين، فلم يشعرا بأي انحياز إلى طرف منهما، حتى وإن كان أحدهما هو من الحمّام عشيرتهما الأدنى، والآخر من حلفائهم، فضربوا بذلك أروع الأمثلة في نكران الذات، حين ألقيا بنفسيهما وسط الرصاص المنّهمر كالمطر، ولم يفرقا بين الطرفين المتقاتلين حين وضعت الحرب أوزارها، طالبين من قوات التدخل السريع التي جاءت من بغداد عدم التدخّل، حين أخبروهم أن الأمر داخليّ، تختصّ به قبيلة زوبع، وأبلغوهم أن تدخلهم سيزيد الأمور تعقيداً، وبذلك شاء الله أن يجنّب زوبع كارثة كبيرة، بحكمة ومروءة وشهامة مشايخها.

ثانياً- علاقة زوبع بقبيلة شمّر:

قبيلة شمّر المتفرعة عن قبيلة طيّئ العربية الكبيرة ورثت عنها المكارم والأمجاد، وورثت موطنها حائل أيضاً، وسُمي جبلا طيّئ (أجا وسلمى) باسمها - جبل شمر- بعد أن تغلبت على الزعامة في حائل، ثم قامت إمارة شمّر الأولى فيها، وهي إمارة آل علي، ومن ثم قامت على أنقاضها إمارة آل رشيد الشمّرية، فكانت دولة تمتلك كل مقومات الدولة الحديثة في ذلك الوقت، وبشهادة الرحالة الأوربيين(١).

زوبع واحدة من قبائل المثلث الشمّري الكبير، وهي تمثل الفرع الأكبر فيه، ورغم أن لها كيانها المعروف وقيادتها السياسية القبلية؛ فهي

---

(١) آن بلنت، رحلة إلى نجد، ص٥٨.

ما زالت تنتسب إلى شمّر، وتفخر بمفاخرها، وبانتسابها إليها، وهي أيضاً حريصة في الحفاظ على صلاتها بقبيلتها الأم، وعلى تقوية عُرى ووشائج صلتها بها، وتظهر جلية للعيان الدلائل التي تؤكد عمق تلك العلاقة، ومع كل فروع شمّر وكما يأتي:

أ- علاقة زوبع بمشيّخة شمّر:

يرتبط آل الجرباء بزوبع نسباً، فهم أبناء زوبع بن محمّد الحارث من فرع زايدة، كما ذكرنا آنفاً، لكن تسميتهم بقيت على سابق عهدها - شمّر - وذلك لأن مشيّخة شمّر فيهم، وهو سبب منطقي لبقائها كذلك، وتربطهم أيضاً علاقات مصاهرة عديدة، ومودة واحترام متبادل، حقيقي وصادق، ونذكر هنا طرفاً من الشواهد التي تدلل على عمق العلاقة بينهم، وهي:

١- المصاهرات:

قامت المصاهرات بين آل الجرباء مشايخ شمّر وآل المحّمود مشايخ زوبع منذ أمد بعيد، وتعددت مع مرور الوقت، ونتيجة ذلك اختلطت دماؤهم، حتى صار التشابه الخلقي الوراثي كبيراً، فتجد قسماً كبيراً من أبنائهم قد اكتسب الصفات الخلقية الوراثية كاملة من الطرف الآخر، وهذا أمر لا تُخطئه العين، وكذلك الأسماء، فتجد أسماءهم متشابهة إلى حد كبير.

وكشاهد على ما أسلفنا نجد شبهاً عجيباً بين محمد ملحم الفارس الجرباء وخاله سليمان الضاري، إذ أن والدة محمد هي شيمة الضاري المحّمود شقيقة سليمان الضاري، وهو يشبهه خَلقاً وخُلقاً، وكذلك في هيئته وصوته، وحركاته وسكناته، رغم فارق العمر، وبعد المكان، إذ أنه لم يره إلا مرات معدودة في حياته كلها، وهو أمر أثار استغراب كل من رأى محمد الملّحم رحمه الله، ولا شك أن تلك الصفات الوراثية ليست حصيلة جيل واحد أو جيلين من اختلاط الدماء فيما بين الفريقين، إضافة

إلى أنها دماء واحدة من لدن طيّئ، وقد صدق الأمير محمد بن رشيد حين قال: دماؤنا واحدة.

تلك الدماء التي تنبض بها العروق جعلت القرائح تنضح شعراً يتغنى بمفاخر الأخوال، فهذا حمود بن ملّحم الجرباء (ابن شيمة الضاري) يقول في أخواله زوبع :

أنا خوالي شيوخ زوبع مشاهير

مثل الجبال النايفات العوالي

كذلك يقول ممتدحاً جده الشيخ ضاري :

ويوم ضاري يورّيك

جرّب بسيفه راس لجمن خذالك

ربعي حماة الدار أرفع هكاويك

حنا بميزان الكبايل ثكالك

وكما نعرف أن فروعاً من آل الجرباء قد تسموا بأسماء أمهاتهم، للتفريق بين كل جماعة وأخرى منهم، وكما هو حال أبناء زوبع بفرعيهم زائدة وسنجارة، إذ تسموا بأسماء أمهاتهم، وأن أحد فروع الجرباء يسمى السرّحة، نسبة إلى أمهم سرحة ابنة محّمود، عمة الشيخ ضاري، وهو ما يوضح مدى علاقة الدم التي تربط بينهم.

ومن تلك المصاهرات زواج الشيخ ضاري ثلاث زيجات من آل الجرباء، وهم أخوال أبنائه عبد الكريم الذي سُمي نسبة إلى خاله الأكبر عبد الكريم (أبو خوذه)، وكذلك أخويه غير الشقيقين حميدي وفرحان، واللذين سُميا نسبة إلى خاليهما الشيخ الحميدي والشيخ فرحان باشا، ولم يشذ أبناؤه عن القاعدة، فصاهر الشيخ خميس الضاري آل الجرباء،

وتزوج من عمشة ابنة مجول بن فرحان باشا، والتي أنجبت ظاهر خميس الضاري شيخ زوبع الحالي، كما صاهرهم الشيخ سليمان الضاري، وكذلك الشيخ برغش الفارس المحّمود، فآل الجرباء أخوال ابنه الشيخ بركات الفارس، وقائمة المصاهرات بين الطرفين تطول.

٢- المودة والاحترام المتبادل:

ونذكر هنا طرفاً من الوقائع التي تظهر فيها تلك المعاني السامية التي ميّزت العلاقة بين زوبع ومشيّخة شمّر وهي:

أ- قتال الشيخ ضاري مع مشيّخة شمّر ضد بعض القبائل:

رغم أن الشيخ ضاري قد خرج من العراق مطلوب الرأس للبريطانيين؛ لكنه رقم صعب في كل مكان يحل فيه، ورغم مرضه وتشتت قبيلته في الأصقاع لكنه كان صلباً عنيداً مغواراً، لا تلين له قناة.

في المنطقة الحدودية بين الدول الثلاث العراق وسوريا وتركيا كان قد حط الرحال، هناك حيث مضارب قبيلته الأم شمّر، وقد حدث نزاع مسلح بين بعض الجهات المتحالفة مع الفرنسيين وقبيلة شمّر بقيادة الشيخ دهام العاصي، فأبى إلا أن يقاتل هو وابنه سليمان وبعضاً من أبناء قبيلته الملتحقين به؛ دفاعاً عن بيضة شمّر، وكان سليمان الضاري شابا يافعاً، لكنه قاتل قتال الأبطال، ووقع في الأسر، وكاد أن يُقتل لكن الله سلّمه.

ب- موقف العنود والدة الشيخ دهام العاصي الجرباء عند مقتل لجمان:

يذكر الشاعر ابن شريعيب: كنت وقت الضُحى نائماً في أحد بيوت أبناء عمومتي في مضارب الشيخ دهام العاصي شيخ شمّر، فصحوت من نومي على أصوات عالية وزغاريد، وشاهدت الناس تتجه إلى بيت الشيخ دهام مسرعين.

ويقول: قمت وخرجت مع بقية الناس ميمماً وجهي صوب البيت، فوجدت والدته العنود تُعلي الزغاريد، وتستثير همة الرجال والنساء على الابتهاج، وإعلان الفرح الكبير وهي تقول: ونعمين من خالي كتال نجيمان - ليجمن- ونعمين.

ويضيف ابن شريعيب قائلاً: وفي تلك اللحظات وأنا أسمع كلام العنود ايقنت أن الشيخ ضاري قد فعل فعله الذي ترفع به شمّر كلها رأسها.. عزاً وفخراً، فتداعت قريحتي على غير ميعاد مع الشعر، وقلت قصيدتي التي ألهبت حماس الحاضرين، فجعلت العنود تزداد زهواً وفخراً بخالها ضاري، والعنود هي ابنة فرحة الظاهر شقيقة الشيخ ضاري.

قال ابن شريعيب:

ضاري ألي كتل ضاري الكفران(١)

ألي ولى الناس بالحيلة

تعيش ياذابح انجيمان٢

ولاي بغداد وانخيله

ألي هزم عسكر السلطان

ولا هو ياكل محاصيله

شيوخ العشاير غدت نسوان

صبوا لضاري فناجيله

---

(١) ضاري الكفران: أي ليجمن، وهو هنا يشبهه بضاري المحّمود في شجاعته.

٢ انجيمان: أي – ليجمن– حيث كانت البدو تسميه انجيمان.

ت- الشيخ ضاري مع الشيخ عبد المحسن بن فرحان باشا :

تعودنا من الشيخ سليمان الضاري أن لا يذكر آل الجرباء أو كما يسميهم (المّحمّد)؛ إلا بصفتهم، فهو يقول دائماً: (نزلنا عند الشيوخ، وذهبنا إلى الشيوخ، وأقمنا في عرب الشيوخ)، وهو يقلّد والده وبقية آبائه في هذا الشأن، إذ ورث منهم احترام بيت مشيّخة شمّر آل الجرباء، وفي حديث له مسجل مشهور نتلمس تلك المعاني السامية التي تعودنا عليها منه، في احترامه ومحبته لهم.

يذكر سليمان الضاري: إن والده حين توارى عن وجه السلطات البريطانية كان يقيم قريباً من مضارب أبناء عمومته آل الجرباء، وقد دعاه أحد المشايخ في تلك المنطقة لزيارته، فلبى الدعوة، وقد دعُي إليها الشيخ عبد المحسن بن فرحان باشا الجرباء، وحين أرادوا تقديم القهوة للضيوف احتاروا فيمن تقدم له أولاً، هل تقدم للشيخ ضاري، الرجل الذي حاز احترام وتقدير كل المخلصين والشرفاء من أبناء الأمة، أم تقدم للشيخ عبد المحسن شيخ شمّر، وقد انتبه ضاري لذلك الأمر، فطلب أن يقدم الفنجان إلى الشيخ عبد المحسن، وهو يخاطب مضيّفهم قائلاً: قدم قهوتك لشيخنا عبد المحسن، فهو أبو شمّر، ولا يتقدم عليه أحد. لكن الشيخ عبد المحسن ذلك الرجل الكبير في قومه وفي نفسه والمحب لضاري حباً حقيقياً قال له: خذ فنجانك يا أبا خميس، ووالله لا يتقدم عليّ أحد فيه إلا أنت، ولو كان عبيد بن شريعيب غير موجود لكان في الأمر فسحة. وهو يعني ما قاله الشاعر الشمّري ابن شريعيب حين سمع بمقتل لجمان على يد الشيخ ضاري، في قصيدته التي ذكرناها آنفاً.

ضرب الرجلان أسمى معاني نكران الذات في ذلك المجلس، وهم يتساموّن على كل نزعات النفس في حب الذات، وطلب السمو والتعالي والذكر.

ث- موقف الشيخ درع الظاهر المحّمود من آل الجرباء :

الشيخ درع الظاهر المحّمود هو أخ الشيخ ضاري المحّمود الأصغر، وقد خرج مع قسم من قبيلة زوبع قبل الاحتلال البريطاني للعراق إلى بادية الموصل، على إثر خلاف مع الحكومة العثمانية في بغداد، واستقر هناك.

بعد إخماد البريطانيين للثورة ومغادرة ضاري العراق؛ التحقت غالبية زوبع بالشيخ درع في الموصل، وقد علم البريطانيون بالأمر من خلال مجساتهم التي زرعوها في كل مكان، وهم موقنون أن زوبع لن تسكت على ضيم، وأن ضاري سينظّم صفوفه مرة أخرى للثورة عليهم، لذلك أوعزوا إلى الحاكم البريطاني في الموصل أن يتصل بالشيخ درع، محاولين إغراءه واستمالته لضرب عصفورين بحجر واحد، أولهما ضمان تحييد زوبع وإخراجها من معادلة النزاع المتوقع مع القبائل مرة ثانية، والآخر هو شق صف شمّر التي تجمّع جُلها في الموصل بعد رحيل زوبع هناك، وكان عرضهم المُغري والذي لا يُرد حسب ظنهم هو تنصّيب الشيخ درع شيخاً على شمّر في الموصل، بعد أن هيئوا أسباب قبول عرضهم، مؤكدين لدرع أن مصادرهم تؤكد أن زوبع أصبحت تؤلف القسم الأكبر من شمّر في الموصل، وبذلك يحق للشيخ درع أن يكون شيخاً عليها.

كان رد الشيخ درع مفاجئاً ومُخيّباً لآمال وأحلام البريطانيين، بعد أن عرضوا عليه ما في جعبتهم، حين قال لهم دون تلكؤ أو تردد: لم أعرف لشمّر شيوخاً غير آل الجرباء، ووالله لو بقيت منهم امرأة واحدة لن أكون أنا أو غيري من زوبع شيوخاً لشمّر. فقتل بكلامه غير المتوقع حسب ظنهم؛ تلك الآمال والأحلام.

ج- تلبية سليمان الضاري طلب العنود والدة الشيخ دهام العاصي :

حدثت بين الشيخ دهام العاصي وقبيلة البكارة المتحالفة مع قبيلة طيّئ خصومة، بسبب التشاحن على أرض يدّعي كل طرف أنها تقع تحت سيادته، وقد حشد قبائل شمّر لقتالهم، وكذلك جمعت البكارة تساندها طيّئ جموعها لمنازلته.

حاولت العنود والدته رده عن ذلك الأمر، وذكّرته بما ستعود به الحرب من ويلات عليهم، لكنه أصرّ على ما عزم عليه، وعندها أرسلت إلى سليمان الضاري طالبة منه الحضور على وجه السرعة ليصلح الأمر قبل فساده، وهي كلها يقين أن خالها سليمان لن يُخيّب ظنها.

ما إن وصل الرسول إليه حتى فزع من فوره إلى الموصل، محاولاً ثني الشيخ دهام عما عزم عليه، لكن محاولاته لم تُفلح، وعند ذلك قرر أن يذهب إلى طيّئ أبناء عمومته، ويسألهم حقوق النسب والرحم، فما كان من طيّئ عندما قصدهم إلا أن طيّبوا خاطره، ووعدوه خيراً، وطلبوا أن يُمهلهم بعض الوقت، حتى يسترضوا حلفاءهم البكارة، ويُثنوهم عما عزموا عليه.

وفّت طيّئ بما وعدت، وأكرمت وفادة الشيخ سليمان عليهم، فتنازلت البكارة عن مطالبتهم بالأرض التي حدث بسببها الخلاف مع الشيخ دهام العاصي.

ح- توصيف الشيخ كردي سليمان الضاري لمشايخ شمّر:

المعاني السامية التي يحملها آل الجرباء وآل المحّمود تجاه بعضهم ورثوها عن الآباء، واستوطنت قلوبهم وضمائرهم، ويعبّرون عنها أقوالاً وأفعالاً، ومن تلك المعاني التي وعتها ذاكرتي وصف الشيخ كردي سليمان الضاري لآل الجرباء أو (المحّمّد) كما تعود أن يسميهم، حين

قال: المحّمّد شيوخ ملوك، والذين رأيتهم من أبناء عجيل الياور كانوا شيوخاً ملوكاً، فكان أحمد العجيل ملك الأخلاق، وصفوك العجيل ملك الكرم، ومحسن العجيل ملك المرجلة .

وتلك لعمري توصيفات رجل خبير، نزيه، وصادق، وقل أن تجد اليوم من يبوح بأمر كهذا، وقد استوطنت النفوس الكبرياء الكاذبة، وحب الظهور، والرياء الذي أعمى بصائر الكثيرين، والأنا المقيتة التي استحوذت على الضمائر فتنكّبت سبيل المراوغة والخداع .

ب- علاقة زوبع بقبيلة أسْلم:

ما ذكرنا في كلامنا السابق عن علاقة زوبع بمشيّخة شمّر ينطبق بجميع أوصافه على علاقتها بقبيلة أسلم، فقد تصاهر الكثير من أبناء زوبع مع أبناء عمومتهم أسلم، حتى لا تجد فخذاً من أفخاذ عشائر زوبع يخلوا من مصاهرة أو أكثر، وكذلك فإن صلات المودة والاحترام بينهم على أشدها، وأذكر هنا أمرين من كثير مما يمكن أن يوضح مدى العلاقة بينهما، وهما:

١- تسمية الشيخ ضاري نسبة إلى الشيخ ضاري بن طواله:

تسمي العرب أبناءها نسبة إلى الرجال المشهورين، والذين يُشهد لهم بطيب السجايا، وحميد الخصال، لكي يحذو أبناؤهم حذو أولئك الرجال، ويتشبّهون بهم، وقد أطلق الشيخ ظاهر المحّمود على أحد أبنائه أسم رجل من أشهر مشايخ شمّر، وهو الشيخ ضاري بن طواله، أشهر وأبرز مشايخ قبيلة أسلم الشمّرية، فكانت مناقب وخصال ابن طواله تداعب خيال الطفل ضاري المحّمود الذي سُميّ نسبة إليه، وتجذّرت وترسّخت في نفسه شاباً يافعاً، وهو يسمع أهله ومن يعرفه يذكر تلك الخصال التي لازمت ذكر ضاري بن طواله، وهم يذكّرونه ويرجون أن يكون مثله، فكان ضاري المحّمود كما كان يرجوا له والده، رجلاً ليس ككل الرجال، صنع لزوبع عزاً لن يبلوا على مر الزمان .

٢- توصيف مشايخ زوبع لقبيلة أسْلم:

نادراً ما أجد إنساناً يقر أن أنساناً آخر هو خير منه، أو يتمنى أن يكون مثله، وقد يُعتبر هكذا إنسان شاذاً عن القاعدة، فالناس مهووسون بذكر فضائلهم، ومناقب آبائهم، وهم ربما يخترعون أو يتوهمون وجود تلك الفضائل والمناقب أحياناً، وهي سجية نفسية إنسانية، لكن ما يخالف تلك القاعدة كان في نفوس مشايخ زوبع، ولا شك أن تواضعهم هو الذي جعلهم يرون الحقيقة بوضوح ودون غبش، ودون أن تضلّلها عن أبصارهم نوازع الكبرياء والتعالي .

ومن الحقائق التي يبوحون بها دون تردد أو تهيّب هو توصيفهم لأبناء عمومتهم أسلم منكرين لذاتهم أمام قول الحق، فيقولون عن أسلم: أغيّر شمّر على شمّر أسلم. ولهم في ذلك سبب حقيقي ملموس، ويعللون ذلك: بأن هناك جماعات وأفراداً من بقية قبائل شمّر قد وقفت لأسباب مختلفة مع آل سعود ضد آل رشيد في بعض نزاعاتهم، إلا أسلم، فلم يذكر الرواة أن أحداً منها قد وقف ذلك الموقف، وهذا الرأي سمعته من مشايخ زوبع، وكبار السن فيها، وقد ورثوه عن آبائهم .

ت- علاقة زوبع بقبيلة عبدة:

كل ما ذكرنا من أوصاف لعلاقة زوبع ببقية شمّر ينطبق على علاقتها بقبيلة عبدة الشمّرية أيضاً، من مودة واحترام متبادل، ومصاهرات متعددة، يُضاف إليها الاختلاط الدائم بينهم في المنازل، والتواصل الدائم، وفي هذا الشأن يحضرني موقف كبير ونبيل يؤصل كل المعاني التي نتكلم عنها في وصف تلك العلاقة، والذي جرى بين الشيخ ظاهر المحّمود شيخ زوبع والأمير عبد العزيز الرشيد (الجنازة).

في عام (١٩٠٠م) أوعزت الدولة العثمانية إلى والي بغداد بالذهاب إلى حائل، ليطلب من الأمير عبد العزيز بن رشيد وقف أي عمل حربي مع خصومه في الجزيرة العربية، خشية أن يؤثر ذلك على وضع الدولة العثمانية الضعيف في ذلك الوقت، لأنه حليفها هناك.

يعرف الوالي العثماني في بغداد جيداً الصلة التي تربط الشيخ ظاهر بآل رشيد، فهم من قبيلة عبدة الشمّرية، أبناء عمومته، وكذلك يعرف مدى حب عبد العزيز واحترامه له، لذلك طلب منه أن يرافقه في مهمته، وكان حينها قد تجاوز المائة من العمر، لكن حرصه على السلام بين العرب وخشيته على قبيلته شمّر دفعه إلى الموافقة على طلب الوالي العثماني، رغم أن السفر كان شاقاً بالنسبة له، وهو في تلك السن المتقدمة.

هكذا شد رحاله إلى حائل، وقد رافقه في رحلته تلك صديقه الشيخ سليمان البكر شيخ قبيلة الدليم، وما أن وصل إلى مشارف حائل حتى خرج الأمير عبد العزيز بن متعب الرشيد لاستقبالهم، وكان فرحه برؤية الشيخ ظاهر غامراً، حتى خاطبه من شدة فرحه وشوقه لرؤيته قائلاً: والله ياعم إني أكثر حظاً من الوالد - يعني بذلك عمه محمد بن رشيد - فكم تمنى أن يراك، لكنه لم يرك، وأنا قد رأيتك .

هذا الكلام من أمير حائل القوي والشجاع والذي يعتد بنفسه إلى درجة أن يزعم قبل مقتله بوقت قصير أنه مل الحياة لأنه لا يرى نداً له في كل من حوله من أصدقاء وأعداء وكما ذكرنا في حديثنا عن شخصية عبد العزيز بن رشيد آنفاً؛ يبين بكل وضوح وصدق مدى الحب والاحترام والإجلال الذي يكنّه للشيخ ظاهر شيخ زوبع.

ثالثاً- علاقة زوبع بالقبائل المجاورة:

دخول زوبع إلى العراق واستقرارها فيه كان متأخراً، بعد فترات من الهجرة، والهجرة المعاكسة، حيث استقرت في العراق بداية القرن العاشر الهجري، السابع عشر الميلادي، بصورة نهائية، وربما قبُيل ذلك التاريخ .

لا شك أن وجود قبيلة جديدة في المنطقة يشكّل بعض التحسس لدى القبائل الأخرى التي استوطنتها، لأسباب يعرفها جميع أبناء البادية، وأهمها التنافس على الأرض، فكل قبيلة تحاول حيازة أكبر مساحة من

الأرض كمحمّية لها، لتوفير المراعي لمواشيها، مما يولد احتكاكاً بين أبناء تلك القبائل على الدوام، يتطور أحياناً إلى نزاعات مسلحة، وهو ما حدث مع زوبع في بداية نزوحها إلى العراق، واستقرارها في أبو غريب غربي بغداد، حيث حاددت قبيلة الدليم العربية الكبيرة والمعروفة، والتي سُمي لواء الدليم نسبة إليها، والذي يُدعا اليوم محافظة الأنبار،

كذلك جاورت قبائل أخرى، تحالفت مع بعض منها، بينما تسالمت مع أخرى، حتى جاء الشيخ ظاهر المحّمود إلى سدة الزعامة في زوبع، فحرّم الغزو على قبيلته، ومد جسور المودّة مع بقية القبائل، فعقد الصداقات مع شيوخ القبائل المجاورة، وصاهر بعضاً منهم، وكان الرجل حكيماً متديناً، ويتضح ذلك من خلال ذكر طرف من الشواهد على علاقة زوبع بالقبائل المجاورة، منها:

أ- علاقة زوبع بقبيلة الدليم:

الدليم قبيلة عربية كبيرة ومشهورة، تميزت بكثرة العدد، وقوة العدة، والكرم العربي الأصيل، وقد حازت مساحة كبيرة من الأرض تمتد من الحدود العراقية الأردنية السورية غرباً، حتى مشارف أبو غريب شرقاً، وسميت محافظة الأنبار التي تعدل ثلث مساحة العراق نسبة إليها، إذ كان اسم المحافظة سابقاً (لواء الدليم)، وتميزت علاقة زوبع بالدليم في بداية الأمر بنوع من التوجس والقلق، وبالنزاع والحرب أحياناً أخرى، لكنها في النهاية أصبحت علاقة مميزة بالمودة والاحترام، ومن الشواهد على ذلك:

١- الشيخ ظاهر المحّمود والشيخ سليمان البكر:

قرر الشيخ ظاهر المحّمود أن يضع حداً لحالة التوجس والقلق التي ميّزت علاقة زوبع بالدليم، فهو يرى أن حالة الاحتقان بين القبيلتين قد تؤدي في النهاية إلى كارثة تحيق بهما، لذلك بدأ التفكير في كل الخيارات التي تُبعد شبح النزاع والحروب عن القبيلتين، وذات يوم خطرت له فكرة

مفاجئة وهو يزور عشيرة أكراد (كرام) زوبع حلفاءه، حين وقع بصره على شاب منهم، طويلاً جسيماً، ولضخامة جثته كانت عباءته قطعتين من القماش، بينما عباءة أي رجل مهما كانت ضخامة جسمه تتكون من قطعة واحدة، فقرر ليلتها المبيت في مضارب عشيرة حلفائه، بعد أخذه موعداً من ذلك الشاب بأن يأتيه بعد أن يتفرق الناس.

حين تفرق الناس إلى بيوتهم جاءه ذلك الشاب العملاق، فجلس بين يديه قائلاَ: أمرك ياعم فأنا طوع بنانك. وهنا سأله سؤالاً واحداً وفي كلمات معدودة: هل قلبك مثل جسمك. فرد عليه الشاب بكلمة واحدة إذ قال: وأكثر. وهنا قال له: إذن أريدك أن تقدم علينا بعد غد، ولا أريد أن يعرف أحد بالأمر.

أيقن الشيخ ظاهر أنه قد وجد بغيته في ذلك الشاب، الذي تمّيز إضافة إلى ضخامة جثته بالشجاعة والفطنة، فهو لم يُطل الكلام في جوابه، فعبّر عن حاله بكلمة واحدة، كانت فصل الخطاب بالنسبة للشيخ ظاهر.

عاد ظاهر إلى أهله، وبعد يوم واحد جاءه ذلك الشاب، ووقف بين يديه، منتظراً أوامره في المهمة التي سيوكلها إليه، وكانت مهمة فدائية، قد لا يعود منها، إذ طلب منه أن يذهب إلى مضارب قبيلة الدليّم، ويترك فرسه عند مشارف المنطقة، ثم يذهب إلى مضيف الشيخ سليمان البكر بصفة ضيف، وأن يكون وصوله عند مغيب الشمس، ليكون له عذر في المبيت هناك، وأخبره أن الشيخ سليمان البكر من عادته أن ينام في المضيف. فإذا تفرق الناس وهجعوا في مراقدهم يقوم إلى الشيخ سليمان ويضع الخنجر على رقبته، ويطلب منه الخروج معه، وأوصاه أن لا يُسيء إليه، وأن لا يأتي بأي فعل مما يكره، ولو كلفه ذلك حياته.

قام الشاب الفدائي مطر الناصر من أبناء أكراد (كرام زوبع) بتنفيذ كل ما أوصاه به الشيخ والوالد ظاهر المحّمود، فحين فتح الشيخ سليمان البكر عينيه فتحمها على صورة رجل عملاق، يضع خنجره على رقبته،

وهو يقول له: ياشيخ إن صمتك سيوفّر علينا حياتنا، فإن تفوّهت بكلمة سأفصل رأسك عن جسدك.

في تلك المواقف تطيش عقول الرجال، فلا يحسنون التصرف، لكن الشيخ سليمان البكر كان شجاعاً وذكيّاً فطناً، فلم يرتبك أو يتلعّثم، إنما سأل الرجل الذي يضع الخنجر على رقبته قائلاً: ماذا تريد ياولدي. فرد عليه بكل أدب: والدي يريد أن يراك لأمر هام. ولن أدعك تسير على رجليك كما أوصاني. ثم حمله على ظهره حتى خرج به خارج حدود المنطقة، وحين وصل إلى فرسه التي أخفاها في مكان لا يراها فيه أحد؛ انزله من على ظهره، ثم وضعه على ظهر الفرس، وجاء يقود لجامها.

أوصى الشيخ ظاهر مطر الناصر أن يكون وصوله في الظلام، لئلا يراه أحد، بينما كان ينتظره خارج مضارب القبيلة، وعندما وصل الرجلان كان في استقبالهما، وما أن رآه الشيخ سليمان البكر حتى صار يشتمه، ويعنفه على فعلته تلك، والشيخ ظاهر يضحك مبتهجاً بقدومه، فعانقه، وقبّله، وهو يعتذر منه قائلاً: لم أجد طريقة أجالسك فيها إلا هذه. ثم أمسك بيده وتوجه به إلى المضيف، وأمر أحد الرجال أن ينادي في الناس أن الشيخ سليمان البكر قد حل ضيفاً عليهم، ثم أرسل إلى مشايخ عشائر زوبع ووجهائها يحضهم على القدوم للسلام على الشيخ سليمان، وقبل أن يرحل مصحوباً برجال وفرسان زوبع حتى يصل دياره معززاً مكرماً؛ أطلعه على سبب فعله معه، وطلب منه أن يتعاهدا على كتاب الله أن لا يلجأون للحرب بينهم تحت أي ظرف، وأن يسود السلام والوئام قبيلتيهم، وهكذا كان .

منذ ذلك اليوم توطّدت العلاقة بين الرجلين، وأصبحا صديقين حميمين، فتعددت الزيارات بينهم، وصارت وشائج المودة تزداد يوماً بعد آخر، حتى تتوجت بالمصاهرة، فزوّج ظاهر شقيقته فرحة المحّمود من بطي العيثة، فأنجبت ذرية كبيرة، وتجد اليوم كثيراً من أبناء مشيّخة الدليّم

ورجالاتها هم من ذريتها، ومن هؤلاء الأكاديمي والسياسي العراقي المعروف الدكتور عدنان الدليمي رحمه الله.

كان الشيخ ظاهر يدعو في صلواته لكل القبائل، أن يُصلح الله أحوالهم، وأن يُكثّر ذريتهم ويرزقهم، وكان يُسمي تلك القبائل بأسمائها، وقد سمعه أحدهم يدعو بذلك الدعاء لقبيلة الدليم، فاستغرب ذلك منه، وسأله قائلاً: أتدعو لمن قاتلوك وقاتلتهم. فقال له: أولئك في صلاحهم وقوتهم عزوة لنا جميعاً، وقوة للإسلام والمسلمين.

٢- تسمية الشيخ سليمان الضاري نسبة إلى الشيخ سليمان البكر:

حين ذهب الشيخ ظاهر المحّمود مع والي بغداد إلى حائل للقاء الأمير عبد العزيز بن رشيد؛ قرر اصطحاب صديقه الشيخ سليمان البكر معه، وفي ليلة رحيلهم بات عند ظاهر، ليخرجا مبكرين للقاء الوالي في طريق ذهابهم إلى حائل، وبعد مسيرهم مسافة ساعة عن الديار لحق بهم البشير، يُعلم الشيخ ظاهر أن ولده ضاري قد رزق غلاماً، بعد عدة سنين من ميلاد ولده الأول خميس، فكانت فرحة غامرة عمّت القلوب، وعند سماعه الخبر السعيد أمر البشير إبلاغ ولده ضاري بأنه قرر تسمية المولود الجديد سليمان، تيمّناً باسم صديقه الحميم سليمان البكر شيخ قبيلة الدليم .

٣- قتال الشيخ ضاري إلى جانب الشيخ حردان العيثة في الرمادي:

أواصر المودة التي مد جسورها الشيخ ظاهر مع قبيلة الدليم بقيت عامرة في قلوب وضمائر أبنائه، وزادتها صلة الرحم بالمصاهرة قوة ومتانة، وتجلّت تلك المعاني بأن يختلط الدم في ميادين العز والكرامة ذوداً عن العراق، بعد أن اختلط في العروق، حين قاتل الشيخ ضاري البريطانيين عام (١٩١٧م) دفاعاً عن مدينة الرمادي؛ إلى جانب الشيخ حردان العبد الحميد العيثة شيخ مشايخ ألبو عيثة إحدى أكبر عشائر قبيلة الدليم.

قاتل الرجلان دفاعاً عن الرمادي قتالاً مستميتاً، في وضع غير متكافئ مع خصمهم الدولة العظمى، فسقطت الرمادي بيد القوات البريطانية، ثم حاولت تلك القوات الحصول على وعد منهما بالهدنة بعد ذلك، حين التقى أحد الضباط البريطانيين بالشيخين حردان وضاري، لكن اللقاء لم يُسفر عن شيء، بعد إصرار الرجلين على موقفهما الرافض للاحتلال، عندها قرر البريطانيون إلقاء القبض عليهما، وبالفعل ألقي القبض على الشيخ حردان العيثة، وتم نفيه إلى الهند، أما الشيخ ضاري فقد ألقى بنفسه وهو على صهوة حصانه في نهر الفرات، عابراً إلى الطرف الآخر منه[1].

يروي الشيخ سليمان الضاري عن تلك الأيام : بعد أن عاد الشيخ حردان من منفاه عرّج في طريق عودته إلى الرمادي على بيت والدي، وكانت تقله إحدى عربات الأجرة، فاحتفلت زوبع بقدومه، ومنحوا سائق العربة (٢٥٠) روبية[2] إضافة إلى أجرته هدية لأنه أوصل الشيخ حردان إليهم، ثم ركبوا خيولهم وخرجوا معه إلى الفلوجة تكريماً لضيفهم الكبير[3].

ويذكر السيد نافع عمر العلي التكريتي عم السياسي المعروف صلاح عمر العلي والذي تربطه علاقة صداقة ومودة بالشيخ ضاري وكثير من رجالات زوبع: إنهم عادوا بتجارة لهم من حلب، وكان برفقته أخوه عمر العلي - والد صلاح - ورجال من كبار تجار تكريت في ذلك الوقت، وقد بدأت المنازلة بين القوات البريطانية من جهة، والشيخ حردان والشيخ ضاري وأتباعهما من جهة ثانية، فقرر السيد نافع العلي ومن معه عدم التخلي عن واجبهم الوطني في ذلك اليوم، فاشتركوا في القتال بما توفر معهم من سلاح وذخيرة.

---

(١) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٣٤.

(٢) يعتبر مبلغاً كبيراً جداً في ذلك الوقت، وقد أعطوه على سبيل التكريم له لأنه أوصل ضيفهم العزيز والكبير.

(٣) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٥٠.

ويذكر دائماً ذلك الموقف البطولي للفتى ابن السابعة عشر سليمان الضاري فيقول عنه: قاتل سليمان الضاري كقتال عنترة بن شداد.

٤- موقف الشيخ ضاري من مقتل الشيخ صبار الكعود:

الشيخ صبار الكعود هو شيخ عشيرة ألبو نمر، إحدى عشائر قبيلة الدليم الكبيرة، والمشهورين بنخوتهم، وشدة بأسهم، وقد قُتل الشيخ صبار على يد القوات البريطانية، فآلم ذلك المُصاب الشيخ ضاري ألماً شديداً.

أرسل الكولونيل ليجمن إلى الشيخ ضاري طالباً لقاءه في خان النقطة، وهو اللقاء الأخير الذي جمع بين الرجلين، إذ أجهز عليه ضاري في ذلك اليوم وقتله، وفي بداية اللقاء حاول الكولونيل أن يبتزه، ويضعف عزيمته، حين ذكر له أنه اعتقل قسماً من قادة الثورة، بينما هرب الآخرون من وجهه، وعليه أن ينصاع لرغبات البريطانيين، سواء برضاه، أو مرغماً، وإن أصر على عناده فإن مصيره سيكون كمصير رفاقه، أو أن يقتله بيده كما قتل صبار الكعود شيخ ألبو نمر.

حزّت كلمات ليجمن في نفسه، وأيقن أنه هو من قتل صبار، لذلك عندما هوى عليه بالسيف وهو يقتله قال يخاطبه: يما ثارات صبار الكعود، أي إني قاتلك ثأراً للشيخ صبار الكعود

٥- الشيخ ضاري في المحكمة مدافعاً عن الشيخ حردان العيثة:

خلال محاكمة الشيخ ضاري في بغداد بعد اعتقاله؛ عرض عليه القاضي البريطاني رسائل استولوا عليها في بيت مشحن الحردان، كان ضاري قد بعثها لوالده حردان العيثة خلال الثورة وقبلها، وهي موقعة بتوقيعه وختمه الخاص، وأخبره القاضي أن مشحن الحردان قد اعترف لهم بأن الشيخ ضاري أرسلها لوالده حردان ألبو عيثة، وكان حينها قد صدر عفو عن الشيخ حردان، لأنه لم تثبت عليه تهم اشتراكه في الثورة،

وكان ذلك العفو في حقيقته محاولة استرضاء للقبائل التي حاربت البريطانيين.

كان رد الشيخ ضاري على القاضي فيه كثير من الحكمة والفطنة، حيث نفى إرساله تلك الرسائل، وذكر للمحكمة أنه لا علاقة له بالشيخ حردان، وأكد أنهم أعداء، وبينهم ثارات، وذلك يبرر صحة نفيه دعوا إرساله رسائل له، وما ذلك إلا خشية علي الشخ حردان من غضب البريطانيين، رغم أن إنكاره لتلك الوقائع يجرح في مصداقية دفاعه عن نفسه، لأن الرسائل كانت ممضية بختمه[1].

٦- الشيخ خميس الضاري والشيخ فرج الغضيّب:

الشيخ فرج الغضيب هو شيخ عشيرتي ألبو خليفة وألبو مرعي في وقته، والعشيرتان هما من عشائر قبيلة الدليم، وكانت تربطه بالشيخ خميس الضاري صداقة ومودة كبيرة،

في خمسينيات القرن الماضي حدث احتكاك بين شيخ إحدى القبائل والشيخ خميس الضاري في مركز شرطة الفلوجة، ثم تطور إلى نزاع بعد شتم ذلك الشيخ لقبيلة زوبع دون وجه حق أو مبرر، فبادر إلى صفعه، فما كان من الرجال الذين يرافقون ذلك الشيخ إلا أن يشهروا أسلحتهم بوجهه، عازمين على قتله، وفي تلك اللحظة جرد سلاحه بوجوههم، فتواقف الجانبان غير المتكافئين، ولم يستطع رجال الشرطة في المركز اتخاذ أي خطوة لمنع ما سيحصل.

كان الشيخ خميس مصراً على عدم خفض سلاحه قبل أن يخفض أولئك الرجال سلاحهم، رغم مناشدة آمر المركز له بذلك، وهنا تدخّل الشيخ فرج الغضيب راجياً منه أن يخفض سلاحه، وهو كفيل له بأن لا

(١) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٦٠-٦١.

ينال منه أحد، وهو يعلم أن الرجال الذين في الطرف الآخر ينتظرون إشارة تدل على موافقته كي يخفضوا سلاحهم.

الثقة والمودة التي تعتمر قلبي الرجلين كانت مدعاة لأن يثق بمناشدة فرج الغضيب، ويستجيب لها، ويكفي الله المؤمنين القتال.

تلك المودة والمحبة بين الرجلين توارثها الأبناء عن الآباء، وتجلّت بكل وضوح في دموع حفيد فرج الغضيب الشيخ محمد العفات الفرج عام (٢٠١٠م).

في ذلك العام قررنا ملاقاة الشيخ حارث أنا ومجموعة من العائلة في لبنان لرؤيته والسلام عليه بعد عدة سنوات من الفراق، وحين كان هناك في زيارة لحضور مؤتمر نصرة الشعب الفلسطيني، وكنا حينها في سوريا، فحجزنا لدى إحدى شركات السياحة باصاً خاصاً لنقلنا إلى لبنان عن طريق مركز المعمل الحدودي، وعند تجمعنا في انتظار الباص أمام شركة النقل في دمشق وإذا بصوت ينادي باسمي، وحين التفت وإذا بالصديق محمد العفات يهرول مسرعاً للحاق بنا، والذي لم ألتق به منذ سنوات أيضاً، بعد خروجه من العراق وإقامته في حمص بسوريا.

بعد أن حيّا أحدنا الآخر وتعانقنا طويلاً سألته عن سبب مجيئه المفاجئ، فأخبرني أنه سمع في ساعة متأخرة من الليل بأمر ذهابنا إلى لبنان، فحزم حقيبته في نفس اللحظة وجاء إلى دمشق ليرافقنا في زيارتنا للشيخ حارث.

في اليوم الثاني لوصولنا إلى لبنان ذهبنا لزيارة الشيخ حارث في فندق السفير، فوجدناه جالساً في صالة الاستقبال، وبجواره عضو مجلس الشعب السوري السيد أنس الشامي، الذي حضر للسلام عليه، وكان أحد المشاركين في المؤتمر.

ما إن أحس الشيخ بوجودنا حتى نادى علينا لنسلم عليه، بعد أن استأذن من ضيفه، فسلمنا عليه على عجل لعلمنا بوجود الضيف، لكنه طلب منا أن نجلس وهو يقول لضيفه: هؤلاء أولادنا، وهي الكلمة المحببة لديه في توصيف كل الذين يحبهم ويحبونه.

حين استقر بنا المجلس في حضرته؛ بدأ يسأل الأخ محمد عن صحته، وعن أهله وأولاده وجميع آل غضيب، وكان يعددهم بالأسماء، بينما محمد يجيبه وهو مطرق رأسه إلى الأرض، فاستغرب الشيخ الأمر، ونادى عليه بصوت يملأه الاستغراب: أبا عبدالله .. ماذا بك، خير إن شاء الله. وما أن رفع رأسه إلا والدموع تنهمر تعقبها الحسرات، وكأنه ثكلا فقدت وحيدها.

وهو يغالب الدموع قال: والله ياشيخ دموعي عزيزة جداً، لكني كلما رأيتك رأيت فيك العراق، ثم تذكرت حاله اليوم، فلا أتمالك أحاسيسي، ولا أستطيع كبح جماح دموعي.

ب- علاقة زوبع بقبيلة بني تميم:

كانت علاقة قبيلة شمّر بقبيلة بني تميم في نجد علاقة متميزة، تسودها الألفة والمودة، وهكذا ورثت زوبع سليلة شمّر ذلك الموروث القبلي الطيب في علاقتها مع بني تميم في موطنها الجديد العراق، فحفظت لهم كل صلات المودة والاحترام، يضاف لذلك حقوق الجوار، وتشهد عليها مواقف عديدة سامية اشتركوا في إضافتها إلى إرثهم المجيد، منها:

١- قتال زوبع إلى جانب بني تميم في عهد الشيخ ظاهر:

قبيلة ألبو عامر الطائيّة أبناء عمومة زوبع، وكانت علاقتهم بهم طيبة جداً، ويشهد لذلك أن كثيراً من أبناء مشايخ ألبو عامر قد تسمّوا بأسماء أبناء المحّمود مشايخ زوبع، ومنهم للدلالة لا الحصر الشيخ ضاري

الفياض رئيس السن في البرلمان العراقي بعد الاحتلال الأمريكي، الذي سُمي نسبة إلى الشيخ ضاري المحّمود .

حدث نزاع بين ألبو عامر وبني تميم جيران زوبع، فحاول الشيخ ظاهر شيخ زوبع في ذلك الوقت جهده إنهاء النزاع، لكن محاولاته لم يُكتب لها النجاح، فكان بين خيارين أحلاهما مر، فهو إما أن ينأى بنفسه وعشيرته عن ذلك الموقف، ويتخلى عن حقوق الجار في رد العدوان عنه، أو أن يقف مع بني تميم ضد أبناء عمومته ألبو عامر، لكنه أبا أن يُعطي الدنية في جاره، وبخاصة أن بني تميم كانوا حينها قليلي العدد في أبو غريب، تناسباً مع عدد ألبو عامر، لذلك قرر أن يقف مع جيرانه بني تميم في تلك المنازلة، وهو يصدر في ذلك عن وازع شرعي بحت، وغيرة عربية أصيلة، فحين وقعت الحرب بين الطرفين، قاتلت زوبع أبناء عمومتهم ألبو عامر لصيانة حقوق جيرانهم بني تميم .

٢- وقوف زوبع مع بني تميم ضد قبيلة الدليم:

أساء أحد أفراد قبيلة بني تميم إلى قبيلة الدليم، فثارت ثائرة الشيخ علي السليمان شيخ قبيلة الدليم، وقرر اجتياح بني تميم، وكانت بينهم وبين زوبع عهود منذ زمن والده سليمان البكر، قضت بأن لا يتنازعوا مهما كانت الأسباب الموجبة للنزاع، وتأصلت بينهم عُرى المودة، وقامت أواصر المصاهرة، لذلك بعث الشيخ علي السليمان رسالة إلى الشيخ ضاري فحواها أنه يريد غزو بني تميم، وإطفاء نارهم، حسب زعمه، وهو يطلب من الشيخ ضاري أن لا يعترض سبيلهم عند مرورهم لتنفيذ مهمتهم .

وقعت تلك الرسالة وقع الصاعقة على ضاري، فهو قد ورث عن والده طيب العلاقة مع الدليم، وهم قبيلة كبيرة وقوية، بل هي القبيلة الأكبر والأقوى في كل قبائل غرب العراق، والدخول معها في نزاع ليس في صالح زوبع، لكنه في الجانب الآخر لن ينكث بحقوق الجوار مهما

كلفه الأمر، ولأن الأمر لا يحتمل التراخي وهو في منتهى الخطورة؛ دعا مشايخ زوبع إلى عقد مجلس حرب القبيلة .

عُقد المجلس بقيادة الشيخ ذرب الثويني، شيخ عشيرة الجتادة، لأنه أكبر الحاضرين سناً، وكان مقرر المجلس الشيخ شنيتر الجاسم، شيخ عشيرة الكروشيين، فقرأ عليهم ضاري رسالة الشيخ علي السليمان، وما أن أتم قراءتها حتى أمر الشيخ ذرب الشيخ شنيتر أن يردّ على رسالة الشيخ علي السليمان، وكان فحوى الرد أن قبيلة زوبع تستنكر العمل الذي قام به أحد أفراد قبيلة بني تميم، وهو لا يعدوا عن كونه عملاً فردياً بحتاً، وأن زوبع تتعهد بتنفيذ كل ما يرضي قبيلة الدليم وشيخها علي السليمان، للحفاظ على كرامة جيرانها، وعلى العهود التي أبرمتها معهم، ولصيانة عُرى المودة بينهم، وتذكّره بجميل خصاله التي عُرف بها، من الطيبة والتسامح مع من يُسيء إليه، وعفوه مع المقدرة، وبخلاف ذلك فإن زوبع ستكون مرغمة على حفظ حقوق الجوار لبني تميم، وعليهم أن يُطفئوا نار زوبع قبل أن يصلوا إلى بني تميم، ثم ختمت الرسالة بختم قبيلة زوبع، ومن ثم أرسلها الشيخ ضاري من فوره مع ابن عمه مخلف الحامد المحّمود، وألزمه أن يسلمها بيد الشيخ علي السليمان شخصياً .

خرج مخلف الحامد على عجل، وسلّم الرسالة للشيخ علي السليمان، وقد احتشد أبناء الدليم بين يديه ينتظرون ساعة الصفر التي يتحركون فيها لغزو بني تميم، لكن الشيخ علي السليمان وبحكمة القادة الذين يكظمون الغيظ من أجل مصالح أبناء قبائلهم ومن أجل الحفاظ على أرواحهم؛ قرأ الرسالة على أبناء الدليم ولم يأت على الكلام الذي خُتمت به، من تهديد صريح من زوبع بعدم السكوت على ما تنوي الدليم القيام به تجاه بني تميم، وأنها ستموت عن بكرة أبيها قبل أن يصلوا إلى جيرانهم، وما ذاك منه إلا لحكمته، فقد خشي أن يُلهب ذلك التهديد حمية المتحمّسين للغزو، فتنشب الحرب على إثرها، ثم خاطب عشائر الدليم قائلاً: رأيي أن نستمع لكلام العقل الذي أشارت به زوبع علينا، وإن كنتم ترون غير ذلك فإني واحد منكم، لا أخالف لكم رأياً .

كان الشيخ علي السليمان رجلاً شجاعاً، وغيوراً على قبيلته، محباً لهم، وهم يبادلونه ذات المشاعر، فلم يخرجوا يوماً عن الرأي الذي يراه، وبذلك أخمد العقلاء ثورة الغضب، ونزوات الكبر، الذي لا يقود إلا إلى المهالك، فكفى الله المؤمنين القتال .

وهنا لا بد أن أشير إلى أمر لم يكن يخطر ببالي وأنا أسمع مثل تلك القصص قبل عهد الاحتلال الأمريكي للعراق، حيث غزت العنصرية والطائفية عقول ونفوس الكثيرين، وهو أن قبيلة زوبع لم تكن يوماً في وارد التفكير بأمر ينمّ عن عنصرية أو طائفية، فهي قاتلت مع بني تميم جيرانها؛ ضد ألبو عامر أبناء عمومتها، ووقفت مع بني تميم (الشيعة)، ضد الدليم (السنة)، والذين تربطهم بهم عهود، وصلات رحم، فكانت وما زالت ذلك ديدنها .

٣- قتال علي المعيدي التميمي إلى جانب زوبع في ثورة العشرين:

قاتل أبناء عشيرة المصالحة من قبيلة بني تميم بقيادة الشيخ علي المعيدي إلى جانب زوبع في ثورة العشرين، واشتركوا في أغلب المعارك التي خاضتها ضد الاحتلال البريطاني، فقاتلوا في الفلوجة، وأبو غريب، وفي التاجي.

ذكر لي الشيخ طلب الدرع المحّمود ابن أخ الشيخ ضاري: كان الشيخ علي المعيدي حريصاً على القتال مع زوبع لسببين، أولهما حبه لوطنه، والآخر حبه لزوبع وللشيخ ضاري بخاصة، ثم يقول معقباً على كلامه: كان الشيخ علي المعيدي يحبنا حباً صادقاً .

٤- علاقة الشيخ حسن السهيل بزوبع:

الشيخ حسن السهيل التميمي من حكماء بني تميم، وهو على علاقة مودة حميمة مع مشايخ زوبع، وبخاصة الشيخ خميس الضاري، وله مواقف عديدة تؤكد المعنى الذي ذهبنا إليه، ومن هذه المواقف:

أ- زار الشيخ حسن السهيل في أحد الأعياد مضيف الشيخ خميس الضاري، فهب لاستقباله، وتميّز الاستقبال بالحفاوة والمودة الفائقة، ومما قاله الشيخ حسن مخاطباً الشيخ خميس وعلى مسمع الحاضرين من شيوخ ووجهاء القبائل الأخرى: هذا بيتنا الكبير، وواجب زيارته فرض على الجميع .

ب- ذكر لنا الحاج محمد حمزة العاشور الحسّاني التميمي بحضور جمع من أبناء زوبع عند زيارته لمضيف الشيخ خميس الضاري؛ وكان برفقته ولده أبو محمد رضا العاشور صديقنا العزيز: أنه في أحد الأيام من عام (١٩٥٤م) زار الشيخ حسن السهيل في بيته، فوجده متهيئاً للمغادرة، فيذكر أنه قال له: إننا ذاهبون لزيارة أخينا أبو ظاهر. يقول الحاج حمزة: فلم استوعب ما قال، وظننت أني لم أسمعه جيداً، لأني لا أعرف له أخاً بذلك الاسم، فقلت له: لم أفهم ما قلت. لكنه في جوابه على سؤالي وضح بالتحديد من يقصد حين قال: بلا .. نحن ذاهبون لزيارة أخينا خميس الضاري، فهل تود مرافقتنا .

ثم يضيف: ذهبنا إلى بيت الشيخ خميس الضاري في كرادة مريم ببغداد، وكان على علم مُسبق بموعد الزيارة، فاجتمع إليه أناس كثيرون، من قادة البلد، ووجهاء بغداد في ذلك الوقت. وكان بيته محط علية القوم من رجالات بغداد والعراق، لذلك كان يُلقّب الشيخ خميس (شيخ بغداد).

وهنا أذكر تلك الواقعة لأشير إلى المعاني الحقيقية المستفادة منها، والتي لا تخفى على لبيب، فالشيخ حسن استخدم في ذكره للشيخ خميس أحسن العبارات، وأحبها إلى القلوب، فقد وصفه بأنه أخوه، وكذلك ذكره بكنيته، وهي تدل على مدى العلاقة الوطيدة بينهما، ثم إنه ذكر ذلك الكلام بين أهله وبني قبيلته، ولم يكن أحد غيرهم حاضراً ليسمعه، فيظن الظان أن كلامه قد داخلته المجاملة أو الرياء، ولا شك أن أولئك الرجال بعيدون عن كل ذلك، لذا حازوا محبة وتقدير الآخرين .

ومما ذكره الحاج محمد العاشور حكاية كان هو أحد أطرافها، فيذكر: إنه زار مضيف الشيخ خميس الضاري في أحد الأعياد، فرحب به كثيراً، وحين حضر وقت تقديم طعام الغداء نادى عليه وأجلسه إلى جواره، وحين مُدت الأيدي إلى الطعام؛ أمسك بيد الشيخ خميس وهو يقول له: لقمتك مطلوبة ياشيخ. فكف يده، وهو يمسك بتلك اللقمة، وقد فهم قصد الحاج محمد العاشور، ثم نادى على أحد الرجال الموجودين، وطلب منه أن يُحضر صحناً كبيراً من الطعام، بعد أن طلب من الحاضرين عدم كف أيديهم عن طعامهم، بينما بقي هو يُمسك بتلك اللقمة حتى احضروا الصحن، فوضع اللقمة فوق الطعام الذي فيه، ثم أمر أحد الرجال أن يوصل الصحن إلى بيت الحاج محمد العاشور.

يفسر لنا الحاج محمد سر طلبه الغريب ذلك فيقول: في أول يوم من أيام العيد كان الشيخ خميس يقيم وليمة يحضرها شيوخ وأعيان زوبع وجيرانه وأصدقاؤه في بغداد، وفي ذلك اليوم أخبرتني زوجتي أن جارتنا لم ترزق ذرية، رغم مرور سنوات طويلة على زواجها، وهي ترجو أن أحضر لها لقمة إنسان خير تتبارك بها، لعل الله أن يهبها الذرية، وهي ترى أن الشيخ خميس هو أولى من وقع عليه اختيارها، فلم أجد بداً من تنفيذ هذه المهمة الشاقة، بعد إلحاح زوجتي، فوعدتها خيراً، وذهبت إلى مضيف الشيخ خميس .

ويضيف الحاج محمد العاشور: بعد أن أوصل الرجل الصحن معي إلى البيت أرسلته مع زوجتي أم رضا إلى تلك المرأة، وقد علمت بعد أشهر قليلة أن المرأة قد حملت، ثم بعد مضي أشهر أخرى وضعت غلاماً، هو الآن رجل كبير، وهم ما زالوا جيران لنا، وأغلب الحاضرين يعرفونهم .

في هذه القصة لا شك أني استثني الخوض في الرأي الشرعي، واستبعد قضية الكرامة كلياً، لكي أكون بعيداً عن الأخذ والرد، والتأييد أو التفنيد، وأرد الأمر كله إلى القضية النفسية، فكثير من الأمراض وقضايا

الحمل والإنجاب يدخل فيها العامل النفسي بقوة، وكم من النساء لم تحمل إلا بعد تعرضها لعامل نفسي، وربما تلك المرأة كانت من هذا النوع .

لكن الذي أود الكلام فيه من وحي هذه الواقعة هو مدى الثقة المطلقة في الآخرين، وتلك الروابط النبيلة المقاصد بين أبناء العراق وإن اختلفت قومياتهم، ودياناتهم، وطوائفهم، ومذاهبهم، ومما لا شك فيه أن الحاج محمد حمزة العاشور التميمي (شيعيّ) المذهب، وهو رجل عُرف عنه تدينه والتزامه بتعاليم مذهبه، وخميس الضاري (سنيّ)، لكن لم يمنع ذلك الأمر الحاج محمد من الاعتقاد بأن خميس الضاري رجل نبيل وخيّر، ولا شك أن تلك المرأة لم تعرفه إلا من خلال جيرانها ومنهم بلا شك الحاج محمد العاشور مما جعلها تضع فيه أملها في الإنجاب .

أذكر هذا الكلام هنا مذكّراً كل الذين لعبوا على وتر الطائفية، حتى كفّر بعضنا البعض الآخر، وحاولوا قطع كل أسباب الوصل والرحم والمودة بين العراقيين، أذكّرهم بما كان عليه الآباء والأجداد، من تراحم، ومودة، وثقة لا متناهية بأهلهم العراقيين .

ومن تلك القصص البسيطة في شكلها والكبيرة في معانيها والتي تُعتبر دروساً وعبراً إذا ما سبرنا أغوار معانيها ما رواه لي الأخ الصديق الكاتب والمؤرخ رضا محمد حمزة العاشور التميمي إذ قال: ننتسب إلى عشيرة الحسّان من قبيلة بني تميم، ويتركّز وجود عشيرتنا في محافظة صلاح الدين، وكان التواصل معهم نادراً، فلا نتزاور إلا في المناسبات المهمة، مثل وفاة أحد مشايخ أو أعيان العشيرة، وقد توفي جدي حمزة العاشور عام (١٩٥٨م)، فحضر عزاءه الشيخ عبد العزيز محمود الطعان شيخ عشيرة الحسّان، ومجموعة كبيرة من وجهائهم، وكان الشيخ خميس الضاري شيخ زوبع حاضراً مراسم العزاء في ذلك اليوم، بصحبة بعض إخوته وأبنائه، وجماعة من زوبع .

بعد انتهاء مراسم العزاء قرر شيخ عشيرة الحسّان السفر، وعند توديعه من قبل والدي وأفراد أسرتنا خاطب والدي قائلاً: **الحمد لله أن**

أباكم كان رجلاً خيّراً ومحترماً، ورفع رؤوسنا في أبو غريب، ولو كان غير ذلك لما حضر عزاءه الشيخ خميس الضاري .

هذه القصة البسيطة تُنبئ عن معانٍ كبيرة وسامية، فهي تدل على ذكاء ذلك الشيخ وفطنته، وحرصه على سمعة عشيرته، وهي في الجانب الآخر شاهد على مدى احترامه للشيخ خميس الضاري، واعتزازه به .

ج- علاقة زوبع بقبيلة ألبو محيي:

ألبو محيي قبيلة طائيّة معروفة، وهم أخوة ألبو عامر من طيّئ، كانت بينهم وبين زوبع صلاة مودة عميقة، وبخاصة شيخهم علوان الشلال، الذي يحب قبيلة زوبع حباً قد يتفرد به عمن سواه، وهو يحب الشيخ ضاري حباً خالصاً في الله، منزوع المآرب والمصالح .

حين حدثت ثورة العشرين أبا الشيخ علوان أن يقاتل البريطانيين إلا تحت راية زوبع، أبناء عمومته الذين يفخر بهم، فجاء بقبيلته إلى أبو غريب، واشترك في كل المواقع التي حدثت بين زوبع والبريطانيين، وقدّمت قبيلة ألبو محيي الضحايا على مذبح حرية وكرامة العراق في ثورة العراق الكبرى، ثورة العشرين .

وفي ثورة مايس عام (١٩٤١م) التي قادها رئيس الوزراء العراقي الراحل رشيد عالي الكيلاني احتجاجاً على هيمنة البريطانيين على القرار الوطني العراقي؛ اشتركت قبيلة زوبع في تلك الثورة بقيادة خميس وأخيه سليمان الضاري، ومنحتهم قيادة الثورة رتباً عسكرية فخرية، ليقودوا الثوار تحت مظلة الثورة، وفي هذه الملحمة العراقية ضد البريطانيين وأعوانهم قرر الشيخ علوان الشلال أن يضع بصمة عز وفخار لقبيلته أيضاً، فجاء برجال ألبو محيي الصناديد إلى مركز قيادة الثوار، وأعلن انضمام قبيلته إلى صفوف قبيلة زوبع، في تصديها للبريطانيين ومن يقف إلى جانبهم .

د- علاقة زوبع بقبيلة ألبو عيسى:

ألبو عيسى قبيلة طائيّة كبيرة، تُحادد مساكنها قبيلة زوبع من جهة الجنوب الغربي، وهم من أكثر القبائل المجاورة لزوبع مصاهرة معهم، وقد التحق بهم فرع من زوبع كحليف، يُدعون الكريّم، وهم اليوم عشيرة كبيرة في كيان قبيلة ألبو عيسى .

في ستينيات القرن الماضي حضر جماعة من وجهاء عشيرة ألبو كريّم إلى مضيف الشيخ خميس الضاري، طالبين منه ضمهم مرة أخرى إلى قبيلتهم الأم زوبع، لكن الشيخ خميس رفض طلبهم بمشورة من أخيه سليمان الضاري، إذ ذكّره أن هؤلاء القوم وإن كانوا أبناء عمومتهم الأدنين؛ لكنهم انصهروا مع الأيام في تلك القبيلة، وأن زوبع فيها كثير من الحلفاء، الذين أصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها، وإن أعادوا الكريّم سيبعث في نفوس حلفائهم غضاضة، وقد يفسرونه على أنهم قد استجابوا لطلبهم لأنهم أقرب إليهم نسباً، وبذلك ربما يعمدون هم أيضاً إلى ذات الأمر الذي وافقوا الكريّم عليه .

رد الشيخ خميس إخوته الكريّم رداً جميلاً، حين ذكّرهم أنهم ينتمون الآن إلى قبيلة كبيرة وعزيزة، وأن أبناء تلك القبيلة هم أبناء عمومة زوبع، إضافة إلى أن وجودهم معهم سيقوّي أواصر المحبة والألفة بين زوبع وألبو عيسى، ولا شك أنهم سيكونون حلقة الوصل في ذلك، ولهم الفضل فيه .



الشيخ حسن السهيل



الشيخ محّيميد الحسن



الشيخ علي المعيدي



الشيخ علوان الشلال



يسار الصورة الشيخ سعود الحديد الزيدي مع والد المؤلف عام ١٩٦٧



يسار الصورة الشيخ خميس الضاري ويمينها الشيخ سليمان الضاري
يتوسطهما الشيخ أحمد العجيل الياور شيخ قبائل شمّر



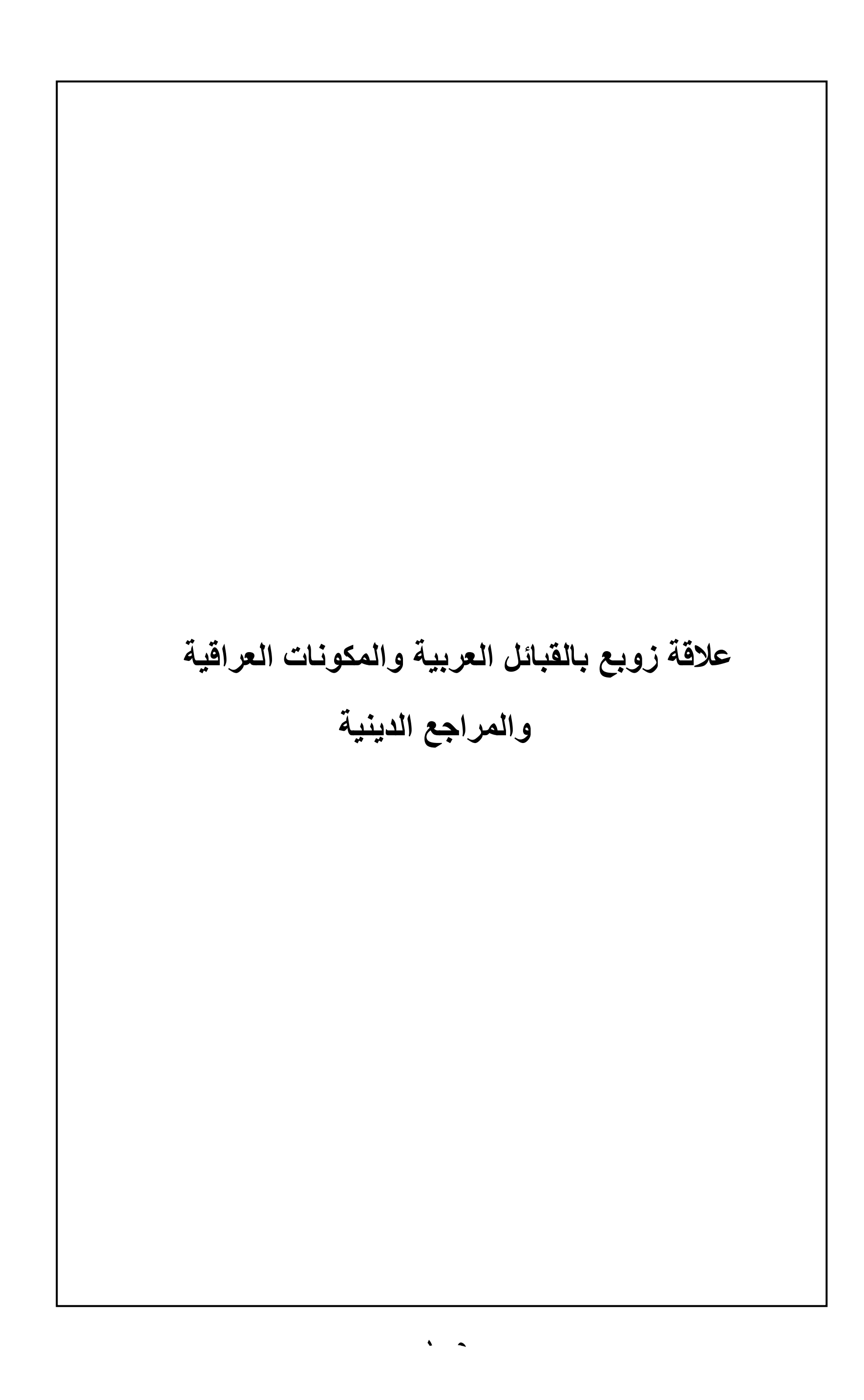
يسار الصورة الأستاذ عبد العزيز القصاب ثم الشيخ خميس الضاري
فالشيخ حواس الصديد والشيخ يوسف العرسان



يسار الصورة الحاج حسين الكاطع ثم الشيخ خميس الضاري
والأستاذ عبد الرحمن البسّام النجدي ثم الشيخ فنر الفيصل الجرباء



يسار الصورة الشيخ حردان العيثه الدليمي ويمينها الشيخ ضاري المحّمود الزوبعي يتوسطهما أحد القادة البريطانيين بينما يقف خلفهما الشيخ مشحن الحردان والفارس مطلك المخلف الذيابي الدليمي (أبو درّاعة) وذلك خلال مفاوضات فاشلة بين الثوار والبريطانيين على شروط الهدنة بين الطرفين



علاقة زوبع بالقبائل العربية والمكونات العراقية والمراجع الدينية

أولاً- علاقة زوبع بالقبائل العربية:

اتسمت علاقة زوبع بالقبائل العربية في العراق بروح الإخاء والمودة، وحفظ العهود والمواثيق، ولا ريب في ذلك إذا ما عرفنا أن كثيراً من قبائل العراق هي قبائل طائيّة، فهم أبناء عمومة زوبع، أو أن أحلافاً تربطها بتلك القبائل، فبنو أسد كانوا حلفاء طيّئ، وكذلك هم بنو تميم حلفاء شمّر، إضافة إلى أن كثرة حلفائها من بقية القبائل قد أوجد أواصر تقارب ومودة معها، إضافة لكل ذلك فإن أواصر القرابة والدم كانت الطابع المميز للقبائل العربية في العراق، نتيجة المصاهرات المتعددة بين أبناء تلك القبائل، فتمازجت الدماء في العروق، ومثال ذلك **أن الشيخ عجيل الياور شيخ قبائل شمّر والشيخ عبد الرزاق العلي السليمان شيخ قبيلة الدليم وكذلك الشيخ محّمود شيخ قبيلة زوبع فإن أمهاتهم هُن بنات عم، وهُن من قبيلة العُبيد العربية العريقة، فكانوا بذلك أبناء خالات، ربطت بينهم دماء أخوالهم.**

لا يخفى على المطّلعين في شؤون قبائل العراق تلك السمة التي تميّزت بها زوبع، في مواقفها الوطنية، وبعدها عن العنصرية والطائفية، التي لم تكن يوماً في قاموس تعاملها مع بقية أبناء العراق، كما أنها تميّزت في قضية الفصول، وهو ما يعرفه جيداً شيوخ قبائل العراق، ما أكسبها احترام الجميع، حيث تُعتبر زوبع من أكثر القبائل سماحة في نزاعاتها، وفي الفصول التي تنتج عنها، فالديات التي حددتها زوبع عن إصابة أو مقتل أبنائها تُعد أقل دية في كل قبائل العراق، وذلك في حالة أخذها الدية، فهي غالباً ما تتسامح ومن موقع الاقتدار في ذلك، وهذا ما يعرفه بكل ثقة عنها شيوخ عشائر العراق، وبذلك كسبت احترام الجميع ومحبتهم[١].

---

(١) النسابة الشيخ خليل الدليمي، برنامج عشائر أهلنا، على اليوتيوب.

وهم في كل أمر قبليّ بيضة القُبان، وفي كل أمر وطني عين الرحى، وتشهد لذلك مواقفهم التي دوّنها تاريخ العراق، أو حفظتها ذاكرة العراقيين بكل فخر واعتزاز، والتي يجب أن يعرفها الجيل الجديد من أبناء قبائلنا الكريمة، بعد أن قلّت أو ندرت المجالس التي تعلّم منها آباؤنا تاريخ وتراث قبائلهم، وهنا أشير لبعضٍ من تلك الوقائع التي تشهد على صدق ما نذكره هنا، وهي:

أ- الشيخ ظاهر مع خنساء قبيلة عنزة:

الغبين إحدى أشهر عشائر قبيلة عنزة العربية المعروفة، وهي أشهر من نار على علم، ويُضرب بهم المثل كناية عن الكرم الكبير، وتوصف كل مكرمة يُشار لها بالبنان أنها (غبيّنية)، نسبة إلى عشيرة الغبين .

تربط الشيخ ظاهر المحّمود علاقة صداقة ومودة كبيرة مع الشيخ سعود نجرس الغبين، وبعد أن توفيّ صديقه قرر أن يشد الرحال مع مجموعة من رجال زوبع للاطمئنان على حال أبنائه.

حينما وصل إلى مضارب عشيرة الغبين استقبلته ابنة صديقه سعود مع جمع من رجال الغبين، فرحبت به ترحيباً حاراً، وأمرت بأن تقام الولائم على شرف الشيخ ظاهر صديق والدها الحميم، واعتذرت أن إخوتها لن يتغيبوا طويلاً كي يحظوا بلقائه.

قُبيل المساء قام أحد أصحابه لقضاء حاجته بعيداً عن البيت، فلاحظ كومة من التبن سالت من تحتها الدماء، فما كان منه إلا أن كشف بعضاً من التبن، وإذا بثلاثة رجال قتلى تحت الكومة، فعاد مسرعاً ليخبر صاحبهم ظاهر بما رأى.

ما إن سمع الخبر حتى أسرّ أحد الرجال الحاضرين بما سمع، فأخبره أن غزواً جاءهم فجر ذلك اليوم، وتصدى له أبناء صديقه الثلاثة، سند ومسند ومسنّد، فقُتلوا جميعاً، لكن ابنة صديقه أمرت رجال العشيرة أن

يخفوا جثث إخوتها حتى تقوم له بالواجب، وأن لا يظهر عليهم ما يوحي بحصول شيء حتى يرحل.

أسرّ الشيخ ظاهر في نفسه أمراً وهو يرحل عائداً إلى أهله، إذ قرر أن لا يفوته شرف التصاهر مع أهل ذلك البيت، وقرر أن يخطب تلك المرأة التي لم ير أو يسمع بمثل فعلها إلا ما كان من الخنساء، ولا شك أنها خنساء أخرى.

عاد بعد حين خاطباً، وعرفت تلك المرأة مراده، فهو يريد ولداً تسري في عروقه دماء أولئك القوم، فاعتذرت بأنها امرأة فاتها ذلك الأمر، ولا تريد كذلك أن تترك بيت أبيها بعد أن خلا من إخوتها، عند ذلك طلب منها أن تزوجه امرأة من أهل بيتها، فأرسلت إليه تخبره أنهم ليس لديهم إلا فتاة واحدة هي ابنة أخيها مسنّد، وهي فتاة بسيطة، ضعيفة البنية، ربما لا تصلح زوجة له.

قرر ظاهر الزواج من تلك الفتاة، لئلا يفوته شرف مصاهرة تلك العائلة، فكانت الفتاة هي عمشة مسنّد سعود الغافل الغبين، وشاء الله أن تنجب ولداً واحداً لم تنجب غيره، ثم توفاها الله، وكان ذلك الولد .. ضاري المحّمود، الذي صدق فيه القول: إنه ليث من رحم لبوّة .

ب- موقف الشيخ ظاهر من جماعة من قبيلة الظفير:

زار الشيخ ظاهر المحّمود سراي الحكومة ببغداد لمقابلة الوالي العثماني، وعند خروجه من المقابلة نادى عليه رجال من داخل السجن، الذي يقع في باحة السراي، واستصرخوا نخوته وشهامته، وأخبروه أنهم منذ أشهر على تلك الحال، ولا يعرفون مصيرهم إلى ما سيؤول، فما كان منه إلا أن رجع إلى الوالي، متشفعاً فيهم، ووعده أن لا يطلب منه أمراً أخر ما بقي حياً إن شفّعه فيهم، فأطلق الوالي سراحهم، ثم قام بتجهيزهم بكل ما يحتاجون إليه من مؤن وجمال ليلحقوا بأهلهم.

حين وصل أولئك الرجال إلى قبيلتهم حملوا الرايات البيضاء، وداروا على القبائل، يشكرون فضل ظاهر عليهم، وما أبداه من صنيع جميل، ومن أولئك الرجال عودة أبو ذراع، وتلك عادة لدى العرب تسمى (التبييض) نسبة إلى الراية البيضاء التي يحملونها معهم، ذاكرين مناقب الرجل الذي يبيضون له.

ت- موقف الشيخ ضاري من الشيخ عطيّه أبو كلل:

الشيخ عطيّه أبو كلل هو عميد أسرة أبو كلل اللاميّة الطائيّة، وهو من أشهر رجالات الفرات الأوسط في العراق، وكان مشهوراً بمواقفه الوطنية ضد الاحتلال البريطاني، وبكرمه الحاتميّ الذي يعرفه أبناء العراق، فكان بيته مفتوحاً للضيوف وبخاصة منهم زوار العتبات، في وقت لم تكن هناك فنادق أو مطاعم، لذلك يذهب الزوار إلى مضيف الشيخ أبو كلل ويمكثون في ضيافته طيلة مدة الزيارة، وقد وشى به بعض حاسديه يوماً إلى البريطانيين، فنفوه إلى الهند، ولما جاء الزوار في ميعاد الزيارة إلى مضيف أبو كلل وجدوا الباب مغلقاً، وتساءلوا عن السبب، فعرفوا ما حل بالشيخ أبو كلل، وعرفوا الذين وشوا به، فذهبوا إلى بيوتهم، وكسروا أبواب بيوتهم وهم يهزجون:

(السد باب عطيّه يفك[1] بابه)

هذا الرجل الكبير بكل مقاييس الرجال تربطه بالشيخ ضاري علاقة صداقة ومودة، إضافة إلى صلة النسب التي تجمعهم من جهة طيّئ، والتي يعتزون بها، وقد عُرف الشيخ عطيّه بمواقفه الكبيرة، وشجاعته، وعدم مهادنته للظلمة من الحكام، لذلك كان دائم الاصطدام برجال السلطة، وقد حدثت له في الأيام الأخيرة من حكم الدولة العثمانية للعراق خصومة مع السلطة في النجف، أغرت على وقعها السلطة هناك الوالي

---

(١) يفك: يفتح. أي أن الذين كانوا سبباً في إغلاق باب مضيف الشيخ عطيّه عليهم أن يفتحوا أبواب بيوتهم للناس الذين افتقدوا كرم عطيّه أبو كلل.

العثماني في بغداد بأن يُصدر حكماً غيابياً بالإعدام بحقه، بوشايات بعضها حقيقية وكثير منها كاذبة ملفقة، فما كان منه إلا أن غادر النجف خفية، واتجه إلى مضارب أبناء عمومته زوبع، يلوذ بهم سنداً وعزوة .

كان الشيخ ضاري ذلك الحين في بغداد، لإنجاز بعض الأمور، ولقاء الوالي العثماني، ثم عاد إلى الديار بعد لقائه بالوالي، وفي طريق عودته قريباً من عقرقرف حيث مضارب قبيلة بني تميم رأى إحدى خيوله واقفة عند باب أحد البيوت، فاستغرب الأمر، وما كان منه إلا أن لوى عنان فرسه وتوجه نحوها، وإذا أحد رجاله قد نزل هناك للراحة، فأخبره أن الشيخ أبو كلل قد وفد عليهم، وأطلعه على سبب مجيئه، وحين علم بالأمر أدار وجهة فرسه وعاد أدراجه إلى بغداد، ميمماً وجهه صوب بيت الوالي، وعند وصوله واستئذانه بمقابلته؛ هرع إليه، مستوضحاً عن سر رجوعه المفاجئ، فأخبره عن سبب رجوعه، وإنه يتشفّع بالشيخ عطيّه، فهو ابن عمه، ولم يعرف عنه إلا كل خير، وإن كل ما نُقل عنه للوالي هو محض افتراء من البعض، حسداً من عند أنفسهم، فما كان من الوالي إلا أن أصدر أمره بالعفو عنه، لأنه يعرف صدق ونزاهة وحكمة الشيخ ضاري، وبخاصة حين حذره من مغبة إثارة القبائل في وقت أحوج ما تكون فيه السلطة إلى التسامح معهم، ولمّ شمل العراقيين في ذلك الظرف العصيب الذي تمر به الدولة العثمانية .

قضّى الشيخ أبو كلل أياماً بضيافة أبناء عمومته زوبع، معززاً مكرّماً، ثم رافقوه عند رحيله إلى النجف، حتى وصلها بأمان.

ث- قتال القراغول مع زوبع في معركة سلمان باك ضد البريطانيين:

قاتلت زوبع مع القبائل العراقية الأخرى إلى جانب العثمانيين دفاعاً عن بغداد، ويذكر الذين حضروا تلك الحرب ومنهم الشيخ سليمان الضاري أن أكبر بيوت الحرب في تلك المعركة كان بيت قبيلة الداينيّة المعروفة، ثم بيت قبيلة زوبع .

وعن الوقائع التي نشبت في ذاكرته ولم تغادرها أبداً يروي لي الشيخ سليمان الضاري؛ وهو ما حفظه كثيرون عنه وعن غيره ممن شاركوا في تلك المعركة: إنهم وهم يستعدون للقاء البريطانيين دخلت المعسكر مجموعة من الفرسان، أثارت دهشة وانتباه القبائل جميعاً، فكانت المجموعة تمتطي خيلاً جميلة وأصيلة، وهم يحملون سلاحاً حديثاً، بينما كانت ملابسهم شبه موحدة، وخيلهم تسير بنسق مرتّب، وكأنهم سرية طلاب في كلية عسكرية .

توجهت تلك الكوكبة من الفرسان نحو بيت حرب زوبع، ثم ترجّل قائدهم عن صهوة جواده، وعرّف نفسه والمجموعة التي معه بأنهم رجال عشيرة القراغول، وهم يودون القتال في تلك المعركة تحت قيادة قبيلة زوبع، عندها فرح الشيخ ضاري فرحاً كبيراً، حين وجد أن أولئك الرجال الذين جلبوا انتباه وإعجاب المعسكر بأسره سيقاتلون إلى جانبه، ولأنهم منحوا زوبع ثقتهم واحترامهم .

ج- الشيخ سليمان الضاري مع قادة الثورة في الفرات الأوسط :

يروي الشيخ سليمان الضاري: إن والده دُعي إلى النجف، لحضور ديوان الثورة، فأنابه عنه لأسباب قاهرة، جعلته يتخلف عن الحضور، وكان من وجوه الحاضرين في الديوان السيد محسن أبو طبيخ متصرف - محافظ - لواء كربلاء، والشيخ عبد الواحد الحاج سكر شيخ قبيلة الفتله، والشيخ سلمان العبطان شيخ قبيلة الخزاعل، والشيخ سعدون الرسن شيخ قبيلة بني حِسن، وكان سليمان يومها فتىً لم يتجاوز العشرين من العمر، وهو في حضرة مشايخ لقبائل كبيرة، ولفارق السن الكبير بينهم، وقد لاحظ الحاضرون أمارات الحياء عليه، ومهابته لهم، لذلك قام إليه الشيخ سلمان العبطان وهو يُقسم أن يجلس في مكانه، ومخاطباً إياه قائلاً: عفية أبن عمي نومستّني - جعلتني أفتخر بك- رفعت رأسي، رغم فارق السن الكبير بينهما، عند ذلك خاطب الشيخ سعدون الرسن الشيخ سلمان العبطان قائلاً: هذه القرابة لك فقط، أولسنا أبناء عمه؟. وهنا خاطبهم

جميعاً الفتى سليمان بكل ثقة، وبكلام فصيح قائلاً: عمنا سلمان متأكد من هذه القرابة، ومن يتقرب منا لن نرده. وما إن سمع الشيخ العبطان كلامه حتى قام إليه وقبله على رأسه، ولا شك ولا ريب أن لسان حال الحاضرين ينطق بمقالة الشيخ العبطان، كما قال الشيخ سليمان: **ذلك لأنهم رجال رجال، نُزعت من قلوبهم تلك الأنا البغيظة، وصفت نياتهم، وسمت قلوبهم وعقولهم.**

ح- بين الشيخ مرزوك العواد والشيخ ضاري:

مرزوك العواد هو شيخ عشيرة العوابد، الكبيرة والمعروفة في الفرات الأوسط وجنوب العراق، وهي تنتمي إلى قبيلة بني مالك العربية القحطانيّة، والشيخ مرزوك هو أحد أشهر رجال ثورة العشرين، أقسم هذا الرجل العربي الشهم والأصيل أن يُقبّل يد الشيخ ضاري حين سمع بقتله للكولونيل ليجمن.

زار الشيخ ضاري النجف، ثم توجه إلى كربلاء بصحبة رجال الثورة، فاستقبله علماء الدين، وشيوخ القبائل، وكان الشيخ مرزوك العواد فيهم، وما أن وقع بصره على الشيخ ضاري حتى نادى عليه أمام الحاضرين: أمدد يدك لأقبلها وأبر بقسمي. فرفض ضاري أن يمد يده ليقبلها شيخ جليل مثل الشيخ مرزوك العواد، لكن الشيخ مرزوك أشهد الحاضرين أن امرأته طالق إن لم يدعه يبر بقسمه، عند ذلك تدّخل الحاضرون، وطلبوا منه أن يدع الرجل يبر بقسمه، وقال أحد العلماء له: ستخرب بيته، إن طلق زوجته، فهو رجل قد بلغ من العمر عتياً، ولن تقبل به النساء زوجاً، فعم محيّا الحاضرين الضحك لفطنته، وحسن الأسلوب في الإقناع، فمد حينها يده ليقبلها، في موقف استدرّ دموع الناس الذين شهدوا الموقف الكبير والسامي في كل توصيفاته[1] .

---

(١) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٦٥-٦٦؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٥، ص٧٤.

خ- الشيخ حمّد الزركه رجل نُقش أسمه في ذاكرة زوبع:

الشيخ حمد الزركه أحد أشهر الشخصيات المجتمعية في منطقة الكرخ ببغداد، وهو ينتمي إلى قبيلة الجبور المعروفة، والتي ينتشر أبناؤها في أغلب محافظات العراق، وقد سكن كثير من أبنائها بغداد قديماً، وكانت لهم محلات تجمّع معروفة في كرخ بغداد .

بعد سماع أهل بغداد بوفاة الشيخ ضاري هبوا جميعاً لتشييعه، وفيهم أبناء الجبور، وقد خرج الشيخ حمد الزركه يدق أبواب الجبور الذين لم يعلموا بالخبر، وكان يشحذ هممهم للخروج عن بكرة أبيهم، وهو يقول مخاطباً إياهم: الذي لا يخرج لتشييع الشيخ ضاري أخواله ليسوا من أعمامه، وهو يعني بذلك أن دمائه ليست دماءً جبورية خالصة.

قررت السلطة نقل جثمان الشيخ ضاري على ظهر إحدى سيارات الشرطة إلى المقبرة، تحاشياً لحدوث ما يتوقعونه من ردّات فعل البغداديين، إذ ستثير عملية التشييع عواطفهم، لكن أهل بغداد عقدوا العزم على تشييع بطلهم إلى مثواه الأخير، وجعل حمد الزركه من نفسه الفدائي الأول في عملية استنقاذ جثمان ضاري من آسريه، حين هجم على سيارة الشرطة مع مجموعة من أبناء الجبور، فقطعوا الحبال التي رُبطت بها الجنازة، ما شجع الجماهير المحتشدة على الالتفاف حول الزركه ورفاقه، حاملين جنازة الشيخ ضاري على الأكتاف، قاطعين الطريق على كل الخطط التي دبّرتها السلطة لمنع تشييع ضاري كبطل عراقي .

د- علاقة زوبع بآل السعدون:

آل السعدون أسرة عريقة النسب، نابهة الحسب، وهم مشايخ قبائل المنتفج، أكبر تجمع قبلي لتحالف عدد من القبائل، وآل السعدون مساكنهم البصرة والناصرية، وسُميت الناصرية نسبة إلى جدهم ناصر السعدون.

تربطهم بزوبع علاقات متينة العُرى، ومحبة ومودة متبادلة، طالما حدثني عن معانيها وأسبابها الشيخ سليمان الضاري، وهو لا يُخفي حبه الكبير للشيخ عجمي السعدون، ولا يذكره إلا بالصفة التي تدل على ذلك الحب حين يقول كل مرة يذكره فيها: **عمنا عجمي السعدون .**

وعن علاقته بالشيخ عجمي السعدون يذكر: كنت فتىً حدثاً وكان الشيخ عجمي يزور والدي بين الحين والآخر، وما أن يحضر إلى مضيف والدي حتى يسأل عني، ويبعث من يحضرني إن كنت غائباً، وكان يجلسني بجانبه، ويتحدث معي وكأنه يتحدث مع أي رجل من أقرانه، وكنت شديد الحياء منه، فهو رجل وقور ومهاب، بهي الطلعة، يذكر الله من يراه، ولا شك أنه يعلم ما في نفسي من حب له، وحياء منه، لذلك يقول لي كلما رآني: أنا أرى فيك يا ابن أخي رجلاً، وأرى فيك نفسي، فأنت تشبهني خِلقة وخُلقاً، ثم يضحك بمودة وبساطة ويقول: الطيور على أشكالها تقع. ومن شدة الحب الذي يعتمر قلب سليمان الضاري للشيخ عجمي وكما يعزو هو ذلك، فقد رأى النبي (ﷺ) على صورته في الرؤيا.

كانت عُرى هذا الحب والمودة والاحترام المتبادل تتجدد وتزداد تأصلاً في نفوس وقلوب آل المحّمود وآل السعدون، وكما نراها ماثلة اليوم في علاقة الشيخ مطشّر السعدون بالشيخ ظاهر خميس الضاري، وكذلك علاقة الاحترام والمودة المتبادلة بينه وبين الشيخ حارث الضاري، والتي يعرفها جيداً من يعرف الرجلين.

لا شك أن تلك العلاقات الطيبة والمتميزة بينهم امتداد لعلاقات تجذّرت في النفوس والقلوب، وما موقف رئيس وزراء العراق في العهد الملكي الشيخ عبد المحسن باشا السعدون إلا نتاج تلك العلاقة، والذي لم يحابي أو يجامل في الحق أحداً، حتى وإن كان ذلك الأحد الملك فيصل ملك العراق، حين سأله عن سبب خروج أهل بغداد عن بكرة أبيهم لتشييع الشيخ ضاري، وفيما إذا توفي هو؛ فهل سيخرجون بهذا الشكل

لتشييعه، ورغم أن جواب الشيخ عبد المحسن السعدون لمليكه كان دبلوماسياً، لكنه يحمل ما في ضميره وضمير كل عراقي من حب صادق واحترام كبير تجاه الشيخ ضاري، حين قال: يا جلالة الملك .. هذا رجل باع نفسه للعراق فاشتراه العراقيون.

ذ- موقف زعماء قبائل الجنوب والفرات الأوسط في البرلمان العراقي :

أصبح الشيخ خميس الضاري عضواً في البرلمان العراقي؛ بعد أن عاد من منفاه عام (١٩٢٩م)، وبقي كذلك حتى قيام (ثورة) تموز عام (١٩٥٨م)، التي أطاحت بالحكم الملكي في العراق، بينما بقي أخوه سليمان الضاري في منفاه، ولم تعفو عنه السلطات البريطانية، ومن ثم السلطات العراقية، وذلك بدفع وتوجيه من البريطانيين، بدعوى أنه شارك في قتل القائد البريطاني الكولونيل لجمان، بالرغم من أن العراق قد أصبح بلداً مستقلاً، ولو شكلياً، وعضواً في عصبة الأمم، وهذا الأمر يدلل على مدى تحكّم البريطانيين في القرار السيادي العراقي، وهو يبرر من جانب آخر سخط الوطنيين العراقيين على تلك الحال، بل نجد ذلك الأمر واضحاً في تعامل الملك غازي رحمه الله مع الواقع الذي من حوله، حتى قضى في واقعة أثارت الريبة في نفوس العراقيين جميعاً، وقد أشارت الوقائع والقرائن بأصبع الاتهام إلى البريطانيين، في حادث موته[1].

في مجلس النواب ثارت ثائرة الشيخ خميس الضاري، مستغرباً العفو الملكي عن العراقيين الذين قاتلوا الاحتلال البريطاني، وعن الذين عارضوا الحكم الملكي، وحمل بعضهم السلاح ضد الدولة، بينما أخوه سليمان الضاري قد عارض الاحتلال البريطاني للعراق، وقاتله بكل شرف وفروسية وبسالة، حين لم تكن هناك دولة أو حكومة عراقية تدافع عن سيادة العراق، وتحمي شعبه ومقدساته، وهو لا يعترض على العفو، لكنه يعترض على ازدواجية المعايير التي بُني على أساسها قرار العفو .

---

(١) أحمد فوزي، عبد السلام محمد عارف.. سيرته.. محاكمته..مصرعه، ص١٣٣.

ما إن رأى نواب الجنوب والفرات الأوسط الشيخ خميس الضاري على تلك الحال من الغضب ؛ حتى هبوا هبة رجل واحد، معلنين وقوفهم معه إلى أن تستجيب الحكومة لمطلبه العادل، وإلا فإنهم سيُعلنون الإضراب تحت قبة البرلمان، وسيُسقطون الحكومة .

بعد هذا الموقف الصلب من رجال العراق الغيارى أصبح الوضع حرجاً جداً، ما دعا رئيس البرلمان للاتصال برئيس الوزراء، وكان حينها السيد ياسين الهاشمي رئيساً للوزارة، فحضر على عجل إلى البرلمان، وخاطب النواب بكلام فيه كثير من المودة والتهذيب قائلاً: إخواني، أبناء عمومتي، أنتم تعرفون أن تلك القرارات هي من سلطة الملك حصراً، ولو كان الأمر بيدي لذهبت بنفسي وأحضرت الشيخ سليمان من منفاه، لكني مع ذلك أعدكم أني سأخاطب سيدنا الملك غازي الآن، وكذلك أعدكم أن الأمور ستسير على الوجه الذي تُحبون .

أمام الموقف الصلب من النواب أصدر الملك غازي رحمه الله أمراً شفوياً إلى وزير الداخلية، يعلمه فيه أنه يأمر بالسماح للشيخ سليمان الضاري بالعودة إلى العراق (هو ومن يحُب)، وكانت تلك العبارة من جلالة الملك التفاتة كريمة، تحمل معان كبيرة وسامية، وتدلل على وطنية الملك غازي، في تجاوزه للخطوط الحمر التي وضعها البريطانيون على القرارات العراقية السيادية، حين شعر بالظلم الذي وقع على أحد أفراد رعيته.

وهكذا عاد سليمان الضاري إلى وطنه العراق، الذي ضحى من أجله، فقاتل دفاعاً عنه، وتغرّب بسبب ذلك، فذاق مرارة الغربة بكل صنوفها، وكانت عودته في عام (١٩٣٦م).

ر- مودة وكرم كبير من الشيخ موحان الخير الله:

الشيخ موحان الخير الله هو شيخ عشيرة الشويلات العربية العريقة والنابهة الذكر، كان نائباً في البرلمان العراقي في العهد الملكي، وهو ما

يزال شاباً في مُقتبل العمر، كان كما وصفه الشيخ خميس الضاري: شيخ الشباب .

في أحد الأيام حضر إلى البرلمان في سيارة حديثة، وكانت السيارات الخاصة في ذلك الوقت نادرة الوجود في العراق، والذين يمتلكونها ربما يعدون على الأصابع من غير رجال السلطة، فبارك الشيخ خميس الضاري له بها، وما كان منه إلا أن أقسم أغلظ الأيمان أنه قرر إهداءها له، لكن خميس الضاري أصر على عدم قبولها، وعندها أقسم بالطلاق أن لا يرد هديته، وهنا قبلها منه على مضض، بعد أن اسقط في يده بسبب شرطه طلاق زوجته إن لم يقبلها، لكنه أضمر في نفسه أمراً أخره لوقت لاحق.

يذكر الضاري: إنه رأى في وجه وعيون الشيخ الخير الله فرحاً غامراً، حين قبل هديته، وكأنه هو من أهدي له شيء كبير، وما أن خرجا من البرلمان حتى استوقف الشيخ موحان وقال له: يا ابن أخي، لقد أقسمتُ بكل الذي أقسمتَ به أني أهديك السيارة التي أهديتني إياها، وأعلم أني أشد فرحاً حين أراك تركبها، فليس هناك من هو أحق منك بها، وهي سيارة تليق بشاب مثلك.

كانت المودّة صادقة، وعفوية، وكان أولئك الرجال يفرحون حين يُعطون، أشد من فرحهم حين يُعْطَون، رحمهم الله جميعاً.

ز- الشيخ خميس الضاري والشيخ موجد الشعلان:

أعتقل الشيخ موجد الشعلان شيخ قبيلة الأكرع الشمّرية؛ في عهد الرئيس العراقي الراحل عبد الرحمن عارف، وذلك في عام (١٩٦٨م)، وقُبيل قيام (ثورة) تموز.

الشيخ موجد هو من الشبانات من عشيرة الخرصا، أي أنه ينتمي إلى قبيلة زوبع نسباً، وتنتمي عموم قبيلة الأكرع إلى شمّر، ففرعان منها هم من زوبع، أما الفرعان الآخران فهما من أسلم وعبدة.

حين علم الشيخ خميس بالأمر ذهب لمقابلة الرئيس عارف، وطلب منه العفو عن الشيخ الشعلان، ذاكراً له صلة الرحم التي تربطه به، ومذكّراً له بوجوب احترام الدولة لشيوخ العشائر، الذين هم سند لها عند الملمّات.

أكد الرئيس عارف له أنه يتفهم كل أسبابه، ويتمنى أن يحقق كل طلباته، لكنه لا سلطة له على القضاء، وكان الرجل صادقاً في كل الذي قاله، ورغم ذلك فقد أخبره أن القاضي الذي بيده القضية هو أحد أصدقائه - يعني الشيخ خميس - ويمكنه أن يحاول معه في ذلك الأمر.

بعد ذلك رجا الرئيس أن يأمر بتحويل الشيخ موجد إلى أي مستشفى بدلاً عن السجن، ليقوم أهله ورجال قبيلته بخدمته، فما كان منه إلا أن وافق عن طيب خاطر، شريطة أن يتم الأمر بالطرق الرسمية، لذلك استنفر الشيخ خميس كل الجهود والعلاقات التي تربطه ببعض الرجال في الدولة العراقية، فحصل على أمر بنقل الشيخ موجد إلى مستشفى الراهبات الخاص في الكرادة وفق توصية طبية، وكان لا يفارقه طيلة الوقت، للاطمئنان عليه، وتسليته في محنته تلك.

اتصل بعد ذلك بالقاضي المكلف بالقضية، وهو أحد أصدقائه المقربين، ليستفسر عن مجرياتها، فأخبره أن القضية شائكة ومعقدة، وأن وزيرين في الحكومة يطالبان بإيقاع أقسى العقوبات بالشيخ موجد، بل أكثر من ذلك فهما يطالبان القضاء بإصدار عقوبة الإعدام بحقه، مما أحزنه كثيراً، فصار لا يقر له قرار، وصار يدور على كل معارفه في الحكومة العراقية محاولاً ثني الوزيرين عن قرارهما.

خلال تلك الأيام الشديدة الوطء على الشيخ خميس حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ قامت (ثورة) السابع عشر من تموز عام (١٩٦٨م)، فانقطعت أخبار الشيخ موجد عنه، وهو يتحرق ألماً خشية على حياته، وحين عرف أن قائد الثورة هو الرئيس أحمد حسن البكر طلب مقابلته، وكانت بينهما صلات مودة، وكذلك له عليه يد معروف، فقد توسط له في العهد الملكي حين كان نائباً في البرلمان، ليُقبل في الكلية العسكرية، حين كان البكر معلماً في مدرسة بمضارب زوبع.

بعد أن قابل الرئيس الراحل أحمد حسن البكر أخبره عن تفاصيل قضية الشيخ موجد، وذكّره أنهم مسؤولون عن حياة جميع العراقيين، بعد أن غدت السلطة بأيديهم، فوعده الرجل خيراً، وقد برّ بوعده، حين أخبره من خلال الهاتف أن الشيخ موجد قد أُطلق سراحه، وهو ربما في بغداد، أو أنه قد عاد إلى أهله في الدغّارة بمحافظة الديوانية.
لم يكن الشيخ خميس مطّمئناً إلى كلام الرئيس البكر، فهو رغم ثقته بأخلاقه وصدقه؛ بيد أنه يخشى أن تكون المعلومات التي لديه غير دقيقة، وبخاصة في مثل تلك الظروف، لكن مكالمة هاتفية جاءته من فندق كراند في الكرادة؛ وإذا به الشيخ موجد على الطرف الآخر يزف له بُشرى الإفراج عنه، فما كان منه إلا أن هب للقائه، ليطمئن عليه.

س- الشيخ خميس الضاري والشيخ خوام العبد العباس:

الشيخ خوام العبد العباس شيخ قبيلة الأزيرج العربية المعروفة، تربطه علاقة صداقة ومودة بالشيخ خميس الضاري، وفي أيامه الأخيرة في الحياة مرض مرضاً شديداً، وعندما زاره صديقه الضاري وجد أن حالته تستوجب إدخاله المستشفى، وهذا كان رأي عائلته، لكنه كان يرفض بشدة دخول المستشفى، وحين طلب منه الشيخ خميس أن يستجيب لطلب أهله لم يمانع تقديراً واحتراماً له .

تم نقله إلى مستشفى الراهبات، في الكرادة الشرقية ببغداد، لكن الأطباء وجدوا بعد يوم واحد من إجراء الفحوص أن حالته ميئوس منها، والأولى أن يرتاح في البيت، وخصصوا له بطلب من الشيخ خميس ممرضة للسهر على صحته، وإعطائه حقن المهدئات عند الحاجة لها، وفي اليوم التالي ذهب لعيادته في البيت، وما أن دخل عليه حتى نادى: أخي .. أبا ظاهر .. لدي معك كلام رأس - سر - فقرب رأسك مني. وحين قرب أذنه ليسمعه جيداً، وجده يقبله ويقول: الوداع يا أخي الوداع. فلم يتمالك خميس عواطفه، وكان شديد التعاطف والتفاعل مع جميع الناس في أحزانهم، فكيف مع صديق العمر، والرجل الذي يفتقده أمثاله

من علية القوم وخيّريهم، فعانقه، وقبله، وأجهش في بكاء مر، ثم هون عليه إحساسه بشدة المرض، وواسى توجعه وآلامه، ثم ودعه وغادر.

يقول الشيخ ظاهر خميس الضاري الذي يرافق والده حينها: سألت والدي عن سبب استعجاله في المغادرة، فأخبرني قائلاً: الأعمار بيد الله، لكن عمك خوام ربما على وشك الرحيل، كما توقع الأطباء، فوددت أن أخلي المكان لعائلته وأقاربه ليسلموا عليه .

ويروي الشيخ ظاهر: الأمر لم يطل كثيراً، فقبل غروب شمس ذلك اليوم اتصل ابنه الأكبر بوالدي حال وفاته رحمه الله، وأبلغه الخبر، فشاهدت والدي وهو يرد على الهاتف تسيل دموعه، ثم وضع الهاتف من يده وهو يقول: جهز نفسك للذهاب إلى بيت عمك خوام. فكنا أول الحاضرين هناك .

ش- الشيخ خميس الضاري مع الشيخ محروت الهذال:

الشيخ محروت الهذال شيخ قبيلة عنزة العربية المعروفة وهي أحدى قبائل البادية الثلاث المشهورة، وهو يُعد خالاً للشيخ ضاري، فوالدة ضاري هي من عشيرة الغبين العنزية، وقد اكتسب كثيراً من صفاتهم الخَلْقية، وسجاياهم الحميدة، رغم أن قبيلة عنزة كانت تُعد نداً لقبيلة شمّر على الدوام لأسباب سياسية قبلية ولأسباب جغرافية أيضاً؛ لكن ذلك لم يمنع كثيراً من المصاهرات بين الطرفين، والتي أدت في نهاية المطاف إلى مد جسور الألفة والمودة بين الطرفين .

يشهد لذلك ما نُقل لنا عن أكثر من مصدر .. الموقف السامي والكريم من الشيخ محروت الهذّال رحمه الله حين حضر حفل افتتاح مصفى الدورة عام (١٩٥٣م)، وقد دُعي إلى ذلك الحفل الشيخ خميس الضاري أيضاً، وعدد كبير من شيوخ العشائر، وحين حضر الشيخ محروت الهذّال إلى الحفل كان المفترض به أن يُسلّم على الملك، ثم على رئيس الوزراء، لكنه توجه للسلام على الشيخ خميس، ثم بعد ذلك عاد وسلّم

على الملك ورئيس الوزراء، ولم يغب ذلك المشهد عن نظرات رئيس الوزراء نوري باشا السعيد، الذي بقي يراقب المشهد بكل دقة وانتباه.

ص- الشيخ خميس الضاري والشيخ شعلان أبو الجون:

عام (١٩٩٠م) طلب مني الشيخ خميس أن أرافقه في زيارة لتفقد أحوال بناته في خان ضاري، والسلام عليهن بمناسبة العيد، وهذا كان ديدنه، رغم أن عمره قد جاوز التسعين بكثير يوم ذاك، وكعادته فهو يمر للسلام على أبنته الكبرى أولاً.

كانت أبواب البيت مشرعة لاستقبال الزائرين من الأهل والأقارب بمناسبة العيد، فدخلنا البيت ووجدنا أكثر الحاضرين منشغلين بمتابعة التلفاز، وما أن سمعوا والدتهم تحيي والدها حتى هب الجميع صغاراً وكباراً للسلام عليه، وحاول أبنها الأكبر أن يعتذر من جده قائلاً: كنا منشغلين بمتابعة برنامج في التلفاز، ولكي يرفع الكلفة والحرج الذي رآه عليه وعلى الحاضرين تباسط معه في الكلام، وبدأ يسأله عن مادة البرنامج، وعن ماذا تتحدث، فقال له: إنه يتحدث عن شعلان أبو الجون، حينها قال: والنعم، يستأهل، هذا من الكبار.

دُهشت ابنته لمّا سمعت مقالة والدها، وبدافع غريزة حب الأبناء لآبائهم واعتزازهم بهم وبخاصة البنات منهم .. تساءلت باستغراب: وهل هناك أكبر منك يا أبي. فما كان منه إلا أن رد عليها بكلام جاد وواضح: إستغفري يا ابنتي، هؤلاء كبار .. هؤلاء كبار، وأرجو الله أن يهب والدك حظاً مثل حظهم.

ض- الشيخ محمود سليمان الضاري مع ألبو ناصر:

في منتصف تسعينيات القرن المنصرم حضر إلى منزل الشيخ محمود الضاري شخص عرّف عن نفسه بأنه أحد أخوة السيد صابر التكريتي مرافق الرئيس صدام حسين، فقام له بواجب الضيافة، بعد أن

دعا كبار العائلة للترحيب به، وكذلك لكي يتشاور معهم في سبب الزيارة غير المتوقعة، وكان الرجل في غاية الأدب والتواضع والتودّد إلى الحاضرين، حتى لا يخال القادم أنه ضيف، بعد أن وجد المودة والبساطة من قبل الجميع، وبكل عفوية، وانطلق في أحاديث شيّقة، جلها عن أهل تكريت، والمواقف الطريفة التي رآها وسمعها عنهم، واستمر السمر معه ساعات طويلة، وحين قرر الانصراف قال مخاطباً الشيخ محمود: عمي والله ليس بودي مفارقتكم، وللحقيقة لم تكن لدي أدنى فكرة بأنكم على هذه الحال من التواضع والبساطة .

لاحقاً عرفنا من الشيخ محمود أن الرجل له خلاف مع أبناء عمومته وأصهاره عائلة عبد الرشيد، وأن مقاليد الأمور في قضيته بيد الفريق ماهر عبد الرشيد، الذي رفض وساطة أحد في تلك القضية، حتى وإن يكن الرئيس صدام حسين، وهنا أشار عليه بعض حكماء ألبو ناصر أن يذهب إلى آل الضاري، لأن لا أحد من عموم التكارته يرد لهم طلباً، لذلك جاء الرجل إلى الشيخ محمود على غير موعد أو معرفة مسبقة.

ط – الشيخ ظاهر الضاري مع عشيرة الحديدين:

في عام (٢٠٠٩م) زار نخبة من أعيان عشيرة الحديديين الشيخ ظاهر خميس الضاري، وكانوا بصحبة الحاج سالم أحمد مهاوش أحد أعيان قبيلة زوبع، ولأن أولئك الرجال على علاقة قديمة تربطهم بالحاج سالم فقد طلبوا أن يرافقهم في زيارة الشيخ ظاهر وبعد أن قام لهم بواجب الضيافة، فما كان منه إلا أن لبى رغبتهم مصطحباً إياهم إلى مضيف الضاري.

بعد ترحيب حار من لدن الشيخ ظاهر وهي عادته مع كل ضيف؛ قام إليه أحد الضيوف وعقد طرف غترته - كوفيته – مخبراً إياه سبب قدومهم، إذ ذكر له أن مجموعة من رجال الحديديين يبلغ عددهم خمسة عشر رجلاً قد حُكم عليهم بالإعدام، بتهمة مقاومة المحتل الأمريكي، وقد

شدد الأمريكان على الجانب العراقي بوجوب إيقاع الحكم عليهم دون تراجع.

علم الشيخ ظاهر من ضيوفه أن القاضي الذي سيبتّ بالحكم بعد الاستئناف هو القاضي الشيخ أحمد الذرب الزوبعي، وعلم أيضاً أن حكم الاستئناف سيصدر في اليوم التالي.

قام الشيخ ظاهر من فوره بعد أن علم بضيق الوقت المتبقي قبل النطق بالحكم عليهم وهو ساعات؛ فاصطحب ضيوفة ميمماً وجهه شطر بيت القاضي أحمد الذرب، وكان يرى أن الأمر يشُبه ضرباً من ضروب المستحيل، لكنه ما إن وصل مع ضيوفه إلى بيت الذرب حتى انشرحت أساريره بعد سماع رد القاضي الذرب حين قال له: إنني أستعد الآن للذهاب إلى الموصل حيث سأنطق غداً بالحكم على أولئك الرجال، وقد شدد الجانب الأمريكي على أيقاع الحكم الأول الصادر بحقهم، لأن الجانب الأمريكي لديه أدلة دامغة تدينهم بأنهم قد أوقعوا خسائر فادحة في القوات الأمريكية، وأنا أعلم وبكل ثقة أن الأمريكان سيعتقلونني أو في أقل تقدير سيطردونني من الوظيفة إن خالفت إرادتهم، لكنني أعدك ياشيخ بأني لن أفعل غداً إلا ما يرفع رؤوس زوبع، ويقر عيونكم.

كان الحديديون ينتظرون جثامين أبنائهم في اليوم التالي، لكن أبناءهم عادوا إليهم سالمين، بعد أن وعد الشيخ الذرب فوفى، وأمر بإطلاق سراحهم رغماً عن قرار الأمريكان القاضي بإيقاع حكم الإعدام عليهم، ورغم أنه كان يعلم عاقبة الأمور بالنسبة لوظيفته كقاضٍ، وقد صدق حدسه، أذ أمر الأمريكان بنقله من مركزه الذي هو فيه إلى مكان آخر.

لكن الرجل قرر منذ البداية أن لا مجال للاختيار في ذلك الأمر، وأن اختياره هو خياره الوحيد وهو سمعة وتاريخ قبيلته أولاً، وهكذا كتب في سفر تاريخه وتاريخ زوبع ما يتشرّف به كل أبناء زوبع، وكل عراقي أصيل.

ثانياً- علاقة زوبع بمكونات الشعب العراقي الأخرى:

العلاقات التي تربط بين قبائل العراق ليست بمعزل عن علاقاتهم بمكونات الشعب العراقي الأخرى، فأبناء العراق متميزون في علاقاتهم التي اتسمت بالحب والمودة، وغيرة بعضهم على البعض الآخر، ولم تكن زوبع في علاقاتها بدعاً عن سواهم، إن لم يكونوا متقدمين على غيرهم في ذلك، ولتوصيف تلك العلاقات نذكر جانباً من الشواهد التي تبين ذلك:

أ- علاقة زوبع بالكرد:

وصف الشيخ حارث الضاري علاقة العراقيين فيما بينهم توصيفاً دقيقاً وجميلاً، حين طلب منه بعض إخوته في هيئة علماء المسلمين زيارة القادة الكرد، وبمشورة من الدكتور إياد السامرائي رئيس الحزب الإسلامي العراقي، وكان جوابه للشيخ عبد السلام الكبيّسي نائب الأمين العام للهيئة الذي نقل له رغبة السامرائي: ولدي سلام أنا لن أزور أي فريق من قادة العملية السياسية، ومن يأتي إلينا فمرحباً به، ولي أسبابي الحقيقية والمنطقية، كما أننا إن زرنا الكرد وهم إخواننا في الدين والمذهب وشركاؤنا في الوطن؛ سيظن إخوتنا (الشيعة) وهم إخوتنا في الدين والعروبة وشركاؤنا في الوطن أيضاً.. أننا طائفيون، انحزنا إلى طائفتنا، وأنا على يقين أن الذين لا يحبون العراق ولا يتمنون لأهله الخير؛ سيدفعون الشارع الشيعي بهذا الاتجاه، لذا لا أجد أدنى مصلحة للعراق في هذه القضية[١].

هذا الموقف من الشيخ حارث لم يكن موقفاً آنياً، مدفوعاً برؤية مرحلية، إنما هو رأي ينبع من قناعة تامة، جسّدها قولاً وفعلاً في كل صعيد ومحفل تذكر فيه علاقة الكرد بإخوتهم العرب، ومن تلك المواقف التي تؤكد ما نذهب إليه ما رأيته في نادي الصيد ببغداد، حين دُعي

---

(١) عبد الحكيم الضاري، الشيخ حارث الضاري كما عرفته شهادة للتاريخ، ص٣٧-٣٨.

الشيخ حارث إلى حفل أقامه تجمّع عراقي أطلق على نفسه أسم (تجمع أبناء ثورة العشرين)، وفي ذلك الحفل استنّكر الشيخ على القائمين على الحفل عدم دعوة إخوتهم الكرد إليه، وذكّرهم بأن الكرد أول من ثاروا من العراقيين على المحتل البريطاني في ثورة العشرين، وكان يقودهم في تلك الثورة الكبيرة الشيخ القائد محمود الحفيد، وقد كبّدو البريطانيين فيها خسائر جسيمة .

لم يُعجب كلامه بعض الحاضرين من العرب العنصريين، والذين لم يكن تجمّعهم لأحياء ذكرى الثورة؛ بقدر ما هو تجمّع سياسي له مآرب سياسية مصلحية، وقد فطن الشيخ لذلك الأمر، فأعطى أمره لمن يرافقه بمغادرة الحفل فوراً[١].

مواقف الشيخ حارث تلك لم تكن وليدة رأي شخصي، أو مصلحة سياسية آنية، إنما هي مبنيّة على اعتقاد راسخ، نابع من تراث وتاريخ ورثه عن آبائه وأجداده، تمثّلت واقعاً يحفظه ويحافظ عليه أبناء زوبع، ويعملون على صيانته وتعزيزه، تحت جميع الظروف، ودلالات ذلك وشواهده معروفة مشهورة، ونذكر هنا بعضاً منها وهي:

١- أكراد(كرام) زوبع:

أكراد أو (كرام) زوبع كما سماهم الشيخ ظاهر المحّمود .. إحدى عشائر زوبع، وهم من أصول كردية، تحالفوا مع قبيلة زوبع، وتصاهروا معهم، حتى انصهروا في بوتقة زوبع، فكانوا أبناء بررة، كشفت الخطوب والمحن طيب محتدّهم، وكريم خصالهم، فنالوا وصفاً دقيقاً لحالهم من والدهم شيخ زوبع ظاهر المحّمود، حين سماهم (كرام زوبع)، وكانوا بكل صدق كراماً.

---

(١) ينظر: عبد الحكيم الضاري، المرجع السابق، ص٣٥-٣٧.

كان كرام زوبع وشيجة أخوّة مضافة إلى الوشائج التي ربطتهم بإخوتهم العراقيين، وهكذا كانت زوبع أيضاً حلقة وصل ما بين العرب والكرد، تزداد عُراها بمرور الوقت، وقد مر علينا ذكر منقبة من مناقب كرام زوبع، التي مثلها خير تمثيل ذلك الفدائي خضر الناصر، خلال حديثنا عن علاقة زوبع بقبيلة الدليم.

٢- زوبع الأكراد:

(زوبع الأكراد) كما يسميهم عامة زوبع هم فخذ من عشيرة السعدان من زوربع، هاجر جدهم الأكبر إلى كركوك، واستوطنها، فكان زوبع الكرد ذريته، وهم ينتشرون في مناطق كركوك، ومركز تجمعهم الرئيس منطقة (ياي جي)[1]، وهم يعرفون أصل نسبهم، ويتواصلون مع إخوتهم في النسب زوبع، لكنهم اجتماعياً أصبحوا جزءاً من المجتمع الذي يعيشون فيه، وأصبحت لغة أبنائهم اللغة الكردية، بعد أن تصاهروا مع الكرد، وأخذوا عنهم جميع مظاهر الحياة التي يحيوّنها.

تميزت زوبع عن غيرها من قبائل العراق كما أسلفنا القول، فأكراد زوبع وزبع الأكراد أشبه ما تكون بلغز لغوي، قل أن تجده عند أحد من القبائل، والذي تجده عند قبيلة زوبع، فيعتزون ويفخرون به.

٣- وساطة الشيخ خميس الضاري بين الحكومة والقيادة الكردية:

زوبع مشيخة وأفرداً همهم الأكبر وطنهم العراق، لا يهدأ لهم بال، أو يطيب لهم عيش، والبلد على شفير خطر داهم، أو خلاف بين أبنائه، ومن تلك الخطوب التي أقضّت مضجع زعيم زوبع الشيخ خميس الضاري الخلاف الذي حصل بين الملا مصطفى البارزاني وحكومة بغداد، في عهد الرئيس الراحل عبد السلام محمد عارف، والذي تربطه علاقة رحم بالشيخ خميس، من جهة والدته الزوبعية، وهو يكنّ للشيخ احتراماً ومودة

---

(١) ياي جي: بجيم معجمة، وهي إحدى مناطق محافظة كركوك العراقية .

كبيرتين، ويفتخر بخئولة زوبع له، لذلك يعامل ويخاطب الشيخ خميس بتلك الصفة.

حاول الشيخ خميس أن يكون أحد الساعين في حل الخلاف بين الحكومة وبين الكرد، أو تقريب وجهات النظر على أقل تقدير، لتجنيب البلد القتال، وسفك دماء أبنائه، فعرض على الرئيس عارف الوساطة بين الطرفين، وقد رحب بالفكرة، لأنه يعرف صدق الشيخ خميس ونزاهته، وغيرته على بلده، إضافة إلى معرفته بأن العراقيين جميعاً يكنّون له كل الاحترام والتقدير، على اختلاف قومياتهم وأديانهم وطوائفهم، وطلب أن يمهله بعض الوقت، يراجع خلاله مستشاريه، الذين لم ينكروا جدوا الفكرة، لكنهم أشاروا على الرئيس أن الشيخ خميس ليس طرفاً دولياً يمكن أن يضمن تصرفات الطرف الآخر فيما لو غير الكرد رأيهم في كيفية التعامل مع الدولة لاحقاً، وهكذا وأد هؤلاء المستشارون الفكرة قبل أن ترى النور.

عندما أراد الرئيس عارف بسط سلطة الدولة على كركوك بعد هجمات من ثائرين كرد على طريق كركوك بغداد، وعلى آبار النفط، نصحه الشيخ خميس بأن لا يزج الجيش في هذه المهمة، لأنها ستوسع دائرة النزاع بين الطرفين، وتُصبح نواة لحرب بينهما، تؤلب الكرد جميعاً على السلطة، والخاسر الأكبر فيها العراق، بلداً وشعباً، فاقترح الرئيس عارف إرسال أبناء بعض القبائل التي لها علاقات جيدة مع الكرد لحماية الطريق، كي لا يثيروا حفيظة الكرد فيما لو أرسلوا قطعات عسكرية، وطلب من الشيخ خميس أن تكون زوبع من بين تلك القبائل.

اشتركت زوبع في قوة الحماية تلك، عام (١٩٦٣- ١٩٦٤م) وكان وجودها هناك سبباً في استتباب الأمن، وكذلك إظهار الصورة الحقيقية للتعايش السلمي بين العراقيين، فكسبت بسمو أخلاق رجالها تعاطف ومحبة إخوتهم الكرد.

ب- علاقة زوبع بمسيحيي العراق:

بعد المشاكل التي حدثت بين الأرمن والحكومة التركية نزح كثير منهم إلى الدول العربية، ومنها العراق، فاستقبلت زوبع أولئك الذين لاذوا بحماها، وألحق كثير من رجال زوبع هؤلاء القادمين بعشائرهم وعائلاتهم، وحمل قسم منهم أسماء تلك العائلات، وتعاملوا معهم كما يتعاملون مع أبنائهم، وتلك شيّمهم في كل وقت، ومع كل الناس، ويعرف كثير من كبار السن من الأرمن في تركيا تلك الروح الإنسانية السامية التي يمتلكها الشيخ ضاري، حين كان لاجئاً في تركيا، وهو يقف بالضد من السلطات التركية حين يتعامل بعض ضباطها تعاملاً غير إنساني مع المعارضين الأرمن، وكم من إنسان كُتبت له الحياة على يده، وهو يستنقذهم من أيدي أولئك الضباط، الذين يهابونه ويخشونه، وكثير منهم يكن له الاحترام والتقدير، لمعرفتهم باحترام الدولة التركية له، لرمزيته القبلية الكبيرة، كأحد مشايخ قبيلة شمّر الكبيرة، ولموقفه الكبير والمتميز في القتال إلى جانب الدولة العثمانية في أشهر وأهم معاركها، في سلمان باك، وفي معركة الكوت الشهيرة ضد البريطانيين، والتي تُعد ثاني أشهر معارك الدولة العثمانية على مدى تاريخها.

حين أقام الشيخ ضاري في تركيا لاجئاً؛ وهبته الدولة التركية مقاطعة في ولاية ديار بكر وفي منطقة كفر توثة تحديداً، فكان وكلاؤه على تلك المقاطعة من المسيحيين الأرمن، وكذلك العاملون في زراعتها أيضاً، وبعد أن ألقي القبض عليه من قبل الانكليز ثم مات بعد فترة قصير في السجن؛ بقيت تلك المقاطعة بيد أولئك القوم الذي وكّلهم بها، وقد حضروا إلى بغداد والتقوا بالشيخ خميس الضاري ليعلمونه بأمر الأرض، سيما وأنها أرض كبيرة المساحة، لكنه لم يذهب إلى هناك هو ولا أي أحد من عائلة الضاري لمتابعة أمرها، وبقيت بيد أولئك القوم حتى هذه اللحظة.

كان بيت الشيخ خميس في العاصمة بغداد وما يزال في منطقة كرادة مريم، ذات الغالبية المسيحية، وكان جيرانه من المسيحيين يعدونه والداً، وأخاً كبيراً، يلجئون إليه في كل أمورهم، في الأمور العائلية، وحتى في الخلافات الشخصية فيما بينهم، وقد درس أبناؤه الأصغر سناً في مدارس خاصة مسيحية في كرادة مريم ببغداد.

جسّد كثير من الأخوة المسيحيين أنبّل معاني الأخوّة تجاه قبيلة زوبع، سواء على المستوى الشخصي، أو المستوى الجمعيّ، القبلي والوطني على السواء، وغير بعيد عن الذاكرة موقف العراقي المسيحي بهنام اليوسفي، أحد المشاركين في العملية السياسية بعد الاحتلال، والمنضوي تحت قائمة الحوار بزعامة الدكتور صالح المطلق، ففي مؤتمر القاهرة للمصالحة الوطنية عام(٢٠٠٤م) وقف هذا الرجل إلى جانب الشيخ حارث الضاري في موقفه المناهض للاحتلال، رغم اشتراك القائمة التي انتسب إليها في العملية السياسية، ولام الكثير من قيادات تلك العملية السياسية لمهادنتهم للمحتل، ما جعل بعض الحاضرين من أطراف العملية السياسية أن يهددوا اليوسفي بالشكوى ضده لدى البابا، وهنا قام الرجل من مجلسه في صفوف الحكومة، وجلس إلى جوار الشيخ الضاري، في صف معارضي الاحتلال، وخاطب الذين هددوه قائلاً: أشكوني عند من تشاءون، فأنا عراقي، وبابا العراق هو حارث الضاري[١].

حمل الشيخ حارث في غربته بعد الاحتلال هم العراقيين جميعاً، وقد آلمه كثيراً ما تعرّض له المسيحيون من اضطهاد وتهجير، شأنهم شأن كثير من العراقيين، وهو لا يفرّق بين عراقي وعراقي آخر، تحت أي مسمّى، وبقي حتى أيامه الأخيرة يتحدث ويعمل وفق ذلك المنظور، فكانت آخر حملة وجهها لتقديم العون للمهاجرين العراقيين موجهة

---

(١) عبد الحكيم الضاري، الشيخ حارث الضاري كما عرفته شهادة للتاريخ، ص١١٠.

للأخوة المسيحيين، وقد انتقل إلى جوار ربه وهو يسعى بكل جد لإنجاحها، لذلك أطلق عليها أسمه وقد بدأت بعد أيام من وفاته[١].

وهنا نذكر أيضا جانباً من جوانب روح التسامح الديني والمذهبي الذي تميزت به زوبع، ومن ذلك وجود مقبرة كبيرة أقامها الأخوة المسيحيون بين ظهرانيّ زوبع، في خان ضاري.

ت- علاقة زوبع بالصابئة :

لم تكن علاقة زوبع بالصابئة بمعزل عن تلك العلاقات التي تربطها ببقية العراقيين، قبائل، ومكونات أخرى، وشواهد ذلك يعرفها أغلب أبناء طائفة الصابئة التي تسكن بغداد، أو أبو غريب، وكان كثير منهم في بغداد يعملون في تجارة الذهب والمصوغات، فنشأت من خلال تعاملهم مع أبناء زوبع علاقات صداقة ومودة، وأذكر من هؤلاء السيد موسى شلتاغ، الذي يعرفه أغلب أبناء أبو غريب منذ خمسينيات القرن الماضي، نتيجة التعامل معه، وكان الرجل صديقاً حميماً لعائلتنا الكبيرة، وبخاصة والدي .

في عام (١٩٩٠م) أصيب والدي بحادث سيارة، ورقد على إثره في مستشفى اليرموك في بغداد، وبعد يومين توفيّ عند الفجر، وقبل أن يصل أحد من أفراد عائلتنا الذين اتصلت بهم؛ حضرت سيدة لم أكن أعرفها سابقاً، وقد عرّفتني بنفسها أنها: فوزية موسى شلتاغ. فعرفت من تكون حين ذكرت أسم والدها، وأخبرتني أنها مديرة الإدارة في المستشفى، وكانت على علم بحالة والدي، لذلك طلبت من الموظفين الخافرين الذين في معيتها أن يبلغوها بأي شيء يخص حالته، وفي أي وقت، لذلك ما أن أبلغوها بوفاته حتى حضرت قبل ساعات من بداية الدوام الرسمي، وأبلغتني أن: (يدخل كل من يحضر من أهلنا).. إلى قاعة خصصتها لجلوسهم، لكني شكرتها على صنيعها، وذكّرتها أن في ذلك

---

(١) عبد الحكيم الضاري، المرجع السابق، ص٤٨.

مسؤولية قانونية عليها، لأن الرئيس الراحل صدام حسين كان قد أصدر قرارات متشددة تمنع الزيارات الخاصة للموظفين في دوائر الدولة جميعها، وقد يعاقب المخالف بالطرد من الوظيفة، فما بالك والسيدة فوزية جعلت المستشفى مضيفاً (لأهلها) زوبع، لكنها وإمارات الحزن بادية عليها بكل صدق قالت: رجائي أن لا تعيد هذا الكلام مرة ثانية، فأنا أجد ما أفعل براً بوالدي وأنا أفعل ذلك مع والدك، لأنه من أعز أصدقائه، وربما أنك قد لا تعرف ما تعنيه عائلة الضاري بالنسبة لنا، ولتذهب الوظيفة إلى الجحيم مقابل أن أقوم بواجبي تجاههم.

مر على ذلك اليوم ما يقارب الثلاثة عقود من الزمن وكلمات فوزية ما زالت تملأ مساحة واسعة من ذاكرتي المتهالكة، وتملأ قلبي وضميري.

لأن أبناء الصابئة يعرفون لزوبع تلك الشيم والخصال الكريمة بادلوهم الحب والمودة، ومن ثم ساكنوهم ديارهم، فبعد وقوع الحرب مع إيران نزح كثير من أبناء الصابئة من جنوب العراق إلى بغداد، بسبب الأعمال العسكرية في المناطق التي يسكنوها، وكذلك بعد حرب الكويت وما نتج عنها من تداعيات في البنية الاجتماعية في العراق، فكانت أبو غريب ملاذاً رحيباً لهم، والتي تُعتبر معقل زوبع.

وكما أن للمسيحيين مقبرة في مضارب زوبع، فإن للصابئة مقبرة أيضاً، وهي المقبرة الوحيدة لصابئة بغداد، ولا تبعد تلك المقبرة عن بيت الشيخ ظاهر خميس الضاري شيخ زوبع سوى عشرات الأمتار، قريباً من سجن أبو غريب الشهير.

ث- علاقة زوبع بالطائفة اليزيدية:

كما هو معروف أن موطن اليزيدية في العراق هو بادية الموصل، وهم يجاورون قبيلة شمّر، ونشأت بين الطرفين علاقات جوار طيبة، ومودة، وقد لا تميز أحياناً بين أحدهم وصاحبه من شمّر، للخلطة

والتواصل الكبير والدائم بينهم، وقامت بين الطرفين عهود ومواثيق وتحالفات منذ عام (١٨١٨م)، فتحالفت عشائر السمّوقي وهي أكبر وأقوى عشائر اليزيدية مع زوبع، وكان الشيخ داود الداود شيخ عشائر السمّوقي على علاقة وطيدة بمشايخ زوبع، ولأن السمّوقي يسكنون قمة جبل سنجار .. كانوا في منأى عن السلطة، لذلك فإن الذين يفرون من وجه السلطة من زوبع يلوذون بحمى عشائر السمّوقي معززين مكرمين حتى يكتب الله لهم فرجاً.

ويذكر كبار السن من رجال اليزيدية بفخر استقبالهم للشيخ ضاري في جبلهم - سنجار- وهو في طريقه إلى تركيا متوارياً عن أعين البريطانيين، وقد وثّقوا تلك الزيارة في صور فوتوغرافية، لم يسعفنا الحظ في الحصول عليها.

تلك العلاقة دامت وتجذّرت بين الطرفين، ونرى آثارها الطيبة في العلاقة المتميزة بين أمير الطائفة اليزيدية الأمير أنور معاوية وأبناء عائلة الضاري، وبخاصة مع الشيخ حارث الضاري، ويمكن أن نتلمّس بكل وضوح معاني تلك المودة والثقة بالآخر في كلمات إهداء كتابه عن الطائفة اليزيدية للشيخ حارث الضاري في نهاية المبحث.

ثالثاً- علاقة زوبع بالمرجعيات الدينية:

كانت زوبع ومنذ أن نشأت تستلهم أعرافها وتصدر في مواقفها عن فهم عميق لمعاني الدين الإسلامي الحنيف، وثوابت العرب، وأخلاقهم الحميدة، وجسدت ذلك في حبها لدينها، وذودها عن مقدساته، وتماهيها مع مصالح بلدها حد نكران الذات، وإطاعتها لولاة أمورها إن حكموا بما يرضي الله، وكذلك احترامها لعلماء الدين.

قاتلت زوبع مع الدولة العثمانية في معاركها ضد البريطانيين في العراق بدوافع دينية ووطنية، رغم أنها لم تكن على وئام تام معها في

أحيان كثيرة، وعلى مدى وجود زوبع في العراق، فهي تتناسى أي خلاف لها معها حين تجد أن العراق في خطر.

هذا الحس الديني والوطني تبنّته زوبع بكل حزم وقوة بعد أن سقطت الدولة العثمانية، واحتل البريطانيون العراق، وأصبح المرجع الذي تأتمر بأمره وتترسم خطاه هم علماء الدين، بعد أن كانت تأتمر بأمر الدولة، يظهر ذلك من خلال أقوال الشيخ ضاري في كل المحافل التي وقف فيها صوتاً من أصوات أبناء العراق المخلصين، وفي كل الساحات فعلاً صادقاً ومؤثراً، وهو الذي أكسبه سخط وغضب المحتلين.

في أول لقاء للقائد البريطاني الكولونيل لجمان مع شيوخ لواء الدليم كان صوت الشيخ ضاري هو الأعلى، فأفحم ذلك القائد، ورد كل الشبه التي أوردها في كلامه للحاضرين، باختلاقه قصص من نسج خياله المريض، حين أدعى أنهم في حيرة من أمرهم، لأنهم لا يعرفون هل يعطون الحكم للشيعة أم للسنة، يوم لم يكن يخطر في بال وفكر أي عراقي تلك المسمّيات إلا على سبيل التعبد بها، وقد جابهه بكل قوة وإصرار حين قال له: قلت لك دع هذه النغمة، فليس في عراقنا شيعة أو سنة، وإن علماءنا حكومتنا، وقد أمرنا القرآن الكريم بإطاعة الله ورسوله وأولي الأمر منا، فإذا اعتديتم عليهم فإننا سننتصر لهم، ونحاربكم بجانبهم، والأولى أن تلبوا ما أرادوا. ومن الشواهد التي تدلل على ما ذهبنا إليه:

أ- الشيخ ضاري مع الإمام الشيرازي والسيد الشهرستاني:

كان الشيخ ضاري متحفزاً لقتال البريطانيين منذ اليوم الأول لدخولهم بغداد، وقد رحل إلى الأنبار ليقاتل مع الشيخ حردان ألبو عيثة في الرمادي، ويمنعوا سقوطها بأيدي البريطانيين، وقد زاده إصراراً على المواجهة معهم ورود الأنباء عن فتوى الإمام الشيرازي التي وجهها لمسلمي العراق يحثهم فيها على الجهاد.

عندما تراجع زعماء الثورة من الحسينية في كربلاء، حلّوا في الوند، وسيطروا على الجانب الغربي من المسيّب، ثم اجتمع مجلسهم الحربي، وفيه أجمعوا على إيفاد المجاهد الثائر جدوع أبو زيد إلى منطقة الدليم، لتحريض عشائر زوبع على الثورة.

رحل أبو زيد في الثلث الأخير من تموز (١٩٢٠م) حاملاً معه كتاب الإمام الشيرازي وفتواه، وكتاب السيد الشهرستاني، الذي يعزز فيه معنويات الثوار، وفي حمى زوبع اجتمع برئيسها الشيخ ضاري، الذي أخبره أنه بادر إلى قتال البريطانيين قبل أن تصله فتوى الشيرازي، وأن الثوار يراسلونه، وكان منهم الشيخ عبد الواحد السكر، وما أن سلمه أبو زيد الكتابين حتى وضعهما على رأسه، احتراماً وتقديراً، ثم أخبر أبو زيد بأنه: إنني عربي، ووطنيّ، وعراقي، وها أنا ذا أعاهد الله أولاً، ثم أعاهدك ياجدوع، نيابة عن إخواننا الثوار، بأن أبذل النفس والنفيس في سبيل مصلحة بلادي ضد الطامعين .. وليقر العلماء وإخوتي الزعماء عيناً، لأني باسم الله سأعمل، وسترون أعمالي، وإني لأرجو أن يرضى الله، وأن ترضوا عنها .. إن شاء الله[١].

ب- الشيخ ضاري مع السيد محمد الصدر:

بعد أن قمع البريطانيون الثورة غادر الشيخ ضاري كربلاء، برفقة السيد محمد الصدر وجمعاً من قيادات الثورة، قاصدين النجف، فوقعوا أسرى في براثن مجموعة من إحدى العشائر، كانت بينها وبين قبيلة شمّر ثارات، وتعرّفوا على شخصية ضاري وابنه سليمان الذي يرافقه، فأيقن أن أولئك الرجال قاتلوهم لا محالة، عندها أخبرهم أن الرجال الذين معه هم من السادة الأشراف، وفيهم السيد محمد الصدر، وهم أبناء رسول الله، فإن شاءوا أن يطلقوا سراحهم، ويأخذونه هو وابنه لأنهما بُغيتهم، وبالفعل فقد أطلق الآسرون سراح السيد الصدر، واحتجزوا الشيخ ضاري وابنه، لكن زمرة طيبة من أبناء عشيرة المجموعة التي أسرته

---

(١) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٣٥-٣٧.

وأخرى من قبيلة شمّر عملوا على إطلاق سراحهما، وزودوهما بالإبل، بعد احتجاز الآسرين فرسيهما، وساروا معهما حتى لحقا بالسيد الصدر وجماعته، فساروا إلى النجف، ومن هناك ودع الشيخ ضاري السيد الصدر وقادة الثورة الذين معه، لينزل في عصمة شمّر أهله وعزوته[1].

تلك المعاني السامية كانت حاضرة في علاقة الشيخ حارث الضاري بالسيد مقتدى الصدر حفيد الصدر الأول بعد احتلال العراق من قبل الأمريكان، وإعلان الرجلين رفضهما للاحتلال، فكنت أسمع الشيخ حارث وهو يحدث السيد مقتدى من خلال الهاتف فيخاطبه قائلاً: ولدي مقتدى. أو أبني مقتدى. وكان السيد مقتدى الصدر يبادله ذات الاحترام والمودة، فكان لا يخاطبه بعبارة إلا وابتدأها بكلمة شيخي، وقد وجدت الشيخ حارث أحياناً يقسوا عليه في النصح، وبخاصة في الأيام الأولى للفتنة الطائفية عام(٢٠٠٦م)، وما ذاك إلا ليقينه أن الرجل من مُحتّد كريم، وهو جدير بالنصح، ولأنه قائد طيف كبير من الشعب العراقي، وللعلاقة القديمة الجديدة بين آل الصدر وآل الضاري.

ت- آل الضاري وآل الخالصي:

علاقة طيّئ بقبيلة بني أسد ضاربة في أغوار التاريخ ومنذ عصر الجاهلية، فكانتا حليفتين، ونعرف مدى تلك العلاقة من خلال أحداث حروب الردة التي اشتركت فيها طيّئ.

بقيت ملامح تلك العلاقة واضحة ومتجددة في العصور اللاحقة، فكان وقوف الشيخ الضاري الزوبعي الطائيّ في صعيد واحد مع الشيخ الخالصي الكبير الأسديّ في مواجهة الاحتلال البريطاني خير دليل على ذلك.

---

(١) ينظر: العلوجي والحجية، ص٦٩.

كان أبو غريب تابعاً لقضاء الكاظمية في العهد الملكي، لذلك كان الشيخ خميس يرشح عن دائرة الكاظمية في بغداد إلى انتخابات مجلس النوب، لكنه في إحدى الدورات عدل عن ذلك ورشح عن دائرة المحمودية، ثم فاز في الانتخابات، وكان عدوله عن الترشيح في دائرة الكاظمية تقديراً واحتراماً للسيد سليم الخالصي، لأن غالبية ناخبيه هم في دائرة الكاظمية، وبذلك سيكون الشيخ خميس نداً كبيراً له في الانتخابات، فكان ذلك منه نكراناً للذات أمام منافسه سليم الخالصي، ولا شك أن مرده إلى العلاقة الطيبة والكبيرة بين عائلتي الضاري والخالصي.

توّج تلك العلاقة وقوف الشيخ حارث مع الشيخ جواد الخالصي في ذات الصعيد، لمواجهة الاحتلال الأمريكي، وتلك العلاقة المتميزة بين الرجلين[١]والتي تحكي تاريخاً طويلاً من العلاقات السامية بين الجانبين.

ث- الشيخ ضاري مع الشيخ محمود شكري الآلوسي:

العلامة السيد محمود شكري الآلوسي؛ فقيه مفسّر، أديب ومحدّث، ربطت الشيخ ضاري به علاقة صداقة متينة، وكان يُهدي كتبه إلى الشيخ ضاري، وكان يأمر كاتبه أن يقرأ كتب السيد الآلوسي على ضيوفه[٢].

ج- الشيخ سليمان الضاري والشيخ أمجد الزهاوي:

علاقة الشيخ سليمان بالشيخ العلاّمة أمجد الزهّاوي كانت علاقة أخوّة وصحبة دائمة، وكان الشيخ الزهّاوي يصف سليمان بأنه: جليس العلماء.

هو دائم الصحبة لهم حين يقيم في بيته الثاني في الأعظمية ببغداد، وكان علماء بغداد حين يحل عليهم ضيف من علماء المسلمين والدعاة يصاحبونه إلى مضارب زوبع، حيث مضيف الشيخ سليمان، ومن أولئك العلماء الذين حلوا ضيوفاً عليه الشيخ النبّهاني إمام الأزهر الأكبر،

---

(١) عبد الحكيم الضاري، الشيخ حارث الضاري كما عرفته شهادة للتاريخ، ص٣٨-٤١.

(٢) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٣٢.

بصحبة الشيخ أمجد الزهّاوي والشيخ نجم الدين الواعظ وعدد من علماء العراق، في عام (١٩٦٥م).

في بغداد كان يرافقهم أينما حلوا، وقد لفت ذلك انتباه شيخ الأزهر، فقال يوماً للشيخ أمجد: الشيخ سليمان يصاحبنا لحمايتنا، فاستغرب الشيخ أمجد قوله، مما جعله يسأل الشيخ سليمان عن إصراره على مرافقتهم، تاركاً أعمالاً كثيرة منوطة به كشيخ قبيلة، فبين له إنه يفعل ذلك لحمايتهم، فاستغرب فطنة وذكاء شيخ الأزهر.

ح- رأي الشيخ عبد الكريم بيارة بالشيخ سليمان الضاري:

لم ينس الشيخ حارث واجباته نحو العلماء، فكان مواظباً على زيارتهم وتفقّد أحوالهم، وكانت آخر زيارة له إلى الشيخ عبد الكريم بيارة قبل وفاته بأيام، رغم انشغاله الكبير، مكافحاً الاحتلال، ورغم سوء حالته الصحية، لكن موعد زياراته لشيوخه وعامة العلماء لا يشغله عنها شاغل.

طالما سمعت من الشيخ طلب الدرع والشيخ حارث الضاري ومن كثيرين .. عن رأي الشيخ بيارة بالشيخ سليمان الضاري، الذي يشبّهه بالصحابي زيد الخير زعيم طيّئ، والذي قال عنه رسول الله(ﷺ): (ما ذُكر لي رجل من العرب إلا كان دون ما ذُكر، إلا زيد الخير، فلم يبلغ كل الذي فيه)[(١)]. فكان الشيخ بيارة كلما رآى سليمان قال له: إنك أشبه الناس بجدك زيد الخير.

خ- الشيخ سليمان الضاري والشيخ محمود شيت خطاب:

اللواء الركن محمود شيت بن خطاب الموصلي، وزير عراقي سابق، وقائد عسكري، ومؤرخ وكاتب وشاعر، درس العلوم العسكرية في العراق وبريطانيا، وله عشرات المؤلفات العسكريّة والفكريّة واللغويّة

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص٦٥.

والتاريخيّة، وتقلّد مناصب وزارية عدّة، وشارك في عضوية لجان عربية وإسلامية عديدة.

كان الشيخ خطاب أخاً وصديقاً حميماً للشيخ سليمان الضاري، وكان يذكره بتلك الصفة: أخونا محمود، وهو يتمثّل أقواله دائماً، ومما سمعته منه ينقله عن خطاب قوله: يقول أخونا محمود، بالصبر تنال ما تُريد، وبالتقوى يُلان لك الحديد.

كان الشيخ خطّاب يحب سليمان صديقه ويحب آل الضاري حباً عظيماً، ويرى فيهم كل الذي في نفسه من حب لدينه ووطنه، لذلك يقول: **إن رأيت السلطة في العراق تحترم وتقدر عائلة الضاري وزوبع؛ فاعلم أنها سلطة وطنية.**

يوم توفي صديقه وصاحبه سليمان الضاري كتب في مجلة التربية الإسلامية يرثيه، في مقال مشبع بالحب واللوعة على فراقه، والثناء عليه، وعنوّن المقال بعنوان مؤثر، يكفي أن لا يبوح بعده بكلمة أخرى لتوصيف حزنه عليه، **حين كتب: (مات الغيث).**

تلك العلاقة بين الرجلين ضربت جذورها بعيداً في نفوس أبنائهم، فكان الشيخ حارث الضاري خير خلف لخير سلف، ولم ينس يوماً ما ورثه أبوه سليمان من أرث، وهو الصحبة الخيرة، ومن هؤلاء الصحب الشيخ خطاب[١].

د- الشيخ علي كاشف الغطاء:

يذكر الشيخ مشعان خميس الضاري بكل فخر حديث الشيخ علي كاشف الغطاء معه، حين زار النجف صحبة الأمير ربيعة بن محمد الربيعة، أمير قبيلة ربيعة، مشيّعين ابن عم الأمير، وهناك استشاره الأمير ربيعة إن كان يرغب بزيارة الشيخ علي كاشف الغطاء، نجل

---

(١) عبد الحكيم الضاري، الشيخ حارث الضاري كما عرفته شهادة للتاريخ، ص٢٩-٣١.

المرجع الديني المعروف محمد كاشف الغطاء[1]، فما كان منه إلا أن رحب بالفكرة.

يضيف: استقبلنا الشيخ كاشف الغطاء في مكتبته، ورحب بنا ترحيباً حاراً، ووجدت علاقة متميزة تجمعه بالأمير ربيعة، وبعد مضي بعض الوقت وهما يتبادلان الحديث سأله الأمير ربيعة عما إذا كان يعرفني، لكن الشيخ أخبره بكل أدب وتواضع أنه لم يسبق له التعرف إلي، عندها قال له: هذا أخونا الشيخ مشعان خميس الضاري. فما أن سمع باسم ضاري حتى قام ووضع يده على رأسه وهو يقول: **أهلاً بعز العراق وشرفنا .. أهلاً بعز العراق وشرفنا.** كلام كبير، لا يقوله إلا الكبار، الذين يعرفون أنفسهم، ويعرفون أقرانهم الكبار.

ذ- الشيخ عبد الكريم زيدان:

علاقة زوبع بعلماء الدين واحترامهم لهم هي أمر متأصل في نفوسهم، وسلوك يلازم تصرفاتهم، وهو ما أغاض لجمان عندما اخبره الشيخ ضاري أنهم تبع لعلماء الدين، ويأتمرون بأمرهم، فكسب بذلك عداءه.

هذا الشعور والسلوك تجاه العلماء وجد صداه في نفوسهم، وهو ما نراه واضحاً في قول الشيخ الدكتور عبد الكريم زيدان مفتي العراق السابق للشيخ حارث الضاري: **انتخبناك رئيساً لهيئة علماء المسلمين لأسمك وتاريخك، وتاريخ عائلتك وقبيلتك**[2].

حين زار الشيخ حارث اليمن كان أول إنسان يزوره هناك ليطمئن على صحته هو الشيخ عبد الكريم زيدان، مفتي العراق السابق، وقبل أن يلتقي بالمسؤولين اليمنيين الذين وجهوا له الدعوة باعتباره رئيس هيئة

---

(١) حازم المفتي، العراق بين احتلالين، ص٤٧.

(٢) عبد الحكيم الضاري، الشيخ حارث الضاري كما عرفته شهادة للتاريخ، ص٧.

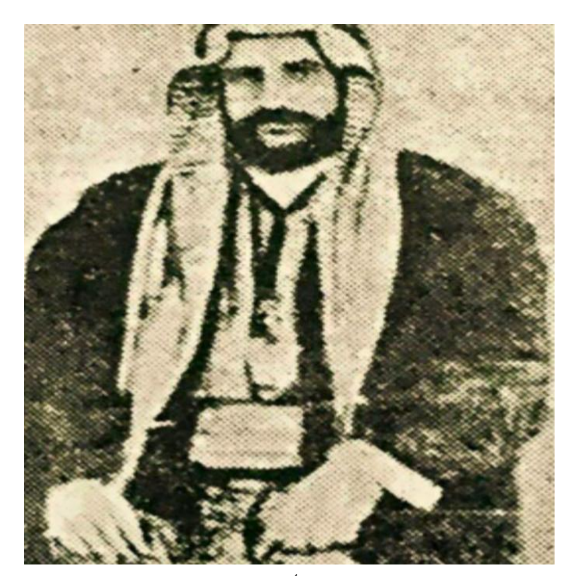
علماء المسلمين، و هذا ديدنه في التعامل مع شيوخه، ومع جميع العلماء وطلبة العلم، فهو يكن لهم احتراماً وتقديراً عاليين، ولا يستثني من ذلك حتى الذين يختلف معهم في الرأي.



قادة ثورة العشرين السيد علوان الياسري والسيد محسن أبو طبيخ والشيخ شعلان أبو الجون ثم الشيخ عبد الواحد الحاج سكر



الشيخ عطيّه أبو كلل يتوسط عددا من الثوار وأبناء قبيلته



الشيخ شعلان أبو الجون



الشيخ عبد الواحد الحاج سكر



الشيخ مرزوك العواد



الشيخ حمد الزركه



الشيخ محروت الهذال



الشيخ خوام العبد العباس



الشيخ موجد الشعلان



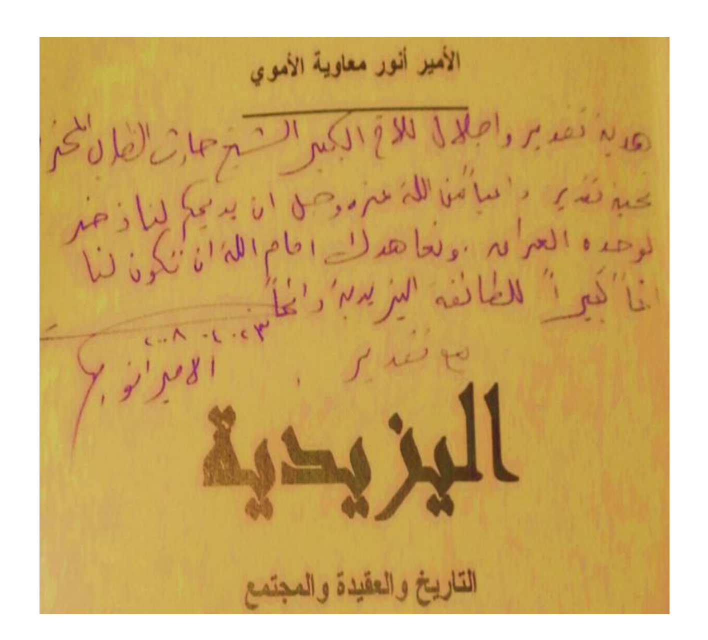
الشيخ موحان الخير الله



رئيس الوزراء العراقي عبد المحسن باشا السعدون



الشيخ عجمي باشا السعدون



كلمات إهداء مقدمة للشيخ حارث الضاري من المؤلف الأمير أنور معاوية أمير الطائفة اليزيدية



الشيخ حارث الضاري يزور الشاعر العراقي عبد الرزاق عبد الواحد في المستشفى بعمّان

رسالة موجهة من المرجعية إلى الشيخ سليمان الشريف شيخ قبيلة بني زيد ويذكر له في الرسالة بعض الأحداث ومنها أن القوات البريطانية قد مُنيت بهزيمة ساحقة في الرمادي والفلوجة، وهي بلا شك قاطع عمليات الثورة التي يقودها الشيخ ضاري المحّمود شيخ زوبع، وتذكر الرسالة أن زوبع قد أسقطت طائرتين وقُتل طاقم إحداهما بينما أُسر طاقم الأخرى وهما الميجر بولي بينما الضابط الآخر هو الذي عينته الحكومة البريطانية خلفاً لليجمن



المرجع السيد محمد الصدر الأول



المرجع الشيخ مهدي الخالصي



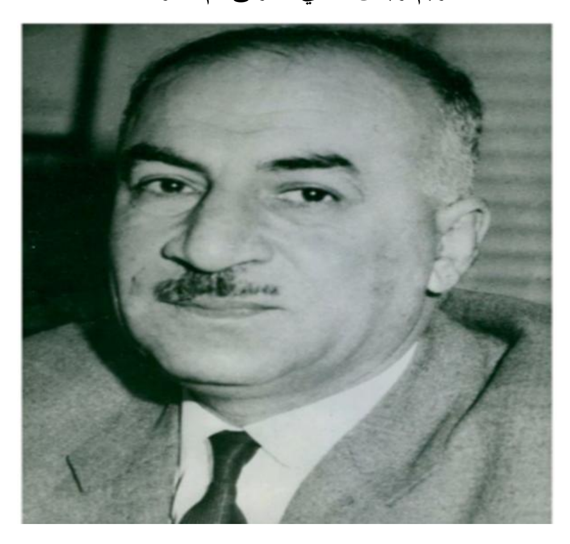
يمين الصورة الشيخ حارث الضاري الثاني في الصف الأول وبجانبه الشيخ عبد السلام الكبيسي ثم الشيخ جواد الخالصي فالشيخ محمد الخالصي في المدرسة الخالصية في الكاظمية ببغداد عام ٢٠٠٤م



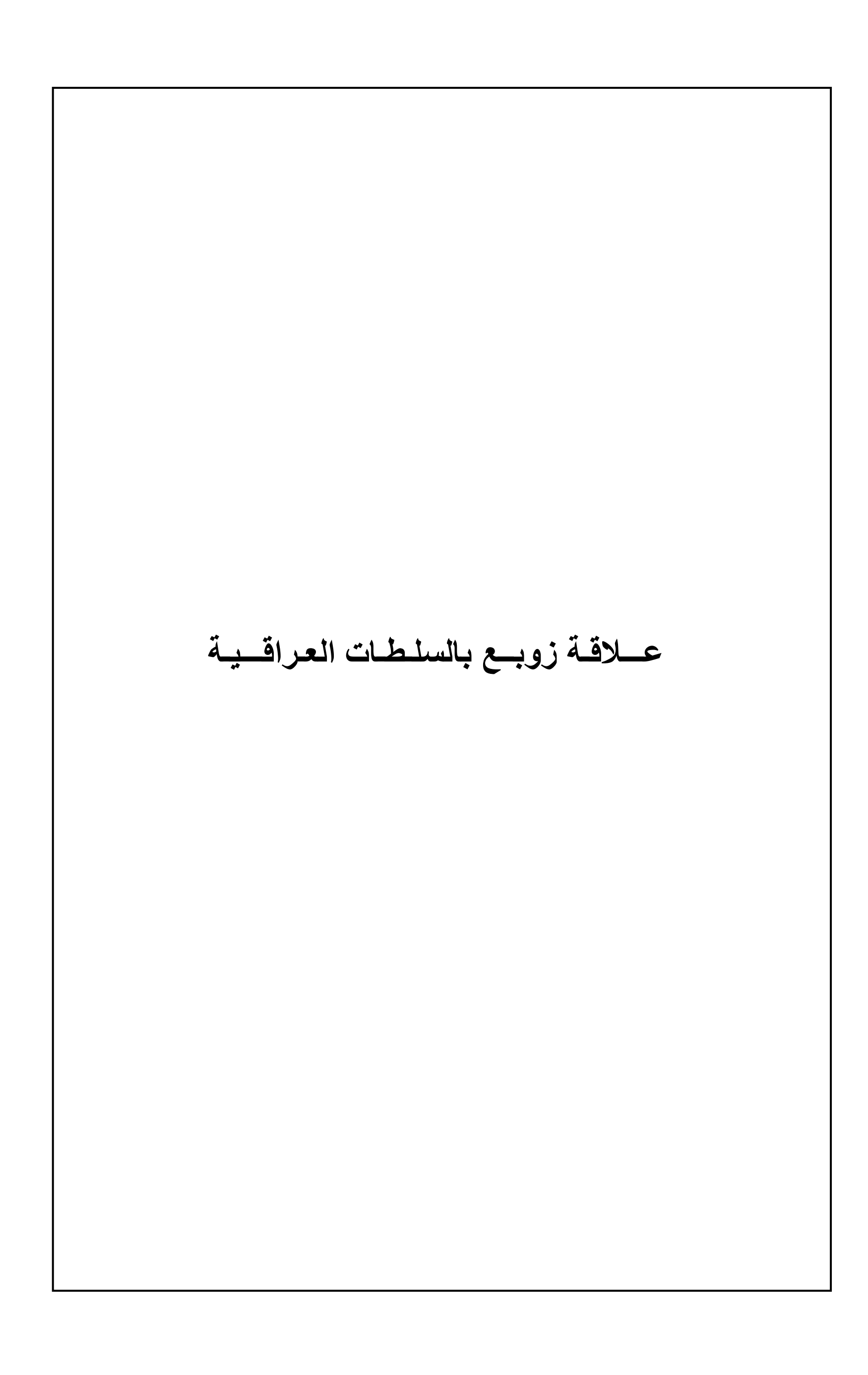
الشيخ حارث الضاري في إحدى زياراته للشيخ عبد الكريم بياره في الحضرة القادرية



يمين الصورة الشيخ مطشر السعدون والشيخ حارث الضاري والشيخ عبد الكريم زيدان مفتي العراق ثم المؤلف



الداعية والمفكر الإسلامي اللواء الركن محمود شيت خطاب



علاقة زوبع بالسلطات العراقية

أولاً- علاقة زوبع بالسلطة في العهد الملكي:

لم يكن الشيخ ضاري راضياً عن (الثورة العربية) ضد العثمانيين، فهو يرى أن تلك الثورة ستكون بداية تحوّل من سيطرة دولة ترفع الإسلام شعاراً رغم الأخطاء والخطايا التي وقعت فيها آخر عهدها؛ إلى سيطرة دول أوربية مسيحية، وأنها ستجزئ الأمة العربية إلى مناطق نفوذ تتقاسمها فيما بينها، كما أنه رفض واستهجن طريقة الأداء في تلك (الثورة)، وما صاحبها من ممارسات ضد العثمانيين، لذلك طالما قال عن (طلقة حسين): التي أطلقها إعلاناً عن بدء الثورة: غلطة حسين.

شكوك الشيخ ضاري كانت في محلها، وهي حقيقة بالنسبة له، وحقيقة واقعة بعد حين بالنسبة للآخرين، لذلك أدار ظهره بعد أن أدى ما عليه من ضريبة تجاه وطنه وولى نجيا، متحملاً أقسا الظروف في الغربة، حتى بعد تسليم البريطانيين السلطة إلى الملك فيصل الأول رحمه الله، فلم يكن يثق بنواياهم تجاه العراق، وأوضح دليل على نواياهم تلك هو عملية اختطافه، ومحاكمته تحت ظل علم المملكة العراقية عام (١٩٢٨م)، ومعاقبته بالإعدام على (جرائم اقترفها بحق جيش الاحتلال البريطاني)، ثم تخفيف الحكم نتيجة الضغوط الجماهيرية في بغداد إلى المؤبد والأشغال الشاقة، وكذلك لكبر سنه، ومرضه العضال، ثم مات بعد يومٍ واحدٍ من صدور الحكم عليه في المستشفى العسكري تحت إشراف البرٍيطانيين، وفي ظروف غامضة، تدلل القرائن على أنه أمر دُبر بليل.

ولفهم واقع العلاقة بين زوبع والسلطة في العهد الملكي نتوقف عند محاطات تجسد طبيعة تلك العلاقة، وفي وقائع نُقلت متواترة عن رجال عاصروا ذلك العهد، وكانوا فاعلين ومتفاعلين معه، وهي:

أ- العفو عن قادة ورجال ثورة العشرين:

بعد إخماد ثورة العشرين وسيطرة البريطانيين على العراق؛ أصدرت السلطة البريطانية عفواً عن قادة الثورة، والرجال الذين اشتركوا فيها، لكنها استثنت عدداً منهم يعدون على أصابع اليد الواحدة، منهم الشيخ ضاري وابنه سليمان.

كان المفترض بالحكومات العراقية المتوالية في العهد الملكي أن تنظر في تلك المسألة، لكنها بقيت صامتة صمت القبور، لأنها قضية يزعج البريطانيين الخوض فيها، فبقي الشيخ ضاري مطلوباً هو وابنه سليمان للقضاء، وهذا الأمر يدلل بكل وضوح على استلاب السيادة العراقية من قبل البريطانيين، وهو ما كان الشيخ ضاري متخوفاً منه سلفاً، وهو أيضاً الذي جعله يلوذ برمضاء الغربة من نار الاحتلال.

ب- عودة زوبع إلى الديار:

بعد قرار العفو عادت جماعات من زوبع إلى ديارهم، وقد عاد القسم الأكبر منهم مع الشيخ درع من الموصل، الذي لم يشترك في القتال ضد البريطانيين، لأنه خرج من بغداد قبل الاحتلال بوقت قصير، نتيجة خلاف مع السلطة العثمانية في بغداد، وهو ما سنأتي على ذكره في الحديث عن علاقة زوبع بالدولة العثمانية، ثم توالت عودة أبناء زوبع جماعات ووحدانا إلى ديارهم.

بقيت زوبع موضع شك وريبة من قبل البريطانيين، فكانوا يترقبون تحركاتهم، بل حتى سكناتهم، ويضعون عليهم العيون، التي تنقل أدق أخبارهم إليهم، فهم في عيون البريطانيين (خارجون عن القانون)، أو بالأحرى كانوا يسمونهم كذلك، ولم تكن للسلطة العراقية أية ملامح تشير إلى أن زوبع هم من رعاياها، أمام عقدة البريطانيين تجاههم، والتي لم تنس ثاراتها معهم .

ت- ترشح الشيخ خميس الضاري لعضوية البرلمان العراقي:

بعد عودة خميس الضاري من المنفى نصحه بعض السياسيين أن يترشح لنيل عضوية البرلمان، لكي يكون صوتاً لزوبع فيه، بعد الذي رأوه من تهميش البريطانيين لهم في بلدهم، الذي دافعوا عن سيادته وكرامته، وأن لا يغيب صوت زوبع في كل المحافل الوطنية، ولا يمكن ذلك إلا من خلال وجوده في البرلمان، لذلك رشح نفسه للعضوية، لكنه وجد فيتو البريطانيين عقبة كأداء أمامه، فلجأ إلى الملك فيصل، عارضاً عليه القضية بكل تفاصيلها، فوجد تفهماً كبيراً منه، ومودة واضحة، حين قال له: إنكم تستحقون ذلك وأكثر، ولم يغب عن بالنا موقف والدكم الوطني، لكني لن أستطيع شيئاً حيال الأمر الذي تبغي.

هنا يظهر بجلاء ووضوح ومن خلال كلام الملك فيصل الأول بأن القرار العراقي السيادي مرتهن بيد البريطانيين[١].

موقف البريطانيين الجائر من خميس الضاري الذي لم يكن مخلاً بأي شرط من شروط الترشح للبرلمان؛ كان له صدىً في أروقة السياسة العراقية، مما دفع بعض السياسيين إلى طرح قضيته على الملك، وعلى البريطانيين، وأنها ستثلم هيبة الحكومة أمام الشعب، وقد تؤلب زوبع والعشائر المتحالفة والمتعاطفة معها، إلى رفض الظلم الذي وقع عليها، وهو ما قد يؤثر على حالة الهدوء التي تعم البلد، والتي هو بحاجة لها، وكذلك السياسة البريطانية في العراق، وكان من المتحمسين لهذا الأمر رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد، الذي يُعتبر من دُهاة السياسيين الذين حكموا العراق، لذلك كله أمر الملك فيصل الثاني أن يُقبل ترشح الضاري لانتخابات البرلمان العراقي.

لكي يفوّت البريطانيون الفرصة عليه بالفوز قرروا أن يترشح عن لواء الدليم، لعلمهم أن غالبية ناخبي الضاري هم في بغداد، وهنا يتدخّل

---

(١) محمد حسين الزبيدي، الملك غازي ومرافقوه، ص١٣٣.

نوري السعيد لدى الملك فيصل مرة ثانية، فيضعون اسمه ضمن لوائح مرشحي بغداد، ليفوز في الانتخابات وينال عضوية البرلمان عن جدارة.

ث- عودة الشيخ سليمان الضاري من منفاه:

ذكرنا في المبحث السابق ملابسات قضية عودة الشيخ سليمان الضاري من منفاه، وهي أيضاً حافز لأن تظن زوبع وغيرها بأن السلطة العراقية مرتهنة للقرار البريطاني، رغم النيات السليمة لكثير من قادة العراق، ومنهم وأولهم ملوكه، وأذكرها هنا للتذكير برؤية زوبع تجاه السلطة، والتي ستحدد لاحقاً بعض توجهاتها وقراراتها.

ج- الشيخ خميس الضاري مع رئيس الوزراء ياسين الهاشمي:

كانت العلاقات بين خميس الضاري والهاشمي طيبة، لدوره الكبير والإيجابي في قضية رجوع سليمان الضاري من منفاه، بعد حصوله على أمر شفوي من الملك غازي يأمر فيه برجوعه من المنفى، رغم معارضة البريطانيين، لكن مصلحة العشيرة وحرمة هضم حقوقها تهم الشيخ خميس كثيراً، كما يهم رئيس الوزراء مصلحة حكومته، وبذلك لا بد أن تنشب الصراعات بين الطرفين حين تتضاد الإرادات، وهذا ما حدث حين أراد السيد الهاشمي مصادرة أرض تعود ملكيتها لإحدى عشائر زوبع، وإعطائها لعشيرة أخرى دون وجه حق، مما أثار حفيظة الشيخ خميس، رافضاً ذلك التصرف من قبل رئيس الوزراء.

بين شد وجذب وإصرار كل طرف على رأيه أخذت ثورة الغضب مأخذها منهما، فحدث تجاوز في الكلام من قبل رئيس الوزراء، فما كان من الشيخ خميس إلا أن استلّ مسدسه، وكاد أن يرديه قتيلاً، لولا حفظ الله، وبعد تدخّل الحاضرين.

لتطيّيب خاطر رئيس الوزراء ذهب إليه الشيخ درع الظاهر عم الشيخ خميس للاعتذار، لكنه أصر على رأيه، في اغتصاب الأرض من

زوبع، وذهب إلى أبعد من ذلك حين هدده تهديداً صريحاً، وتوعّد زوبع أن يدكها بالمدفعية بعد ثلاثة أيام، لأنها أهانت هيبة الدولة، فأخذ الشيخ درع الأمر على محمل الجد، وبدأ يعد العدة لذلك الأمر، لكن وزارة السيد الهاشمي كانت قد سقطت بعد يومين من تهديده، وكفى الله المؤمنين القتال.

ح- موقف زوبع من ثورة رشيد عالي الكيلاني عام (١٩٤١م):

رشيد باشا الكيلاني شخصية وطنية عراقية، رأس عدة وزارات في العهد الملكي، ثم أسس حكومة إنقاذ بمساعدة الضباط الأحرار، وتأييد ومؤازرة أبناء الشعب العراقي، احتجاجاً على السياسة التي اتبعها الباشا نوري السعيد رئيس وزراء العراق، وبتأييد من الوصي على العرش العراقي الشريف عبد الإله.

كان الثنائي عبد الإله الوصي على العرش ونوري السعيد رئيس الوزراء بريطانيي الهوى، فانقادوا للبريطانيين في كل ما يحبون ويشتهون، مبتعدين عن آمال وطموحات العراقيين، ومبادئ الثورة التي نادى بها الشريف حسين، فقررا دخول الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء، وقطع العلاقات مع دول المحور، وقاما بإجراءات تخالف التقاليد العربية والدولية وكذلك مبادئ الدستور العراقي، ومنها على سبيل المثال تسليم الرعايا الألمان إلى البريطانيين.

حاول الكيلاني ومن معه تدارك الأمور التي ذهب بها بعيداً الوصي على العرش ونوري السعيد، ومن يقف إلى جانبهما في ذلك المشروع المناهض لتطلعات الشعب العراقي، لكنه لم يجد آذاناً صاغية منهم، فقام بتشكيل حكومة إنقاذ لتتحمل على عاتقها مسؤولية أخذ البلد إلى بر الأمان، وتُبعد عنه شبح الحروب وويلاتها.

كانت زوبع دائماً وأبداً مع القرار الذي يصب في صالح العراق وسيادته وكرامته، أياً يكن صاحب القرار، اسمه ورسمه، قوميته ودينه،

ما دام عراقياً، ويحب العراق، لذلك بادرت إلى الوقوف في صف الكيلاني، الذي لم تكن تربطه بشيوخها أية علاقة خاصة، بل كان الطرف الآخر - الوصي ونوري السعيد – تربطه علاقة صداقة مع الشيخ خميس الضاري، وربما كان للباشا نوري السعيد فضل عليه في قضية ترشحه للبرلمان، لكن ذلك شيء ومصلحة الوطن شيء آخر، والمبادئ لا تتجزأ عند أصحاب المبادئ، ولا تتقدم عليها العلاقات والمصالح، مهما كان حجمها ووزنها.

قاتلت زوبع والعشائر المتحالفة معها تحت قيادة الشيخ خميس الضاري وأخيه سليمان تحت راية الثورة، في الفلوجة، وفي أبو غريب، ووقفوا عند مشارف بغداد مع الجيش العراقي والمجاهدين الفلسطينيين ليصدوا تقدم القوات البريطانية الزاحفة نحو بغداد، كما وانضمت إليهم قبيلة ألبو محيي بقيادة شيخها علوان الشلال في تلك الملحمة العراقية الخالدة.

ح- موقف عبدالإله ونوري السعيد من زوبع بعد ثورة(١٩٤١م):

كان الباشا نوري السعيد من دُهاة الساسة العراقيين كما وصفه الكثيرون[١]، وأجد في موقفه من زوبع وتحديداً شيخها خميس الضاري دليلاً على ما ذهب إليه واصفوا شخصيته، حين استثنى من العقاب الشيخ الضاري، بعد أن نكّل ببقية قيادات الثورة، وساق كثيراً منهم إلى ساحات الإعدام، وهو في ذلك يحاول أن لا يزج نفسه في مواجهة مع قبيلة لم تُذعن لحليفته العظمى بريطانيا، بكل قوتها وغطرستها، رغم أنه كان يجد في نفسه على موقفها المساند لخصومه.

لم يُخف السعيد ذلك الوجد حين ذكّر الشيخ خميس يوماً أنه كان مع الوصي يراقبانه هو وأخاه سليمان من خلال المنظار وهو يقف إلى جانب قيادات الثورة، يوجهون المقاتلين، ويستثيرون نخوتهم، لكن الشيخ

---

(١) عبد الرزاق النصيري، نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام ١٩٣٢، ص٢٧.

خميس لم يكن ليفوّت ذلك التلميح، ويدعه يمر مرور الكرام حين قال له: قاتلنا من أجل سيادة العراق، وسنقاتل من أجل ذلك، ومن أجل الدفاع عن أنفسنا إن اقتضى الأمر. فكانت كلماته رسالة دقيقة وواضحة المغزى، ولا يغيب تفسيرها عن ذهن الباشا السعيد.

خ- نوري باشا السعيد والشيخ سليمان الضاري:

رغم العلاقة الطيبة التي تربط نوري السعيد بخميس الضاري؛ لكنه كان يتحاشى اللقاء بأخيه سليمان لأسباب عديدة، منها غضب البريطانيين منه، لمشاركته في قتل الكولونيل لجمان، ولأنه يدرك مدى كرهه للذين تعاونوا مع البريطانيين، وينبع ذلك من التزامه الشديد بمبادئ العقيدة الإسلامية، والذي عُرف عنه طيلة حياته.

من المرات النادرة التي يلتقي فيها الرجلان كانت خلال دعوة للشيخ خميس الضاري من أحد وجهاء بغداد، وقد صحبه فيها أخوه سليمان، وكان أن دُعي إليها الباشا نوري السعيد، ولأن سليمان الضاري كان ملتزماً بتعاليم الإسلام بكل دقة فهو لا يفوّت وقت الصلاة تحت أي ظرف؛ لذلك حين أزف وقتها تهيئ للصلاة، وكان يحمل مسدساً من نوع (سمث) كبير الحجم، فأراد أن يضعه على طاولة أمامه، قبل أن يقوم للصلاة، وما أن مد يده ليخرج المسدس حتى بدا على الباشا نوعاً من الارتباك، وكان يتحدث فقطع حديثه، ففطن الشيخ سليمان للأمر، مما حدا به أن يُعيد المسدس إلى مكانه، عند ذلك تنفس السعيد الصعداء، ولكي يتدارك ارتباكه الذي بدا عليه؛ حاول أن يمازح سليمان الضاري قائلاً له: يا أخ سليمان لا تشهروا سلاحكم علينا، بل اشهروه معنا. فرد عليه مباشرة: نشهره معكم حين تحكمون بالعدل. فكان جواباً يحمل الكثير من المعاني التي توضح أسرار العلاقة بين زعماء زوبع والسلطة ورموزها في العراق.

ثانياً- علاقة زوبع بالسلطة في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم:

كانت لزعماء زوبع تحفظات على منهج وسلوك بعض زعماء السلطة في العهد الملكي، وانتقادهم لأي فعل يصدر عنهم يخالف توجّهات وتطلّعات العراقيين، والتي ترتب على ضوئها وقوفهم مع ثورة مايس عام (١٩٤١م)، لكنهم رغم ذلك لم يكونوا راضين عن الطريقة التي تم فيها التغيير في العراق من خلال (ثورة) عام (١٩٥٨م)، وكانوا ممتعضين ومستنكرين للأفعال التي رافقت قيام (الثورة)، ومدينين الجريمة البشعة وغير المبررة بحق العائلة المالكة، والأفعال الهمجيّة التي ارتكبها بعض المتحمسين (للثورة)، بحق الملك فيصل الثاني رحمه الله والوصي عبد الإله ورئيس الوزراء نوري السعيد.

هذا الموقف الإنساني والأخلاقي من قبل زعامة زوبع استغله بعض أنصار الثورة، وبخاصة التيارات الشيوعية المؤدلجة، والتي تنظر إلى الكيانات القبلية على أنها رجعية، وعدو للتقدم والحرية التي يتوهمون أنهم قد ركبوا ناصيتها، وكذلك من قبل أصحاب الرؤيا الشعوبية الحاقدة على العروبة[١]، فهولوه في نظر الزعيم عبد الكريم قاسم، قائد (الثورة)، مستغلين طيبته وبساطته، وعدم خبرته في السياسة وقيادة الدولة، رغم شجاعته، وقياديته في الجانب العسكري.

ولكي تتضح صورة الوضع الذي عانت منه زوبع في هذا العهد نتطرق لذكر بعض الوقائع التي حدثت لهم مع السلطة القاسميّة، وهي:

---

(١) محمد حمدي الجعفري، محكمة المهداوي أغرب المحاكمات السياسية في تاريخ العراق المعاصر، ص١٠٦؛ جمال مصطفى مردان، انقلابات فاشلة في العراق، ص١٤؛ خليل إبراهيم حسن، الصراع بين عبد الكريم قاسم والشيوعيين وعبد الوهاب الشوّاف وضباط الموصل الوحدويين، ص ٧٥- ٧٦، ١١٤-١١٥.

أ- موقف السلطة من زوبع:

كان مصير زوبع في ذلك العهد التهميش، حالها حال بقية القبائل الأخرى، حتى وصل بهم الحال أنهم لا يستطيعون وصول بغداد، ومن يصلها مضطراً لا يأمن الخروج منها سالماً، وكان كل من يعتمر الكوفية والعقال في بغداد يُعد رجعياً، وتابعاً للذين يتآمرون على (الثورة ومكتسباتها).

ب- خميس الضاري والزعيم قاسم :

كانت زوبع وما زالت صمام أمان في العراق، ونذرت نفسها للحفاظ على وحدته وسلامته، وهي لذلك تحاول جاهدة أن لا يقع بينها وبين السلطة أي احتكاك، لذلك ابتعدت عن السياسة وعن السلطة، ولم تر نفسها نداً للسلطة يوماً من الأيام، وكانت تطوي على الجراح خشية أن تكون سبباً في تعكير السلم المجتمعي في العراق، وتستجيب لنداء السلطة حين تناديها لكل أمر فيه خير للعراق، بعيداً عن أي حساسية تجاه السلطة، أو الذين يمثلونها.

لذلك حين دعا الزعيم قاسم شيوخ القبائل للقاء بهم ومنهم خميس الضاري لبى الدعوة، وذهب إلى القصر الجمهوري، لكن الزعيم تأخر كثيراً عن موعد اللقاء، واستمر وجودهم في القصر إلى ساعة متأخرة من الليل[1]، ما جعل بعض شيوخ القبائل يستنكرون هذا التصرف، وكان الشيخ خميس يكظم غيظه، لكن وحين فاض الكيل نادى على موظفي التشريفات قائلاً: إن كان الزعيم مشغولاً دعونا نذهب إلى بيوتنا، فنحن لسنا أسرى لديكم، ولسنا رعاعاً فنسكت على هذا التصرف الذي نعتبره إهانة لشيوخ القبائل.

---

(١) يقول الكاتب أحمد فوزي: (كان عبد الكريم غريب الأطوار). ينظر: أحمد فوزي، أين الحقيقة في مصرع عبد الكريم قاسم، ص٣٦.وربما تصرفه ذاك ناتج عن أحد أطوار شخصيته.

سمع الزعيم قاسم صوتاً عالياً يصدر من القاعة التي يتواجد فيها شيوخ القبائل، فجاء مسرعاً، وإذا بالشيخ خميس الذي يتحدث، وقد سمع طرفاً من كلامه الشديد اللهجة مع الموظفين، وتقدم منه وهو يبتسم بتودد، معتذراً له عن تصرفه، طالباً منه أن يقدم له أي شيء يطلبه لقاء مسامحته على ما بدر منه تجاههم، لكن الشيخ خميس قال له: ياسيادة الرئيس نحن لا نريد من السلطة شيئاً سوى أن تحفظوا لنا كرامتنا، ثم أن تسمح لي بالانصراف. عندها التفت الرئيس إلى مرافقيه موجهاً لهم أن تخرج مفرزة حماية مع الشيخ خميس حتى يطمئن على وصوله إلى بيته، لكن أحد كبار الضباط من مرافقي الرئيس قال له: ياسيادة الرئيس، الشيخ خميس لا يحتاج إلى حماية في بغداد، لأن كل أهل بغداد يحمونه إن وجب الأمر، فهو شيخ بغداد.

ت- مصادرة أرض مشيّخة زوبع:

بعد(ثورة ١٩٥٨م) صدرت قرارات اشتراكية ثورية، ومنها مصادرة الأراضي التي بحوزة شيوخ القبائل والملاك الكبار[١]، ولا شك أن كثيراً من تلك الأراضي التي بحوزة شيوخ القبائل كانت من ضمن المحميّات التي سيطروا عليها، يوم كانت العشيرة تمثل كياناً سياسياً معترفاً به ضمن جسم الدولة الكبير، وكان الشيوخ مسؤولين أمام الدولة في كل الأمور التي تخص قبائلهم، وكذلك المناطق التي تحت حمايتهم.

الغريب في الأمر أن الأرض الخاصة بمشيّخة زوبع والتي صودرت بعد (الثورة) لم تكن من ذلك النوع، إذ اشتراها الشيخ ظاهر المحّمود من الدولة العثمانية، ولدى أولاده ما يُثبت ذلك من وثائق، وتدل تلك الوثائق على أنه قد اشتراها بمبلغ كبير جداً لو قورن بما يماثله اليوم، بعد أن قرر ترك حياة البداوة، والاتجاه إلى الزراعة لتوطين قبيلته، وقرر أن يقف على أرض صلبة، لا ينازعه فيها حتى الدولة العثمانية، التي

---

(١) خليل إبراهيم حسن، ثورة الشوّاف في الموصل ١٩٥٩، ج١، ص١٧٧-١٧٨.

تفرض ضرائب باهظة على الأرض العائدة للدولة، والتي تستغلها القبائل.

إحدى المقاطعات التي اشتراها من الدولة كان ثمنها (٢٣) ألف ليرة ذهبية، وكانت الليرة حينها يُشترى بها بعيران من خيرة الإبل، فإذا قارنّا ذلك المبلغ بسعر البعير اليوم سنجده مبلغاً فلكياً بالنسبة لسعر تلك الأرض.

تلك واحدة من المظالم التي وقعت بحق زوبع في ذلك العهد، وبقيت تعاني التهميش والإقصاء، وضيّقت السلطة الخناق عليها، حتى خرج كثير ممن يسكنون بغداد منهم إلى القرى والأرياف، خشية الاعتداء على كرامتهم وحياتهم، بعد التحريض المستمر والمتصاعد من قبل أطراف معروفة في السلطة، أو من مؤيديها، وصارت تُطلق عليهم ألقاب تشي بمدى الحقد الذي تكتنزه قلوبهم عليهم، مثل (الموتورين)، وقد تعودت زوبع مثل هذه التسميات وأمثالها في كل العهود التي لم تخنع فيها للسلطة الغاشمة، حيث كان البريطانيون يطلقون عليهم تسمية (الخارجين عن القانون) وفي العهد الملكي تسمية (العوجان).

لا أجد صادقاً وبعين وضمير المؤرخ النزيه والمطّلع في كل تلك الشتائم لزوبع إلا ذماً يوجب المدح، فهم (خارجون على قانون) سلطة الاحتلال، وهم (عوجان) لأن خطهم غير الخط الذي سار عليه بعض الساسة العراقيين، من موالاة للبريطانيين، بعد الوعود البراقة التي بذلوها أقولاً، وكانت أفعالهم على خلاف ذلك تماماً، وهم (موتورون) لأنهم لا يريدون أن يكونوا مطية للشرق، بعد أن رفضوا أن يكونوا مطية للغرب، وبذلوا من أجل ذلك كل نفيس وعزيز.

ثالثاً- علاقة زوبع بالسلطة في عهد العارفيّن:

تميزت العلاقة بين زوبع والسلطة في عهد العارفيّن - عبد السلام وعبد الرحمن عارف - بالانفراج، بعد انصرام عهد الزعيم قاسم لأسباب

عديدة، منها صلة الرحم التي تربط زوبع بالرجلين، إذ أن أمهما كريمة إحدى أسر زوبع، لذلك كان أبناء عارف يحبون زوبع، ولا يخاطبون أي زوبعي إلا بصفته بالنسبة لهم (خالي)، وهم يفخرون بالشيخ ضاري غاية الفخر حتى مقابل أعمامهم.

تميز عهد الأخوين عارف بالهدوء، وتحسن العلاقات مع العرب، وبعض الحرية في الشارع العراقي، وبخاصة في عهد الرئيس عبد الرحمن عارف، إذ كان العهد الذهبي في تاريخ العراق الحديث، وقد مرت علاقة زوبع بالسلطة في هذا العهد بعدة محطات، فكانت أكثر هدوءاً وإيجابية معها قياساً إلى العهود التي سبقتها أو التي تلتها، وهي بلا شك لا تختلف عن علاقة أغلب قبائل العراق مع السلطة في ذلك العهد، ومن الوقائع التي تفسر جانباً مهماً من تلك العلاقة:

أ- البيان الأول (لثورة ١٩٥٨م):

كان المشير عبد السلام عارف الناطق باسم (الثورة)، وهو الذي أذاع البيان الأول لها[١]، وهو كما ذكرنا تربطه علاقة رحم وقربى بزوبع، فهم أخواله، وهو يفخر بهم، وبخاصة الشيخ ضاري، أحد أشهر قادة ثورة العشرين.

بعد البيان الأول كانت أول رسالة تأييد (للثورة) أذاعها الراديو بصوت المشير عارف موجهة من الشيخ خميس الضاري، ثم تداعت بعدها برقيات التأييد (للثورة)[٢]، ولا شك أن للرسالة وقع كبير على العراقيين في ذلك الوقت، لما للشيخ خميس من مكانة عند كثير من العراقيين، فهو ابن المجاهد الشهيد الشيخ ضاري، وهو أيضاً مشارك في ثورة العشرين مع أبيه، وكونه أحد قيادات ثورة مايس التحررية عام (١٩٤١م)، وكذلك لما له من رمزية قبلية، وبخاصة في بغداد، إذ كان

---

(١) أحمد فوزي، عبد السلام عارف..سيرته.. محاكمته..مصرعه، ص٥.

(٢) عبد الجبار العمر، الكبار الثلاثة..ثورة ١٤ تموز في ١٤ ساعة، ص٣٣.

أهلها قد أطلقوا عليه تسمية (شيخ بغداد)، ولما له من حضور سياسي، فهو عضو في البرلمان العراقي لحين إعلان سقوط النظام الملكي.

أنكر الشيخ خميس على المشير عارف تصرفه ذاك(١)، وأكد على عدم إرساله تلك الرسالة المزعومة، وهو ما روته لي والدتي حفظها الله، ثم تيقنت من حقيقة الأمر بعد أن أكدّه لي الشيخ سليمان الضاري بعد سنين طوال على ذلك الحدث، وللحقيقة لا أجد لدى المشير عارف من الدهاء السياسي ما يؤهله لأن يتبادر إلى ذهنه مثل تلك الفكرة(٢)، رغم حبه للشيخ خميس، واعتزازه به، ولحاجة (الثورة) إلى مثل ذلك التأييد، ومن جانب آخر لصدق ونزاهة عارف، فلا يمكن أن يتجرأ على مثل ذلك العمل دون سبب، وربما سببه الوحيد هو ما أشرنا إليه آنفاً، وقد آتى أوكله، حين توالت برقيات التأييد (للثورة) بعد إذاعة برقية الشيخ خميس المزعومة تلك.

ب- علاقة عبد السلام عارف بمشيّخة زوبع:

كانت علاقة المشير عارف متميزة مع كبيري زوبع الشيخ خميس الضاري وأخيه سليمان، وهو يعتبرهما قدوة كبيرة له، ويعتز بهما أيّما اعتزاز، وقد يستشيرهما في بعض الأمور الخاصة، وكان الرجلان لا يبخلان عليه بالنصيحة الصادقة، والبعيدة عن أي تحفظ أو رياء، فيشيران على من استشارهما بما يريان أنه الصحيح، حتى وإن كان مخالفاً لرأي أو هوى الطرف الآخر، وحتى إن كان ذلك الطرف رئيس الجمهورية، وهذا ديدنهما مع الجميع.

آثار ذلك الحب والتقدير والاعتزاز للشيخين من قبل الرئيس كانت واضحة بما لا تخطئه العين، ومن آثار ذلك إصراره على أن يُدفن والده الحاج محمد عارف في فناء مسجد الشيخ ضاري، في مركز خان

---

(١) يشير الكاتب العراقي عبد الجبار العمر إلى أن (تلك الرسالة مفتعلة)، عبد الجبار العمر، الكبار الثلاثة، ص٣٣.

(٢) محمد حمدي الجعفري، أغرب المحاكمات السياسية في تاريخ العراق الحديث، ص١٠٢.

ضاري، وهو لا يبعد سوى عشرات الأمتار عن خان النقطة، الذي جرت فيه وقائع مقتل الكولونيل لجمان، وكذلك نفس المسافة عن مضيف شيخ زوبع ظاهر خميس الضاري، وكانت زياراته المتعددة والمفاجئة إلى قبر أبيه في المسجد معروفة للجميع، وكان يحضر هناك بمعية سائقه الشخصي فقط، ولذلك لامه بعض مرافقيه يوماً على ذلك التصرف خشية عليه، لكنه كان يقول لهم: أنا ذاهب إلى أخوالي، فلا أحتاج إلى حماية هناك.

كان المشير عارف ملتزماً دينياً[١]، نتيجة تربيته العائلية، إذ كان أبوه الحاج عارف رجلاً متديناً، ورعاً، ولديه بعد نظر يستشرف فيه المستقبل، وهو أمر معروف عنه لدى من عرفه، لذلك أثرت تلك التربية في عبد السلام، فهو في عز تمكّنه من السلطة في العراق لم ينس ذكر الموت، لذلك أوصى أن يُدفن إلى جوار والده إن حانت تلك الساعة، وفي المكان الذي يشعر دائماً أنه مثار فخر بالنسبة إليه، ويشاء الله أن يتوفاه بعد عام واحد، ويُدفن هناك.

ت- الأيام الأخيرة في حياة الرئيس عبد السلام عارف:

تحدثنا آنفاً عن مدى العلاقة بين الرئيس عارف والشيخين الضاري، واستماعه لنصائحهما، لكن في الطرف الآخر نجد كثيراً من مستشاريه قد تملكتهم النزعة الثورية بعد الإطاحة بالحكم الملكي، ونتيجة تأثرهم بشخصية وآراء الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وهو ما يخالف وجهة نظر الشيخين، الذين زارا الرئيس في أواخر أيامه، ونصحاه بمد جسور الثقة والتواصل مع دول الجوار، وبخاصة الكويت وإيران، لأن حسن العلاقة مع هذين الجارين ستؤدي إلى استقرار البلد، وكذلك طلبا منه أن يتحاور مع الإخوة الكرد بكل شفافية، وبعيداً عن لغة التهديد والسلاح، فالخاسر الأكبر في كل ذلك هو العراق.

---

(١) أحمد فوزي، عبد السلام محمد عارف..سيرته..محاكمته..مصرعه، ص٧.

كان الرئيس عارف في أيامه الأخيرة متبرماً من الوضع الداخلي في العراق، وبدأت تظهر عليه الغطرسة، وعدم الاستماع إلى بعض النصائح المخلصة ممن يكنون له المودة الخالصة، وكذلك الحرص على العراق[1].

يؤيد ذلك ما يرويه الشيخ سليمان الضاري حين قال: زرنا الرئيس عبد السلام قبل وفاته بفترة قصيرة، فوجدناه متبرماً بعض الشيء من نصائحنا، وعرفنا من خلال حديثه معنا أن بعض الوجهاء وشيوخ العشائر صاروا يؤلبونه على بعض الدول مثل الكويت، وكذلك ضد الكرد، لذلك قال لي أخونا خميس عند انصرافنا من مقابلته: لو بقي الرجل على تلك الحال لن يستمر في السلطة، وربما في الحياة، وقد نصحناه بما يرضي الله، ويرضي ضمائرنا، ولن نأتي بعد اليوم للقائه حفاظاً على كرامتنا.

ث- تنّصيب عبد الرحمن عارف رئيساً للجمهورية:

حسب وصية الرئيس عارف فقد دُفن إلى جوار والده في مسجد الشيخ ضاري، وحضرت كل زوبع مراسم دفنه، لأنه جرى في مضارب قبيلتهم، وبطبيعة الحال حضر شيوخ عشائرها وعلى رأسهم الشيخ خميس الضاري وأخوه سليمان.

كانت أنظار الحكومة العراقية وقيادات الدول العربية تتجه صوب رئيس الوزراء الدكتور عبد الرحمن البزاز (رحمه الله) لخلافة الرئيس عبد السلام، وهو أمر طبيعي، لكنه لم يغب عن تفكير الحاضرين من رؤساء زوبع، الذين يرون في عبد الرحمن عارف شخصية كفوءة وهادئة، وتصلح لقيادة البلد، وتبعده عن الخط الثوري الذي يطغى على تفكير النخبة الحاكمة، لذلك دعوا أحد مهاويل زوبع وطلبوا منه أن يهزج بما يتلاءم وما أرادوا، فهزج الرجل قائلاً: (عم أحمد كل أحنا أريده).

---

(١) أحمد فوزي، عبد السلام عارف..سيرته..محاكمته..مصرعه، ص٧.

هذه الأهزوجة التي يطلب فيها الرجل تنصيب عبد الرحمن عارف رئيساً لاقت صدىً واسعاً لدى قيادات الجيش التي تكن الحب والولاء له.

وهكذا قررت قيادات الجيش أن يُنصّب عبد الرحمن عارف رئيساً للعراق، وهو الاختيار الصحيح والموفق، والذي من نتائجه عاش العراق عصراً ذهبياً لم يتسن له مثله في تاريخه الحديث، رغم قصر عهد الرئيس عبد الرحمن عارف رحمه الله.

لقد أبدى الرجل حصافة ودهاء وتواضعاً منقطع النظير، من أجل مصلحة العراق، وكان من رأفته وخشيته من الله أنه لم يوقع على قرار إعدام بحق أحد العراقيين صدر في عهده، ثم قامت(ثورة ١٩٦٨م)، فوجدوا ذلك الحكم في درج مكتبه ولم يضع عليه توقيعه الخاص.

ج- علاقة الرئيس عبد الرحمن عارف بزوبع:

الرئيس عبد الرحمن عارف هو شقيق الرئيس عبد السلام، وهو لا يختلف عنه في تمسكه بصلة الرحم التي تربطه بزوبع، ولا يقل عنه اعتزازاً بهم، وتقديراً واحتراماً لشيوخها، لذلك كان في كل زيارة له إلى قبر أبيه وأخيه يعرج على مضيف الشيخ سليمان الضاري للسلام عليه، وبنفس الوضع الذي درج عليه أخوه عبد السلام، فهما لا يحبان المظاهر والبهرجة، فكان يأتي بصحبة سائقه الشخصي فقط.

لأن العراق في عهد الرئيس عبد الرحمن شهد أمناً وأماناً، فلم يحدث شيء مما يوجب إبداء النصح للرئيس، ولم يسع الشيخ خميس أو أخوه سليمان إلى مقابلته يوماً، ودام ذلك الأمر طيلة عهده، إلا في حال زيارته لهما، أو مهاتفتهما للسلام عليهما.

قبل أيام من الإطاحة بالرئيس عارف اتصل بالشيخ سليمان الضاري الداعية والمفكر الإسلامي والوزير الأسبق اللواء الركن محمود شيت خطاب - رحمه الله- ليخبره أن تحركات تثير الشك داخل صفوف بعض

القادة والقطعات، وأنه يتوقع حصول انقلاب على السلطة، لكنه غير متأكد من دقة المعلومات التي بحوزته، وهو لا يستطيع أن إيصالها إلى الرئيس عارف خشية أن يفتضح أمره، لذلك أراد أن يوصل شكوكه ومخاوفه عن طريقه إلى الرئيس.

هب الشيخ سليمان من فوره لتلبية النداء، بعد أن أخبر أخاه الأكبر خميس، فطلبا مقابلة الرئيس، وقد استغرب الرئيس طلبهما الذي أصرا فيه على مقابلته بصورة مستعجلة، وفي اللقاء طرحا عليه ما تناهى إلى سمعهما من معلومات، لكنهما وجدا الرئيس في حالة استرخاء، وشعور بالأمان، حين قال لهما: ياخال أعرف وأثق أن حرصكما على العراق هو الذي يدعوكما لتصديق مثل تلك المزاعم، واعلم ياخال أن البلد في أيد أمينة إن شاء الله. لكن هذا الكلام لم يُغن شيئاً في خاطر الشيخ خميس وأخيه سليمان، اللذان قالا له: يا أبا قيس العراق أكبر منا جميعاً، فإن كنت لا تستطيع حمل المسؤولية تجاهه، أو أنك زاهد في السلطة فتنح عنها وسلمها لغيرك، لكي لا يقع ما نخشى، ويأتي إلى السلطة من هو حريص عليها أكثر من حرصه على العراق.

تقبّل الرئيس ذلك النصح برحابة صدر، واحترام كبير للشيخين الضاري، ووعدهما أن لا يحصل إلا كل خير، لكن الذي حصل هو ما توقعه ذلك الرجل الغيور اللواء الركن محمود شيت خطاب، فقد أزيح الرئيس عارف عن السلطة بعد أيام من ذلك اللقاء، ولات ساعة مندّم .

رابعاً- علاقة زوبع بسلطة حزب البعث:

آثار العلاقة الوديّة بين زوبع والعارفييّن كانت واضحة وجليّة على الموقف الذي تبناه بعض قادة (ثورة تموز ١٩٦٨م) ممن زوبع، وكثير من البعثيين المؤدلجين، وهم يطلقون على زوبع تسمية (العارفيين، والرجعيين)، وكان بعضهم لا يُخفي تبرمه منهم، وضجره حتى من سماع أسمهم، رغم أن زوبع لم تكن طرفاً في السلطة، أو في السلك الإداري للدولة، فلا يذكر تاريخ العراق الحديث أن أحد أبنائها أو حتى

أبناء مشيختها قد تبوأ موقعاً وزارياً أو إدارياً رفيعاً في عهد العارفيّين، ولم تطلب أو تحصل على منافع مادية أو معنوية من السلطة يوماً، وهو ما عايشناه بكل تفاصيله في ذلك الوقت، ومن المحطات التي نقف عندها لتوضيح نوع العلاقة بين زوبع وسلطة حزب البعث:

أ- علاقة الرئيس أحمد حسن البكر بزوبع:

عمل الرئيس البكر في بداية شبابه معلماً في المدرسة الوحيدة في أبو غريب، في منطقة العبّادي مضارب مشيخة زوبع، وهي مدرسة أبو غريب الرسمية، التي أسست عام (١٩٣٦م)، ولصعوبة المواصلات في ذلك الوقت سكن في العبّادي، مجاوراً الشيخ درع الظاهر شيخ قبيلة زوبع، فكرّمه غاية التكريم، وأحسن جواره، وكان بين ظهراني زوبع معززاً مكرماً، ونشأت بينه وبين كثير منهم علاقات صداقة ومودة، لا سيما مشايخ ووجوه زوبع الذين يزورون الشيخ درع، ويلتقي بهم في مضيفه.

بقي هناك مدة سنتين، ثم انتقل إلى مدرسة أخرى، في منطقة الصقلاوية قرب الفلوجة، وبعدها قرر الانتساب إلى الكلية العسكرية، لكنه لم يُفلح في الحصول على مُبتغاه، فلجأ إلى الشيخ خميس الضاري، وكان حينها نائباً في البرلمان، ليتوسط له في قضيته، وبالفعل قُبل كطالب في الكلية العسكرية.

لم ينس الرجل تلك المواقف، فكان صمام أمان للعلاقة المتوترة بين بعض رفاقه وشيوخ القبائل عموماً، وتجاه زوبع بخاصة، لاعتبارات إضافية، وهي علاقتها بالعارفيّين، وقد بادر إلى طلب مقابلة الشيخ خميس وأخيه سليمان، فلبوا الطلب، ووجدوا منه ذلك الإنسان الذي عرفوه، متواضعاً ودوداً، وسألهم عما يرغبون طلبه منهم لتلبيته لهم، فما كان من الشيخ خميس إلا أن قال له وبذات الأريحية والصراحة التي عُرف بها: لا نريد يا أبا هيثم إلا حفظ كرامتنا.

يتكرر المشهد الذي عرفناه عن الرئيس عبد السلام عارف حين أوصى أن يُدفن في مسجد الشيخ ضاري بجانب ضريح والده، وبعد عقود من الزمن يوصي الرئيس البكر أن يُدفن عند وفاته إلى جانب أبنه وزوجته في مقبرة الكرخ في خان ضاري، والتي لا تبعد عن مضيف الشيخ سليمان الضاري سوى عشرات الأمتار، وهكذا كان، وإذا بالرئيس عبد السلام ابن مدينة عانه والرئيس البكر ابن مدينة تكريت البعيدتين عن بعضهما وعن أبو غريب يرقدان رقودهما الأبدي هناك في مضارب زوبع.

ب- علاقة الرئيس صدام حسين بقبيلة زوبع[١]:

ليس من قبيل الصدف أو الادعاء أن تكون لزوبع علاقات متميزة مع أغلب أبناء العراق، وأن لها فضل أو بعض فضل على بعضهم، فلا ريب أن تجد زعماء السلطة في العراق يكنّون لزوبع احتراماً متميزاً، وهو ثمرة حب وتفاني زوبع ومشايخها في خدمة العراق وأهله، وليس غريباً عليهم ذلك وقد وهبوا الدماء والأرواح من أجل العراق، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

كانت زوبع وشيوخها مثابة من مثابات العراق الشامخة، والتي يحط عندها رحال كل عراقي يلوذ بها ساعة الكرب، ومن أولئك الرئيس صدام حسين، حين توارى عن عيون السلطة في عهد الرئيس عبد السلام عارف، في بيت الشيخ فنر صفوك الياور، أحد مشايخ قبيلة شمّر، والذي تربطه بالشيخ خميس الضاري علاقة قربى ورحم، وكذلك المصاهرة بينهما.

كان الرئيس صدام صديقاً حميماً للشيخ طلال الفنر، لذلك استضافه في بيت والده فنر الياور، وقد أيقن صدام حسين بحسه الأمني المرهف أنه كلما كان قريباً من الخصم كان في أمان أكبر كما يُقال، لذلك لجأ إلى

---

(١) للمزيد ينظر: عبد الحكيم الضاري، الشيخ حارث الضاري كما عرفته شهادة للتاريخ، ص٦٨-٨٣.

حمى هذا البيت، لأن السلطة لن تفكر لحظة أنه سيلجأ إليه، وكذلك لما لهذا البيت من رمزية اعتبارية لدى السلطة.

بعد اعتقال صدام حسين من قبل السلطات الأمنية اتصل بالشيخ خميس صديقه الحاج خير الله طلفاح، وطلب منه أن يعمل ما في وسعه للحصول على عفو عن ابن أخته صدام، فوعده خيراً، وبالفعل اتصل بالرئيس عبد السلام راجياً منه أن يُطلق سراحه، وذكّره بالعلاقة التي تربطه بمشايخ التكارته، ووقوفهم إلى جانبهم في الرمادي لقتال الإنكليز، وعلاقتهم بالحاج خير الله طلفاح، وهو ابن أخته، فتم إطلاق سراحه.

ت- لقاء الشيخين خميس وسليمان الضاري بالرئيس صدام حسين:

في بداية تولي الرئيس صدام حسين السلطة، أرسل في طلب مقابلة الشيخين خميس وسليمان الضاري، وقد لبيا الطلب، رغم عدم رغبتهما في ذلك، لكبر سنهما، ومحاولتهما دائماً الانقطاع عن أي علاقة تربطهما بالسلطة.

خلال اللقاء أبدى الرئيس صدام احتراماً وتوقيراً كبيراً لهما، ومودة يصفانها بأنها غير زائفة، أو أنها من نوع المجاملات، ومن خلال اللقاء عرفا أنه مطّلع على كل صغيرة وكبيرة في البلد، وهو يُقيّم الناس الذين تحدث عنهم تقييماً حقيقياً، وكذلك يعرف الكثير عن علاقتهما بالرئيس البكر.

قبل نهاية اللقاء الذي تمنى أن يطول أكثر لولا معرفته بحالة الرجلين الصحية ومقتضيات العمر المديد الذي عاشاه؛ طلب منهما أن يقدما له طلباتهما، ووعدهما أن يستجيب لها جميعاً، لظنه أنهما حملا معهما بعض المطالب، لكن الشيخ خميس شكره على حفاوة الاستقبال، وعلى تلك المودة الصادقة التي أبداها تجاههما، وقال له: سيادة الرئيس أبا عدي .. أبناء قبيلة زوبع هم أبناء العراق، وأنت الآن في مقام الوالد لهم، ولا يفرّقهم عن العراقيين شيء آخر، أما نحن فشيخان كبيران، أحدنا في

شتاء العمر، والآخر في خريفه، لا نحتاج من الدنيا شيء، إلا حفظ كرامتنا وكرامة قبيلتنا.

يذكر الرجلان أنه تأثر كثيراً عند سماعه ذلك الكلام، وأكبر فيهما عزة النفس، وصلابة المواقف على مدى تاريخيهما، ثم قال لهما: كرامتكما من كرامة صدام حسين، وكذلك كل عراقي شريف، وصدام لن يسمح أن تُمس كرامته، ولقائي بكما هو فخر لي، كما أن تاريخكم هو فخر لكل عراقي.

لم يكن ذلك الأمر غريباً على خميس الضاري، فالكرامة مُبتغاه في هذه الدنيا، وعزة النفس ديدنه في تعامله مع الآخرين، وقد صانها في أشد الظروف قسوة، ومما يُذكر عنه في هذا الصدد: أن الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله قد زار العراق عام (١٩٥٧م)، فأهدى لكل واحد من شيوخ القبائل والعشائر ووجهاء العراق مبلغ (٥٠٠) دينار، وهو يعادل أو يزيد عن مليار دينار في وقتنا هذا، وكان العرف العشائري يقول: إن هدايا الملوك والأمراء لا تُرد. لكن الشيخ خميس اعتذر عن قبولها، رغم أنه كان قبل يومين قد استدان من أحد جيرانه المسيحيين (٢٠) ديناراً.

بعد اللقاء مع الرئيس صدام أبدى الشيخ خميس رأيه في شخصيته، والذي أسرّه إلى أخيه سليمان، فيذكر سليمان ذلك الأمر بعد حين إذ قال: بعد الفراغ من مقابلة الرئيس صدام حسين وفي طريق عودتنا إلى البيت في كرادة مريم ببغداد التفت إليّ (أخونا) - يعني بذلك خميس- بعد صمت استغرق طويلاً فقال: سليمان. قلت: عونك. فقال: الرجل محّمّل مراجل تحّميل[١].

قول الشيخ خميس في صدام حسين لم يكن في وارد المديح أو الرياء، ولم يبن ذلك القول على أساس معطيات عملية، شاهدها أو سمع عنها، توحي له بالذي قال، لكن فراسته ومعرفته بالرجال هي وحدها التي دعته

---

(١) أي أنه في منتهى الشجاعة.

إلى أن يستنتج ذلك الرأي، وقد تبيّن لنا صدق فراسته وإن بعد عقود من الزمان .

ث- مصادرة أرض آل الضاري:

قررت الدولة تطوير أمانة بغداد في عهد الرئيس صدام حسين، ومن متطلبات ذلك القيام بإزالة المجمعات السكنية العشوائية المحيطة بأمانة بغداد، وتقرر نقلها إلى حزام بغداد الكبرى، شرط أن لا تقام على أراض زراعية، وكانت من تلك المناطق خان ضاري، حيث توجد أرض كبيرة لا تصلح للزراعة، وهي مقاطعة العبّادي وهور الباشا، لكن وبقدرة قادر تحولت التصميمات لتقام المناطق السكنية البديلة في مقاطعة المحّمودي الزراعية الخصبة، وقامت السلطات المختصة بمصادرة تلك الأرض، إلا القليل منها، بعد أن صودر كثير منها في عهد الرئيس قاسم.

الغريب أن الأرض قد وزعت بالمجان على أصحاب العشوائيات، الذين نقلتهم الدولة من مناطق الشعلة والمعامل في التاجي، بينما أنذر أصحاب الأرض الحقيقيون بإخلاء مساكنهم، لأنها تقع ضمن المخطط الحضري للمنطقة المستحدثة، وبعد التي واللُتيّا سُمح لهم بالبقاء شرط شراء الأرض التي أقاموا عليها منازلهم من الدولة، وبسعر السوق، والأدهى وأمر أن أصحاب الأرض عائلة الضاري والذين اشترى آباؤهم تلك الأرض من الدولة العثمانية كما بينا سابقاً؛ لم يعاملوا كما عومل الناس الذين يسكنون معهم آباً عن جد على تلك الأرض، فقد وجد الذين تابعوا الأمر أن كل من ينتهي اسمه الثلاثي أو الرباعي (بالضاري) قد زيدت تقديرات سعر شرائه للأرض التي أقام عليها مسكنه، وقد حاول البعض أن يقدم شكوى إلى الرئيس صدام ضد تلك اللجنة، وقد أخبرهم المحامون أن الدولة لن تزيل البناء الذي أقيم على الأرض الخاصة بهم لأنها أصبحت مدينة كبيرة، وكذلك لن تعيد لهم فرق السعر الذي دفعوه للدولة على خلاف التعليمات، ولكن ربما سيأمر الرئيس بتعويضهم بقرار خاص منه، وكذلك سيعاقب اللجنة الظالمة أشد العقوبات، وربما سيأمر

بإعدامهم، لأنها خرّبت مئات الدونمات الزراعية، عن قصد خبيث وسابق إصرار.

حين علم المتحمّسون لفكرة الشكوى بتلك الأمور؛ قرروا أن يعدلوا عنها، لأنهم رغم الظلم والحيف الذي وقع عليهم لا يريدون أن يكونوا سبباً في إزهاق أرواح الناس، حتى إن كان هؤلاء الناس هم الذين ظلموهم.

هنا أجد في تلك الوقائع إرهاصات أولى لما حدث ويحدث للعراق من مآسٍ، وإلا ما السبب وراء كل تلك الأعمال التي لا تؤدي إلا إلى نتيجة واحدة، وهي إضعاف لحمة الشعب العراقي أمام المؤامرات والدسائس الخارجية التي تُحاك ضد البلد، من خلال إيجاد الذرائع لحدوث احتكاك بين السلطة ومكونات الشعب، ومنها القبائل، مثلما حدث بين السلطة وبعض القبائل في فترات سابقة، والتي لا تخدم إلا أعداء الشعب العراقي.

ج- لقاء الشيخ محمود سليمان الضاري بالرئيس صدام حسين:

عام (١٩٩١م) وقعت أحداث جسام في العراق، بُعيد حرب تحرير الكويت، أضرّت بكيان الدولة، وكانت الشرارة الكبرى لتمزيق نسيج المجتمع العراقي، أو هكذا حاول تصويرها والعمل على ضوئه الذين لا يريدون للعراق خيراً، وهنا بدأت السلطة بمعالجة الأمر من خلال تغييرات جوهرية في سياستها الداخلية، وبخاصة سياستها تجاه القبائل، بعد إدراكها حقيقة أن القبيلة هي أحد مرتكزات الدولة في إشاعة الاستقرار المجتمعي، وهي عضد الدولة في كبح أي محاولة لشق وحدة الصف الوطني، إن تعاملت معها السلطة بالاحترام والتقدير، لذلك أنشئ مكتب خاص بشؤون العشائر في رئاسة الجمهورية، وبدأ الرئيس وأركان السلطة يتعاملون مع القبائل والعشائر العراقية وفق ذلك المنظور، بعد أن ألغيت الألقاب العشائرية في زمن سابق في مخاطبات الحكومة، ورفعت من بطاقات الهوية الخاصة بإفراد الشعب.

صار الرئيس في العهد الجديد يستقبل شيوخ القبائل والعشائر في مناسبات خاصة بهم، فيحضون بتكريمه، أو يزور مضارب تلك القبائل، وهو بين وقت وآخر يرسل في طلب آخرين ليقابلهم في القصر الجمهوري، وتلك الأمور يعرفها جيداً كل من عاش في العراق في ذلك العهد، وعايش تلك الأحداث.

أرسل الرئيس صدام رسالة إلى مشيّخة زوبع يطلب فيها حضور من يمثلها لمقابلته، فاجتمع أهل الرأي وقرروا انتداب الشيخ محمود الضاري ممثلاً عنهم في تلك المقابلة، وأوصوه أن لا يتطرق لذكر أي أمر شخصي، وأن لا يطرح على الرئيس الأمور التي تدور في خلد جميع أبناء زوبع، والتي قد يتحسس منها، أو ربما ستثير غضبه، وبخاصة أن القبيلة تريد أن تنأى ما استطاعت عن أي أمر يثير احتكاكاً مع السلطة، بعد نأت بنفسها عن السلطة وأهل السلطة، حفاظاً على كرامتها.

في الموعد المقرر للمقابلة كان الشيخ محمود في القصر الجمهوري، وكان الرئيس في انتظاره في الوقت الذي حددوه له، وهو يروي عن ذلك اللقاء: حين دخلت على الرئيس صدام شعرت ببعض الرهبة، وأنا الذي لم أتهيب رجلاً أو موقفاً في حياتي، فكان الرجل يمتلئ مهابة لم أعهد مثلها في سواه، لكنه أزال هواجسي وهو يستقبلني ويعانقني، وكله تبسّط وتودد، ووجدته يعرف الكثير عن القبائل والرجال والمواقف، وهو بين الحين والآخر يسأل عن أحوالنا وعمن يعرف منا بالأسماء، ما أثار استغرابي.

يضيف الشيخ محمود: فاجأني بسؤال لم أتوقع أن يسألني إياه حين قال: أبا شاكر .. لِمَ لمْ تتقربوا من السلطة، وبخاصة مني، رغم أني أكن لكم كل الاحترام. فحاولت أن يكون جوابي دبلوماسياً إلى أبعد حد، فقلت له: سيادة الرئيس إن البلد يمر بظروف صعبة، وعليكم مسؤوليات جسام، فلا نريد أن نثقل كاهلكم. لكن الرئيس ابتسم، ثم عقب قائلاً: أبا شاكر .. أنا واثق كل الثقة أن كلامك من قبيل المجاملات وليس الحقيقة، وأنا أود

أن أعرف الحقيقة، وقد سمعت عنك أنك رجل شجاع صريح. فابتسمت تعجباً من شدة ذكائه وإطلاعه، ثم قلت له: صدقت والله يا أبا عدي، ومثلك لا يخفى عليه أمر، فأهلنا علمونا أن لا نقف على أبواب الحكام. وهنا ضحك حتى قهقه، ثم قال: نعم .. الآن .. الآن قلت الحقيقة التي طالما سمعتها عنكم. ثم صمت لحظة ليقول لي بعدها، أبا شاكر: صدقت، فالسلطة مثل نار الشتاء، العاقل يتدفأ بها عن بعد، أما الذي غير ذلك فإنه يرمي نفسه فيها من شدة البرد دون أن يشعر فيحترق.

وحين سألني عن حال زوبع، لم أجد مفراً من قول الحقيقة المرة التي يكتنزها قلبي وقلب كل زوبعي، فصدحت بها وأنا متيقن أن عواقبها وخيمة، فقلت له إن زوبع تعتب على الدولة، فقد أعدمت أربعة رجال من أبنائها، ومن بيت واحد، دون أن نعرف السبب الحقيقي لذلك حتى الآن، وصادرت أرضنا، تراث الآباء والأجداد.

عندما سمع الرئيس تلك الحقائق قطب جبينه، وأطرق لحظة، ثم عاد بعدها إلى وضعه السابق الذي استقبلني به وهو يقول: أقسم لك يا أبا شاكر أن لا علم لي بتلك الأمور، فهي من اختصاص القضاء والحكومة، وأنا حاضر لكل ما يرضي زوبع، وكما تعرف صدام .. إن وعد وفى. وهنا بعد أن أقسم الرجل على ما يقول، وبعد أن أفرغ الشيخ محمود ما في جعبته من مرارة السكوت على الظلم؛ كان لا بد أن يقابل حسن أخلاق الرجل بما يستحق، فقال له: لا شك أبو عدي إنك قول وفعل، وأنا نيابة عن زوبع أشكر لك موقفك هذا منا.

انتهت المقابلة، فأوعز إلى العقيد أرشد بمرافقة الضاري إلى سيارته، بعد أن ودعه عند باب القصر، وكان قلب العقيد أرشد مرافق الرئيس قد بلغ حنجرته؛ خشية من غضب الرئيس على الشيخ محمود الضاري، بعد الذي سمعه منه، وهو أمر لم يألفوه منه مع أحد من زائريه، ومن قبل زائريه أيضاً، كما ذكر العقيد أرشد للشيخ محمود، وما يؤكد ذلك عتب المحبة والمودة الذي عاتب به السيد لطيف نصيف جاسم عضو مجلس

قيادة الثورة الشيخ محمود، وكانت تربط عائلته بعائلة الضاري علاقة صداقة ومودة قديمة، إذ قال له: لقد عهدتك يا عم محمود متسامحاً وبسيطاً مع أبسط الناس، ولم أكن أتوقع أن تخاطب الرئيس بهذا الشكل، الذي جعله يغضب غضباً شديداً، لكنه والحمد لله قد تمالك ثورة غضبه، وأنا متأكد كل التأكيد لو أن أحداً غيرك خاطبه بهذا الكلام أو دونه لتصرف معه بكل قسوة، وقد خشينا عليك حينها كثيراً من ثورة غضبه .

ح- موقف علي حسن المجيد(١) من زوبع:

بعد عام (١٩٩١م) بدأت السلطة صفحة جديدة في تعاملها مع القبائل كما ذكنا سابقاً، حيث أنشأت السلطة مكتباً لشؤون العشائر مرتبط بالرئيس صدام حسين مباشرة، لذلك بادر كثير من أبناء القبائل والعشائر إلى التحقيق في أنسابهم، وعادت بعض العشائر المتحالفة مع قبائل أخرى إلى قبائلها التي تنتسب إليها نسباً.

بادر أحد أبناء عشيرة الفلوجيين المتحالفة مع زوبع بطلب العودة إلى قبيلته، وهي قبيلة ألبو ناصر التكريتية، وهم أبناء عمومة الرئيس صدام حسين، وكان ذلك الرجل عضواً في حزب البعث، لذلك مر طلبه على نظر علي حسن المجيد ابن عم الرئيس صدام حسين، والقيادي الكبير في الحزب في ذلك الوقت، وحين رأى الطلب استدعى الرجل ليعلم سبب طلبه، وهو يعرف أن تلك العشيرة قد تحالفت مع زوبع منذ عشرات السنين، فسأله عما إذا كانت لهم خلافات مع زوبع تستدعي انفصالهم عنهم، لكن تبيّن له أن لا أمر يستدعي ذلك الطلب، وأن الرجل ليس شيخ عشيرة، أو حتى وجيهاً من الوجهاء، لذلك عنّفه، وخاطبه قائلاً: الزوبعية – لقب زوبع- شرف لمن يحمله، ولو كانت تشترى بالمال لشتريناها.

---

(١) علي حسن المجيد: ابن عم الرئيس صدام حسين، تبوء مناصب رفيعة في الحزب والدولة، اتهم في قضية حلبجة، وأعدم مع بقية أركان السلطة العراقية بعد احتلال العراق.

ذلك الموقف ينم عن احترام كبير لزوبع، رغم أن السلطة كانت تضعها في خانة (غير السائرين في خط الحزب والثورة)، ولم يتكّون ذلك التصور لدى علي حسن المجيد وغيره عن زوبع إلا لأنهم يعلمون علم اليقين أنها ابنة العراق البارة، ولن يؤتى العراق من قبلها يوماً مهما كانت الأسباب، ويعلمون أنها طالما عضت على الجراح، في سلطة حزب البعث، وفي العهود التي سبقته، مقدمة العراق على كل غالٍ، وأنها لن تقف يوماً في أي صف غير صف الوطنيين المخلصين من أبناء العراق، وكذلك فهي زاهدة في السلطة، وبعيدة عن أهلها.

ما أتحدث عنه هنا ليس من قبيل المشاعر الشخصية، بل هو واقع يعرفه الجميع، وقد باح به لي أحد معارفي وزميل دراسة سابقاً، وكان بدرجة رفيق في حزب البعث، إذ قال لي يوماً: حظكم كبير- يعني زوبع- لأنكم لم تتقربوا يوماً من السلطة، سواء في هذا العهد أو العهود التي سبقته، لذلك كنتم في منأى عن الاحتكاك بها، كما حدث مع بقية القبائل، فكسبتم احترامها، واحترام وثقة بقية أبناء الشعب العراقي وقبائله وطوائفه.

خ- موقف الشيخ ظاهر الضاري قُبيل غزو العراق عام (٢٠٠٣م):

قُبيل الحرب الدولية على العراق عام (٢٠٠٣م) توافدت على البلد قنوات التلفزة، والقنوات الفضائية، ومراسلو الصحف والمجلات، ومن هؤلاء مراسل صحيفة نيويوركر الأمريكية، فزار الشيخ ظاهر الضاري في مضيفه في خان ضاري، وطرح عليه كل الأسئلة التي تدور في خلده، والتي أعدها مسبقاً طبعاً، ولا تخلو تلك الأسئلة من طبيعة استخبارية، فأغلب هؤلاء الذين جاءوا من أمريكا إما أن يكونوا ضباط مخابرات، أو أنهم يرتبطون بدوائر مخابراتية أمريكية.

كان السؤال الأهم لديه والذي ركز على إجابة الشيخ ظاهر عنه هو: هل ستحاربون مع صدام حسين ضد التحالف الدولي؟. فكان جواب الشيخ الضاري حاسماً وقاطعاً: سنقاتل عن بلدنا سواء مع صدام أو

بدونه. لكن المراسل (المفترض) حاول أن يصور نفسه على أنه لم يفهم الترجمة الحرفية لكلامه، فأعاد السؤال مرة ثانية عليه، لكن الشيخ هذه المرة أخبره فصل الخطاب وهو ما لم يجرأ أن يقوله أي عراقي، وفي الظروف التي يمر بها البلد في ذلك الوقت: **البلد بلدنا قبل أن يحكمه الرئيس صدام، وهو ليس ملك للحاكم، كي تسألني .. هل سنقاتل معه، فالبلد بلدنا، وسنقاتل ونقاتل ونقاتل دفاعاً عنه.**



الملك سعود بن عبد العزيز والملك فيصل الثاني خلال زيارة الملك سعود للعراق عام ١٩٥٧



الرئيس عبد الرحمن عارف والشيخ سليمان الضاري في زيارة للرئيس إلى خان ضاري



علاقة زوبع بالدولة العثمانيّة

تميّزت علاقة زوبع بالدولة العثمانية وسلطتها في بغداد بالمد والجز، فتكون في أحسن حالاتها طوراً، وطوراً آخر تتجه إلى الصدام، والصدام المسلح أحياناً، ولكل تلك الأطوار شواهد تاريخية، في وقائع مشهورة، سطّرتها صفحات ذاكرة أبناء زوبع، وهو على النقيض من رأي بعض الباحثين في تاريخ العراق الحديث، والذين وصفوا تلك العلاقة على أنها علاقة تابع بمتبوع، أو في أحسن الأحوال هي علاقة حليفين، ضاربين عرض الحائط كل تاريخ زوبع الوطني، سواء بوجود الدولة العثمانية، أو بعد زوال حكمها من العراق، ويتهافت ذلك الرأي أمام أول دليل نسوقه هنا، وهو نهوض زوبع لقتال البريطانيين بعد احتلالهم للعراق، وزوال سلطة الدولة العثمانية عنه، بل وانهيارها وسقوطها وزوالها من الوجود كلياً.

للوقوف على أسرار تلك العلاقة بين الطرفين نسوق شهادات عن أهل الحل والعقد في هذا الشأن، والمعنيين بتلك العلاقة وآثارها، وببعض الوقائع التاريخية، التي تُعد محطات كبيرة في تاريخ العلاقة بين زوبع والدولة العثمانية وهي:

أولاً- رأي الشيخ سليمان الضاري في العثمانيين:

في عام (١٩٩٠م) حدّثنا الشيخ سليمان عن علاقتهم بالدولة العثمانية، وقد جاوز عمره حينها التسعين، فكان حديثاً صادقاً كعادته، وشفافاً، وكان جواباً عن سؤال وجهتهُ له حول رأيه في العثمانيين، فقال: العثمانيون في عهودهم الأولى كانوا أشبه ما يكونوا بعصور الإسلام الأولى، فقد رفعوا راية الجهاد من أجل صيانة بيضة الإسلام، وكانوا رجالاً صادقين ومضحّين بحياتهم من أجل الإسلام والمسلمين، وحتى السلطان عبد الحميد الثاني الذي يُتهم بشر الاتهامات حاول أن يعيد هيبة الدولة والإسلام، وما العداء والتشويه لسمعته إلا لأنه صادق في تبنيه مبادئ الإسلام، ومحاولته جمع شمل الأمة، لذلك وقف الغرب ضده، في محاولة منهم للإجهاز على دولة حملت لواء الإسلام، وقد انساق وراء

تلك الدعوات بعض من يدعي الثقافة، ويدعوا إلى التحضر على الطريقة الغربية، التي تخالف في أغلب مفاصلها مبادئ شريعتنا الإسلامية.

وأكد لي أن زوبع لم تكن متوافقة مع السياسات العثمانية بصورة دائمة، وبخاصة في عهدها الأخير، حيث سيطرت على مقاليد السلطة الجمعيات العلنية والسريّة، وقادة الجيش، وبعض السياسيين الذين تختلف توجّهاتهم مع توجّهات السلاطين العثمانيين المتأخرين، وكانت كل هذه التكتّلات هي التي تحرك سياسات الدولة باسم العثمانيين، ولتلك الأسباب بدأت القوميات المنضوية تحت دولة الخلافة تتحسس من ذلك الوضع، وتعارضه أحياناً، وهو ما جعل السلطة تستخدم سياسة متشددة تجاهها، ومن الذين نالهم جانب من مساوئ تلك السياسات هم العرب، وقد نال قبيلتنا شيء كثير من المظالم على أيدي بعض ولاة العثمانيين في العراق، وقادتها العسكريين، لكن ذلك لم يمنعها من القيام بواجبها الشرعي والوطني بالوقوف إلى جانب السلطة العثمانية في العراق ومقاتلة المحتل البريطاني .

ثانياً- المواجهة بين العثمانيين وقبيلة شمّر:

وصلت إلى السلطة العثمانية في الأستانة تقارير تفيد أن شيخ قبيلة شمّر صفوك فارس الجرباء يتعاون مع مجموعة من السياسيين والضباط للإطاحة بنظام الحكم، وتم إلقاء القبض على بعض المتهمين، الذين أكدوا صحة تلك التقارير، وعلى ضوء تلك الإفادات قررت السلطة إلقاء القبض على الشيخ صفوك، الذي احتمى بقبيلته، ولم تستطع السلطات المحلية العثمانية أن تنال منه، ما أثار غضب العاصمة، فحشدت القوات العسكرية لمعاقبة قبيلة شمّر، معتبرة إياها خارجة على القانون، وأصدرت أوامرها إلى حلفائها من القبائل أن تتخذ ذات الإجراءات التي اتخذتها السلطة ضدها، ولم تكتف بذلك الأمر حين أصدرت حكماً غيابياً بالإعدام على شيخ شمّر صفوك الجرباء.

قرّر الشيخ صفوك بدهائه وسعة إدراكه لعواقب الأمور أن المواجهة مع الدولة تعتبر انتحاراً، ومهلكة لقبيلته يتحمل وزرها، لذلك قرر الرحيل على عجل، والالتحاق بأهله وعزوته شمّر في نجد، حيث يكون في ركن ركين بين ظهرانيهم، فسار بشمّر إلى مُبتغاه.

في تلك الأثناء حدث احتكاك في بغداد بين أحد أبناء محّمود زعيم زوبع، وهو فارس المحّمود، وبعض الجنود العثمانيين، تطوّر إلى نزاع قتل على إثره عدداً من أولئك الجنود، ثم لاذ بحمى عشيرته هارباً من وجه السلطة .

وصلت الأخبار إلى الشيخ محّمود أن السلطة في بغداد جهّزت الجيش للانقضاض على زوبع فجراً، وأنها ستضربهم بالمدفعية، فما كان منه إلا أن أعلن الرحيل فوراً، ثم قام في الليل بعملية استباقية باغت فيها القوات المتجحفلة في منطقة العامرية الحالية غرب بغداد، فأعطب مدافعهم، وغنم عدداً من البنادق، التي لم تكن زوبع تعرف كيفية استخدامها في ذلك الحين .

لحق محّمود ومن معه من الفرسان بزوبع وقد سارت باتجاه مدينة حديثة في الأنبار، وفي الطريق وردت إليه الأخبار أن شمّر بقيادة الشيخ صفوك الجرباء قد سارت بذات الاتجاه، يريدون حديثة، فالتقى الركبان الشمّريان قريباً من حديثة، بينما كانت القوات العثمانية تُسرع الخطى للحاق بهم، ونصبت الكمائن لتعويق سيرهم .

كانت قيادة شمّر بيد شيخها صفوك الجرباء، والذي أمر فارسها محّمود أن يقود فرسانها في المواجهة الوشيكة مع العثمانيين، أو مع حلفائهم، عند ذلك قرر القائد محّمود أن يعبر فرسان شمّر إلى الناحية الأخرى من نهر الفرات ليلاً، ليكونوا كيميناً لأي تعرض من قبل العشائر التي تتعاون مع العثمانيين، ويؤمنوا عبور القبيلة عند الفجر.

كانت العشائر التي خلف النهر تعلم أن لا طريق تسلكه شمّر لعبور النهر إلا عند مخاضة فيه قرب حديثة، تسمى (الجرن)، لأن شكل النهر هناك يكون شبيهاَ بالقرن، نتيجة استدارته يساراً، وتلك الاستدارة أدت إلى تآكل حواف النهر، مما أدى إلى توسعه، لذلك أصبحت المياه في هذا القسم منه ضحلة، يمكن عبورها بيسر .

عبر محّمود مع ستين رجلاً من صناديد فرسان شمّر ليلاً، وكمن قريباً من المخاضة، بينما أصدر الشيخ صفوك أمره بالتحرك لعبور النهر عند الفجر، وما أن أصبح الركب قريباً من الحافة الأخرى للنهر حتى هاجمتهم العشائر المتربّصة على مسافة قريبة منه، عندها خرج الكمين الذي يقوده محّمود فوقفوا بين الركب والمهاجمين، وكان قد أعد إحدى البنادق للإطلاق، فحشاها بالبارود والرصاص، وهو يستخدمها للمرة الأولى في حياته، ثم أشعل فتيل الإطلاق، ووجهه إلى صدر قائد جحافل العشائر المهاجمة، وما أن تم اشتعال الفتيل حتى انطلقت الرصاصات لتستقر في صدر ذلك القائد، وترديه عن صهوة جواده .

حين رأى الحشد المهاجم قائده يتردى صريعاً وبسلاح لم يعرفوه سابقاً؛ ولوا الأدبار، فلحق بهم الفرسان قتلاً وأسراً، بينما عبرت شمّر بأمان، لتلحق بنجد موطن الآباء، وسُميت تلك المعركة أسماء مختلفة، جميعها تدلل على وقوعها في ذات المكان،وسُميت نسبة إليه، فهي معركة الجرن، ومعركة المخاضه، ومعركة الشريعة، وقد حدثت عام (١٨٠٠م) تقريباً.

ثالثاً- الحكم على الشيخ ظاهر المحّمود بالإعدام:

في إحدى السنين لم تستطع عشائر زوبع دفع ضريبة زروعها للدولة، وعند مطالبة السلطات لها بالسداد أكثر من مرة لم تستجب لعدم قدرتها على الوفاء، وحين طالبت السلطة الشيخ ظاهر أن يجبرهم على الدفع لم يستجب للطلب، فهو يعرف أن قبيلته ليس لديها القدرة على ذلك، وظنت السلطة أنه هو الذي يحرضهم، فقررت اعتقاله، لكنه تخفّى عن

أنظارها، مما جعلها تغضب منه غضباً شديداً، واعتبرته خارجاً على القانون، وبقيت تتعقبه، حتى ألقت القبض عليه في النهاية، وأرسلته مخفوراً إلى الأستانة، وقد أخبره المطّلعون على الشأن هناك أنه سيُحكم عليه بالإعدام، ليكون عبرة لغيره من الشيوخ الذين يمتنعون عن تنفيذ أوامر الدولة.

في الطريق إلى إسطنبول والذي يستمر لفترة طويلة قدر الله له أن يفر وبأعجوبة من أيدي الرجال المكلفين بإيصاله إلى إسطنبول، ثم تخفّى عن الأنظار حتى استطاع أن يجمع المال اللازم لسداد الضريبة، ويقدمه للسلطة، التي عفت عنه حينها، ومنذ ذلك الوقت أصبحت العلاقة متوازنة بينه وبينها، وازدادت الثقة المتبادلة مع الأيام، ونرى ذلك من خلال تعامل السلطة معه، إذ طالما استجابت لمناشداته في العفو عن بعض الناس، ومن شواهد ذلك مطالبته الوالي بالعفو والإفراج عن جماعة من قبيلة الظفير كما مر معنا سابقاً، وكذلك طلب الوالي منه مرافقته إلى حائل، بأمر من الباب العالي، للضغط على الأمير عبد العزيز بن رشيد بوقف أي عمل قتالي مع جيرانه للظروف التي يمر بها حلفاؤه العثمانيون، وهو يعلم مدى تأثير الشيخ ظاهر على ابن رشيد.

رابعاً- حماية بغداد من قبل الشيخ ظاهر المحّمود:

في إحدى حملات الدولة العثمانية للحرب مع الدولة الصفويّة طالبت الشيخ ظاهر بمشاركة زوبع في تلك الحرب، فاعتذر بأنهم ليس لديهم سلاح سوى السيوف والرماح، وتلك الأسلحة أصبحت لا تُستخدم في الحروب بين الدول، لذلك على السلطة أن توفر لهم السلاح الذي تُجهز به جيشها كي يشاركوا، وحين اعتذرت عن وجود ما يطالب به من سلاح وأصرت على مشاركتهم في الحرب؛ طالبهم بإعطائهم سلاح الأفراد الذين يحمون مدينة بغداد، فرفضوا طلبه أيضاً، معتذرين أن حماية بغداد أمر في غاية الأهمية، ولا يمكن أن يفرطوا بسلاح الرجال الذين يحمونها، وهنا عرض عليهم القيام بمهمة حماية بغداد بالسلاح

المتوفر لديه، ويتعهد لهم بأنه سيوفر الأمن والأمان فيها طيلة بقاء الجيش في جبهة القتال، فوافقوا مضطرين لذلك، ومعتمدين على التعهد الذي قطعه على نفسه.

اصطحب الشيخ ظاهر فرساناً من زوبع إلى بغداد، وبقي هناك يسهر على أمنها مدة ستة أشهر، حتى عاد الجيش العثماني من جبهة القتال مع الدولة الصفويّة، فكان أهل بغداد كلما تضايقوا من سلوك الجنود الأتراك يتذكرون حالة الأمن التي نعموا بها في حماية الشيخ ظاهر، والاحترام الكبير من قبل رجاله لهم، وقد سُمي الشيخ ظاهر بعدها (شيخ بغداد).

خامساً- أسرار الاتفاق بين الشيخ ضاري والوالي العثماني:

يروي الشيخ سليمان الضاري أن والده زار الوالي العثماني في داره، وبطلب من الأخير، فاجتمع به على انفراد، ودام اجتماعهما وقتاً طويلاً، وكان ذلك قُبيل إعلان الدولة العثمانية دخول الحرب إلى جانب دول المحور بفترة قصيرة .

ويروي إنه علم من والده أن الوالي قد أفشى له سراً خطيراً خصه به، فذكر له بحسرة وألم إنه غير راضٍ عن دخول الدولة العثمانية الحرب، وإن ذلك الأمر سيجلب الشرور والمفاسد، وقد يؤدي إلى انهيار دولة الخلافة الإسلامية، وهو ما يحز في نفسه كمسلم، لذلك فهو يخطط لتجنيب العراق تلك الكارثة، ويخرجه من آتون الصراع الدولي، بأن يُعلن استقلاله عن الدولة العثمانية، وينأى به عن ساحة الصراع بين المعسكرين المتحاربين، الحلفاء من جهة، ودول المحور من جهة أخرى، وسأل الشيخ ضاري إن كان بإمكانه أن يجمع كلمة العشائر المتحالفة معه، والقبائل التي يثق بوقوفها إلى جانبه إذا ما أعلن ذلك الأمر على الملأ.

لأن الشيخ ضاري له موقف مسبق من تلك الحرب من جهة وحرصه على سلامة العراق من جهة أخرى؛ فقد استجاب لفكرة الوالي، وهو

يرى فيها تجنيب العراق ويلات الحرب، فعاد إلى الديار، واتصل بشيوخ القبائل والعشائر، يطلب منهم الدعم والعون فيما إذا ناداهم لتقديمه له، لكنه لم يُفصح لهم عن أسباب ذلك، وإذ وجد أنه يستطيع الوفاء بالالتزام الذي سيتعهد به للوالي؛ عاد إلى بغداد ليخبره بأنه على أهبة الاستعداد للوقوف إلى جانبه إذا حانت ساعة التنفيذ.

بعد أيام أرسل إليه الوالي طالباً اللقاء به، وعندما تم اللقاء بينهما أسرّه طالباً منه أن لا يبوح بالأمر، وأن يصرف النظر عنه، معللاً ذلك بأن الحرب قد وقعت، وأن العراق لن ينجوا من الوقوع في براثن دول التحالف، لأنها ستعتبره جزءاً من ميراث الدولة العثمانية في حال سقوطها المتوقع بعد انتهاء الحرب، وربما قبل ذلك الموعد، ولا يريد أن يكون أول معولٍ يهوي على صرح الدولة الآيل للسقوط.

سادساً- قتال زوبع إلى جانب العثمانيين:

شاركت زوبع في حروب عدة إلى جانب الدولة العثمانية، فقاتلت بقيادة زعيمها بكر الحمّام إلى جانبهم، في حربهم ضد الدولة الصفويّة، ثم قاتلت تحت راية قبيلة شمّر بقيادة الشيخ صفوك الفارس الجرباء في الحرب ضد الدولة الصفويّة أيضاً، ثم قاتلت معها بقياد الشيخ ضاري المحّمود ضد البريطانيين[١]، في معارك عدة، في سلمان باك، وفي الكوت، وكذلك في الأنبار. وقُبيل معركة سلمان باك توجه الشيخ ضاري إلى جسر قرارة، جنوب بغداد، واجتمع مع القائد العثماني نور الدين في خيمته الخاصة، ليُعدا خطة الهجوم على البريطانيين[٢].

اشتركت زوبع وكثير من القبائل الأخرى في تلك المعركة، وقدمت القبائل تضحيات جسيمة، حالها حال الجيش العثماني، فرغم تكبيده

(١) عبد الجبار العمر، مصرع الكولونيل لجمان، ص٥٤؛ ثامر عبد الحسن العامري، معجم العامري للقبائل والأسر والطوائف في العراق، ج١، ص١٥٣.

(٢) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٣٣- ٣٤.

القوات البريطانية المهاجمة خسائر فادحة وإجبارها على الفرار من ساحة المعركة؛ لكن خسائره كانت كبيرة جداً، مما اضطر القائد العثماني نور الدين أن يُعطي أوامره إلى القوات بالانسحاب إلى بغداد، وهو يظن أن البريطانيين قد انسحبوا من ساحة المعركة لإعادة تشكيل قواتهم.

قررت القبائل العربية المشاركة في المعركة عدم الانسحاب من مواضعها، وأصرت على القتال حتى النهاية، رغم قرار الانسحاب الذي أصدره القائد نور الدين، ومن تلك القبائل، قبيلة الداينية، وزوبع، وألبو محيي الطائية، والقراغول، بينما تابع قسم من رجال تلك القبائل القوات البريطانية المنسحبة من أرض المعركة، محاولين إيقاع أكبر الخسائر فيها، والاستيلاء على السلاح والعتاد، لكن بعضهم فطن إلى حالة الجيش المنسحب، فوجده هروباً وليس انسحاباً، عند ذلك أسرع العودة إلى الشيخ ضاري يخبره حقيقة ما رأى، فما كان منه إلا أن بادر بالذهاب إلى القائد نور الدين ليخبره ما سمع، ويرجو منه عدم الانسحاب، إلى أن يذهب بنفسه ليستوضح الحقيقة.

بعد موافقة القائد نور الدين على اقتراح الشيخ ضاري مشفوعاً بتأييد شيوخ القبائل المشاركة في المعركة؛ قرر نور الدين التريث، وأعطى أوامره بإلغاء أمر الانسحاب، بانتظار ما يستجد من أخبار عن حالة الجيش البريطاني، وما أن عاد ضاري بالخبر اليقين الذي يؤكد توقعاته الأولى حتى انقلب الانسحاب (الهزيمة) إلى نصر متوقع، حين أعاد القائد تشكيل قواته في وضع الهجوم، لمطاردة الجيش البريطاني الهارب من أرض المعركة، مولياً وجهه صوب مدينة الكويت، ليتحصّن فيها.

تحرك الجيش العثماني ترافقه قوات القبائل العربية إلى الكوت على عجل، ليفاجئ القوات البريطانية بتطويقها، وضرب حصار عليها، دام أكثر من أربعين يوماً، حاولت القيادة البريطانية خلاله بشتى الطرق أن تُخلّص جيشها المنكوب من مصير بائس ينتظره، فعرضوا على القائد العثماني أموالاً طائلة، وبالشروط التي يقررها مقابل فك الحصار عن

جيشهم، لكن القائد نور الدين أبا إلا أن يستسلموا خانعين، فكان كما أراد، إذ استسلم الجيش جميعه، والذي يتألف من ثلاثة عشر ألف ضابط وجندي، في معركة لم تخسر فيها القوات العثمانية أية ضحايا، وكانت تلك المعركة ثاني أعظم معركة في تاريخ الدولة العثمانية .

كان للشيخ ضاري دور كبير في هذه الملحمة الكبرى، والتي تتوّجت بذلك النصر العظم على القوات البريطانية، وقد أشرف بنفسه على الأسرى البريطانيين بعد استسلامهم(١)، ولأجل مواقفه تلك نال احترام الدولة العثمانية وتقديرها، ويظهر ذلك الأمر جلياً بعد لجوئه إلى تركيا، حيث عاملته الحكومة التركية كأحد القادة الأتراك، وأقطعته أرضاً واسعة، وبقي على تلك الحال حتى بعد زوال الدولة العثمانية، وفي سلطة الرئيس كمال أتاتورك، إذ أمر بمعاملته معاملة خاصة، واستثني من القرارات التي ألزمت الدولة بها مواطنيها، مثل عدم اعتمار الكوفية والعقال، فكان الشيخ ضاري الوحيد الذي استثني من ذلك القرار .

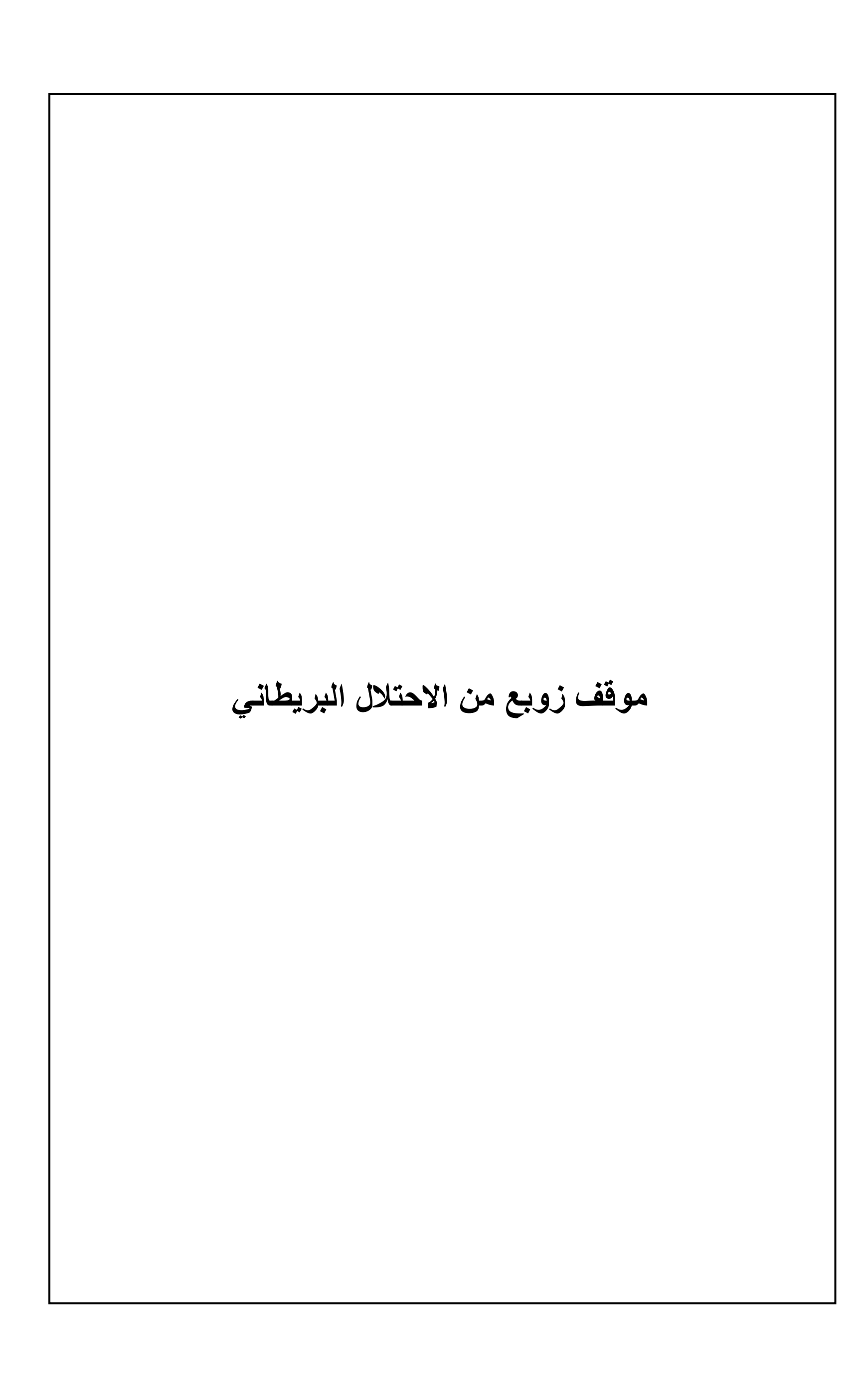
---

(١) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٣٢.

يتوسطهما أحد الولاة العثمانيين



يمين الصورة أمير زبيد رشيد وادي البربوتي ويسارها الشيخ ضاري
يتوسطهما أحد الولاة العثمانيين



موقف زوبع من الاحتلال البريطاني

وقفت زوبع موقفاً مناهضاً ومعادياً للاحتلال البريطاني، منذ اللحظة الأولى التي وطئ فيها أرض العراق، ويتضح ذلك جلياً من خلال نظرة رجال الاحتلال إلى زوبع، وتقييم موقفها تجاههم، فقد ورد في التقرير السري لدائرة الاستخبارات البريطانية الذي يعالج موقف العشائر في منطقة الدليم بعد احتلال بغداد ما يؤيد ذلك، حين أشار إلى أصدقاء الإنكليز من رؤساء بعض العشائر، وسكت عن الشيخ ضاري .. بلا علة، ويُعتبر هذا السكوت في مصلحة ضاري وسمعته المحّمودة، كما تدل التقارير التي كانت في حوزة لجمن بعد مقتله على أن الشيخ ضاري كان معروفاً بنزعته العدائية للإنكليز في العهد العثماني، وفي زمن الاحتلال، لأنه لم يتقرب إلى الحكام السياسيين في يوم من الأيام، ولم يتزلف لهم، وهذا يُفيد أن الإنكليز أنفسهم يعرفون أنه خصمهم العنيد[١].

لم يكن موقف الشيخ ضاري المعادي للمحتل البريطاني موقفاً سلبياً، مقتصراً على النوايا والعواطف، بل كان منذ اللحظة الأولى موقفاً حازماً وحاسماً، مدفوعاً بحس ديني ووطني جياش، عبّر عنه هو وقبيلته في ميدان المنازلة مع المحتل، وفي المحافل التي حضرها، فكان الصوت الصادح بالحق، المطالب بحرية وكرامة وسيادة العراق، ويتجلى موقفه وموقف قبيلته في جملة مواقف نوردها هنا لتوضيح ذلك الموقف، وهي:

أولاً- التنسيق والمشاركة مع القوات العثمانية لمقاومة البريطانيين:

تذكر المصادر[٢] والنقول المتواترة والمؤكدة أن الشيخ ضاري قد ذهب إلى جسر قرارة جنوب بغداد، واجتمع بالقائد العثماني نور الدين، ليُعدا خُطة الهجوم على القوات البريطانية.

بعد ذلك شاركت قبيلة زوبع في معركة سلمان باك، مع كثير من القبائل العربية، وكان بيت حرب زوبع[١]، ثاني أكبر بيت بعد بيت قبيلة

---

(١) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٣٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٣-٣٤.

الداينية المعروفة، وقدّمت في تلك المعركة التضحيات الكبيرة أسوة ببقية القبائل، وبالجيش العثماني، الذي خسر عدداً كبيراً جداً من مقاتليه في المعركة.

كان لزوبع أيضاً موقف متميز في موقعة حصار الكوت، كما بيّنا في المبحث السابق، ولم يكن ذلك نهاية المطاف في قتالها إلى جانب العثمانيين ضد البريطانيين، إذ بقيت تنسّق مع القوات العثمانية لقتال البريطانيين حتى بعد سقوط بغداد، حيث اتصل الشيخ ضاري بعد نزوله بجانب جزيرة الرمادي بالقائد العثماني أحمد بك أوراق، للتنسيق معه لمهاجمة البريطانيين، وبالاتفاق مع الشيخ حردان العبد الحميد، شيخ مشايخ ألبو عيثة، إحدى أكبر عشائر قبيلة الدليم[٢].

كما قام أيضاً بالتنسيق مع قائد الجنود الخيَالة منصور بك (تونسيّ الأصل)، فكان منصور بك يراقب تحركات البريطانيين في جانب الرمادي من خلال المنظار، ليخبر الثوار بنشاطهم هناك[٣].

ثانياً- مصرع الكولونيل ليجمن:

اختلفت الروايات في واقعة مصرع الكولونيل ليجمن، حسب المصادر التي نقل عنها الرواة، وبخاصة المصادر البريطانية، التي ديدنها تشويه الحقائق حسب مزاجها ومصلحتها، مخالفة للحقيقة والواقع، والتسلسل المنطقي للأحداث في علاقة ضاري بالكولونيل ليجمن، الذي بيّن منذ البدء سمات تلك العلاقة، وعده عدواً للبريطانيين[٤]، فكيف ينام في مضيف الشيخ ضاري - كما يزعم البعض - ثم يُجهز عليه ويقتله

---

(١) بيت الحرب: يقابل مصطلح مقر القيادة في العرف العسكري.

(٢) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٣٤.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٤.

(٤) المرجع نفسه، ص٣٣.

وهو نائم[1]، ولا شك أن كل من يقرأ شهادات الشهود في وقائع محاكمة الشيخ ضاري يجد الحقيقة الناصعة التي لا يخالفها كل ذي نظر، فيجد تطابق الشهادات على كذب الرواية البريطانية، حتى من الذين قامت السلطة البريطانية برشوتهم، أو تهديدهم، لتزوير الحقيقة، أو لاختلاق أكاذيب وأراجيف تعضد تلك الرواية العارية عن الصحة جملة وتفصيلاً، ومن ينظر في كتاب (الثورة العراقية) للسر أرلوند ويلسن نائب الحاكم العام في عهد الاحتلال البريطاني لن يكون في حاجة إلى تأويل، وكما يُقال وشهد شاهد من أهلها، بل هو أهلها وبكل تأكيد إذ قال: **غادر ضاري الخان بعد مناقشة حامية .. غير أنه سرعان ما عاد، وطلب من الخفير أن يسمح له بالدخول للتحدث إلى الحاكم السياسي، فصدر الأمر بالسماح له، وعند ذاك انبرى اثنان من أتباعه، وكان أحدهما ابنه سليمان، وأطلقا النار على ليجمن**[2]**.** وهي رواية مطابقة للرواية الحقيقية تقريباً.

والرواية الحقيقية لتلك الواقعة هي ما وعيته عمن عايشوا أو عاصروا أحداثها، ومنهم لا شك الشيخ سليمان الضاري، الذي كلما سُئل عن أحداثها قصها بذات العبارات وربما بذات الكلمات، وهي بكل تأكيد ذات الرواية التي نقلها عنه صاحبا كتاب (الشيخ ضاري قاتل الكولونيل ليجمن)[3]، فهو يروي أن ليجمن قد حقد على والده، بعد المشادة التي حصلت بينهما في اجتماع عشائري، حاول فيه أن يدس أسباب الفرقة بين أبناء الشعب العراقي، ثم يسرد تفاصيل الواقعة قائلاً: بعد مرور شهر أو أقل على هذا المؤتمر العشائري أرسل ليجمن إلى والدي رجلين

---

(١) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٥٦.

[2] السر أرنولد ويلسن، الثورة العراقية، ص١٢٧.

(٣) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٥٠-٥٥.

من الشبانة لتبليغه بوجوب مقابلته صباحاً في مخفر أبي منيصير بجوار خان النقطة[١].

اعتذر أبي بادئ الأمر عن مقابلته في رسالة حملها إليه ملا زكي بن عايد النصّار[٢]، وكان الموسم الزراعي يوم ذاك موسم دياسة ونقل، وكان أبي بحاجة إلى جمع الحاصلات ليتسنى له شراء الأسلحة التي يستطيع بها أن يواجه ليجمن وقواته.

وفي ضُحى الخميس ١٢ آب ١٩٢٠ وافق أبي على مقابلة ليجمن، وتحرك إلى خان النقطة بصحبة أخي خميس، وأبنيّ عمي مجباس: صعب وصلُبي، وأنا وجماعة من زوبع منهم عفن بن حرج ابن عمي، وعبدالله الفياض ومشوح الحامد، وزمرة من رجالنا أذكر منهم صلفيج بن سالم، وخلف العنبر وعبد بن مسك، وكان مجموعنا عشرين نفراً.

وصلنا الخان، وكان محروسا بأكثر من عشرين شخصاً من الشبانة، وتوجه أبي إلى المخفر وكان قريباً من الخان، وطلب إليّ أن أرافقه، وأمر جماعتنا بالمكوث في الخان والمقهى القريب منه، وكان أبي يحمل سيفاً، وطلب مني أن أتخلى عن بندقيتي بمواجهة ليجمن، فامتثلت لأمره، لكني بقيت مدججاً بحزام الطلقات ومحتفظاً بخنجري، ولم يكن لجمن ساعتئذ في المخفر.

حين أتى ليجمن من بغداد .. أعلنت الشبانة قدومه واستعدّت لتحيته، وفي اللحظة التي اقترب خلالها منا خاطب أبي منفعلاً وهو يقول: **إنني لم أسلك الطريق العام في مجيئي إليكم من بغداد، لأنه أصبح طريقاً غير مأمون .. ولذلك جئتكم عن طريق عقرقوف لأبشرك ياضاري باعتقال**

---

(١) خان النقطة: هو ذاته الذي يُسمى خان ضاري، المجاور لمخفر أبي منيصير، والذي شهد حدث مقتل ليجمن.

(٢) ملا زكي: ملا زكي بن عايد النصار، أحد أبناء عشيرة الخوالد، المتحالفة مع زوبع، وكان الكاتب الشخصي لمراسلات الشيخ ضاري.

الشيخ أحمد الداود وهروب يوسف السويدي وجعفر أبو التمن، وعندئذ امتقع وجه أبي لهذه الفواجع، وبقي ساكتاً والكآبة ترتسم على مُحياه.

وبعد لحظات جاءت سيارة أهلية نزل منها جماعة يصيحون: الطريق ليس آمناً، والتفت ليجمن نحو أبي قائلاً: أنت سبب هذه الفوضى.

وأمر ضابط الشبانة أن يصطحب جماعة زوبع الذين كانوا في الخان لمطاردة الجناة واستطلاع الطريق، وقمت أنا بتبليغ أخي خميس بالأمر ليساعد الشبانة في مهمتها، وأوصيته بأن يكون حذراً جداً وفطناً، وهمست في أذنه أن لا يبتعد عن الخان كثيراً، وكان تحفظي هذا في محله، لأني كنت أستشم من لجمان رائحة الغدر.

وأراد صعب وصلبي أن يغادرا الخان مع الشبانة، ولكني أمرتهما بالبقاء لئلا يحدث شيء ذو بال.

امتطى خميس وجماعة من عشيرتنا ورجالنا يبلغون العشرة خيولهم راحلين مع الشبانة، أما دحّام الفرحان فقد لزم مكانه تحوطاً للأمر، وأوصيت بعد ذلك الباقين من العشيرة في الخان والمقهى بالتأهب واليقظة استعداداً لكل طارئ، ولكل قوة عسكرية أو بوليسية ربما تأخذ طريقها إلينا من الرمادي أو بغداد.

بعد أن أحكمت الخطة عدت إلى المخفر، وهناك سألني ليجمن : هل ذهبت جماعتك مع الشبانة؟. فقلت: نعم. فقال: وكم بقي منهم في الخان؟. قلت: اثنان، وأنا ثالثهم، وقد كتمت عنه حقيقة الموجودين في المقهى، وعندئذ أخذ بيد أبي ذاهباً به إلى غرفته الخاصة فوق سطح المخفر، ولدى باب المخفر وقف اثنان من الشبانة مسلحين، وبقيت أنا بالقرب منهما متوتر الأعصاب، مرهف الحس، ناشراً أذني على صخب ليجمن وضجيجه مع أبي، وقد بلغ صوته من الشدة مبلغاً اهتزت له جنبات المخفر، وكان أبي خلال ذلك يدفع عنه التهم التي نسجها ليجمن.

لم يصدّق حرفا واحداً من دفاع أبي، وعندئذ آمنت بأن الحكاية قد بلغت نهايتها، وأن الثورة لغة المظلوم، وعزمت على أن أفوّت عليه فرصة البطش بوالدي أو اعتقاله، ولم أجد أنفع من الاتصال بحارسيّ ليجمن الواقفين خارج باب المخفر لإقناعهما بالتزام الحياد وعدم التدخّل، فاقتربت منهما وأدخلت في روعهما أنهما من دم عربي، وأنهما لا بد أن يكونا من أهل الرمادي أو الفلوجة، وأن شيمتهما العربية لن ترضى بإذلال والدي وأهانته على مسمع منهما .. وبعد التي واللتيّا رسخا على أن أبي لا يريد إلا الخير لهما ولأولادهما، ولا يريد إلا تخليصهما من عبودية الشبانة، وقد حذرتهما أن يُلقيا بنفسيهما إلى التهلكة، ورجوتهما أن يكونا معنا في هذه اللحظة الحاسمة، علما بأن لديّ قوة مسلحة تكمن في المقهى، فعاهداني على أن لا يُحركا ساكناً، ولا يعترضا طريقي إلى لجمن إذا ضمنت لهما السلامة، فأعطيتهما العهد .. وعندئذ قالا: دونك الرجل .. أعمل به ما تشاء.

وفجأة خطفت من أحدهما بندقيته .. وابتعدت عنه مخافة أن يحاول استرجاعها .. وقد عزمت على قتله إذا حاول ذلك، ولكنه هجم على يدي يقبلها وهو يقول: ألم تعاهدني؟. فأجبته: نعم .. عاهدتك ولكن على حياتك لا على بندقيتك.

استعطفني طالباً الرحمة، وهو يولول: ماذا سيكون مصيري لو خرج ليجمن من الغرفة ورأى بندقيتي في يدك؟..أرحمني ياسليمان. فأعدت إليه البندقية، وركضت نحو الخان حيث تربض جماعتنا .. فاسترجعت بندقيتي وقدت فرسي، وطلبت من ابنيّ عمي صعب المجباس وعفن الحرج أن يأتيا معي بسلاحيهما وفرسيهما وفرس والدي.

وحين وصلت المخفر رأيت أبي خارجاً من غرفة ليجمن وعلى وجهه تعبير ثائر .. وعندئذ تذكرت أنه أوصانا قبل اليوم بقتله حالما تقع عليه أبصارنا، فماذا عساه يوصينا الآن بعد أن أهانه .. وقد عرفت أن والدي يريد قتله.

خرج ليجمن دون أن يقيم لنا وزناً .. حتى إذا اجتاز باحة المخفر إلى المجاز القريب من الباب الرئيس؛ لم نملك إلا أن نقتحم عرينه، وإذ رآنا على هذه الشاكلة لاذ بأبي، فأشرت إلى أبي أن يروغ عنه قليلاً، وعند ذاك احتمى بالجدار القريب من الباب حيث بنادقه وبنادق الشبانة في مشجبها، فأمطرناه بثلاث طلقات، من بندقياتنا الثلاث، في لحيظة واحدة، أخذت طريقها إلى رأسه وكتفه وظهره، ويبدو أن هذه الإصابات لم تُفقده صوابه، فاتكأ على الحائط .. ولعله أراد أن يهتبل الفرصة ليكون في وسعه أن يتناول إحدى بنادق المشجب في مواجهتنا، وحسماً لهذا الموقف الحرج صافحته بنادقنا الثلاث بدفعة جديدة من الطلقات على مرأى من أبي، وهكذا وجدناه بعد أن ارتهن في جسمه ست رصاصات .. يتداعى إلى الأرض بجوار الحائط، واستطاع في لحظاته الأخيرة أن يلوم أبي على هذا الاغتيال، ولكن أبي أجهز عليه بضربة سديدة على رأسه بالسيف.

وقد سألت أبي: لماذا لم تقتله بالسيف حين انفرد بك في الغرفة؟. فأجابني: لو كان عندي خنجر لقتلته به فوراً .. ولكن السيف في غرفة ضيقة قد يعجز عن أداء رسالته، لأنه لا يعمل إلا في المجال الواسع، ومثل هذا المجال لم تستوعبه الغرفة، ولو بادرت إلى مواجهته بالسيف لحاول أن يقبض علي يدي ويحرمني سعادة اللحظة التي اصرعه فيها، لأنه شاب نشيط قوي، وأنا شيخ كبير.

بعد أن فرغنا من أمر ليجمن جردنا الشبانة من سلاحها، واستوليت أنا شخصياً على ثلاث بنادق من بنادق ليجمن الخاصة، وركبت فرسي متوجهاً إلى أخي خميس .. وعندما أصبح مني في مستوى النظر أشرت إليه بيدي إشارة ذات دلالة، تعني أننا أجهزنا على الرجل، فارتفعت الأهازيج والهوسات، وبعد ذلك جردنا الشبانة التي كانت ترافقه من سلاحها، وأمرناهم بالذهاب إلى الفلوجة، أما ضابط الشبانة فقد صحبناه

إلى بيتنا في صدر العبّادي[1] حيث أكرمنا مثواه، وكسوناه بثياب عربية صيفية أغنته عن السروال الإنكليزي القصير.

ثالثاً- معركتا الفلوجة:

تكاد تتطابق أحداث معركتي الفلوجة التي حدثت في ظل الاحتلال البريطاني للعراق مع أحداث معركتي الفلوجة في ظل الاحتلال الأمريكي، واللتين سنتحدث عنهما لاحقاً، وهي تحاكي كثيراً القول بأن: (التاريخ يُعيد نفسه)، إذ أن أحد عناصر الحدث التاريخي – الزمان والمكان- وهو المكان قد تحقق في زمن آخر، وفي أحداث تكاد تكون متطابقة تماما، وهي ما نتطرق إليه هنا:

أ- معركة الفلوجة الأولى:

يوم ١٢ آب ١٩٢٠ اتجه ضاري ومن معه إلى قبيلة المحامّدة قرب الصقلاوية، حيث أخذ يراسل زعماء الثورة في كربلاء، وقد عمّ الهياج الثوري المنطقة من خان ضاري حتى عانة قرب الحدود السورية، وكانت هذه الحركة سبباً إلى قطع المواصلات بين بغداد وبين القطعات البريطانية في الفلوجة والرمادي[2].

شعرت القيادة البريطانية بضرورة القيام بحركة لإعادة الاتصال بها، باعتبار ذلك يؤدي مع وجود قواتها الرئيسة شمال بغداد إلى استرعاء انتباه العشائر القاطنة غربي المكان، وهي العشائر التي كانت الأنباء تُشير إلى تجمعها استعداداً للهجوم على مستودعات التموين البريطانية.

لقد دخل في حساب القيادة البريطانية أن هذه المنطقة - منطقة زوبع - مسئولة بالإضافة إلى مقتل ليجمن عن إحدى أهم الفواجع الكثيرة التي حدثت بين (١٠- ١٥آب)، ففي اليوم العاشر منه أفادت الأنباء أن الباخرة

---

(١) العبّادي: منطقة من المناطق التي تسكنها زوبع في أبو غريب، وهو قريب من الفلوجة، شمال شرقيها.

(٢) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص ٥٨.

كرين فلاي قد رست على الأرض بسبب هجوم ثوار زوبع والعشائر المتحالفة معها عليها[١].

ثم توالت خسائر البريطانيين، بعد أن توالت الكوارث عليهم، ففي ١٥ آب قصد ضاري وعلي المعيدي أحد مشايخ عشيرة المصالحه من بني تميم ومعهم جماعة من الثوار جهة الفلّوجة، حيث ترابط الحامية البريطانية، وتبلغ ألف جندي، بكامل عُددهم الحربية، ونزل الثوار في صدر أبو غريب قريباً من الفّلوجة، فقاموا بإصابة سفينتين فرسيتا على الأرض، ثم استولوا على سفينتين أخريين، وغنموا ما عليهما من مؤن وسلاح وعتاد، ثم أضرموا النار فيهما[٢].

باتت بغداد مهددة بخطر الحصار، بعد الضربات التي وجهت للبريطانيين في شمالها وغربها، واندلاع المواجهات مع البريطانيين في تلعفر، وشهربان، وغيرها من المناطق[٣].

في ١٦ آب هاجم الثوار بقيادة الشيخ ضاري الجيش البريطاني ليلاً، فقطعوا السكة الحديد بين بغداد والفلوجة، وأصبحت المنطقة الواقعة بينهما في قبضته، وسير دوريات من الفرسان يتجولون ما بين الفلوجة وبغداد لضبط الأمن هناك[٤]، وفي فترة قصيرة صار يُحكم سيطرته على أعالي الفرات[٥].

في تلك الأثناء هاجم الثوار الجيش البريطاني ليلاً، وتقدموا نحو الفلوجة التي أصبحت ساقطة بأيديهم من الناحية العسكرية، إنما هي مسألة وقت ليس إلا، فدعا ضاري نخبة صالحة من رؤساء العشائر،

---

(١) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٥٩.

(٢) المرجع نفسه، ص٦٠-٦١.

(٣) المرجع نفسه، ص٦٠،٥٩.

(٤) المرجع نفسه، ص٦٣.

(٥) عبد الرزاق الحسني، العراق في دوري الاحتلال والانتداب، ج١، ص١٥١، كوتلوف، ثورة العشرين، ص٢٠٠.

منهم رئيس عشيرة الجميلة ورؤساء ألبو عيسى، ووجوه عشائر زوبع، وبعض رؤساء بني تميم إلى الاجتماع في دار مشوح الجاسم أحد رؤساء قبيلة الجميلة، وخطب فيهم يحرضهم على الثورة، وأعلن أنه يُقلد العلماء الأجلاء، ثم أخرج لهم فتوى الشيرازي ورسائل العلماء، وكلف كاتبه بتلاوتها عليهم، وبعد أن وقفوا على محتواها، قال لهم ولتعلموا أنني سائر في درب عبد الواحد الحاج سكر والسيد نور الياسري، وإنني مسلم وأنتم مسلمون .. فهلموا إلى الجهاد[١].

باتت الفلوجة والرمادي مقطوعتان عن بغداد، فلزمت الحاميات البريطانية فيهما السكون، بانتظار مصيرهم المجهول، وبات الثوار يتحينون الفرصة للانقضاض عليهم، وتحرير المدينتين[٢].

ب- معركة الفلوجة الثانية:

أيقنت القيادة البريطانية أن سبيل فك الحصار عن بغداد وإنقاذ جيشهم المحاصر في الفلّوجة والرمادي لن يتم إلا بضرب زوبع ضربات موجعة، تقصم ظهرها، لأنها هي التي قطعت طريق الإمداد عن قواتها في كل المنطقة الغربية من العراق، فهي تسيطر على خط المواصلات الرابط بين بغداد وغرب العراق، لذلك بادرت إلى ضرب تجمعات قبيلة زوبع بالطائرات، لا تفرق بين مدنيين وثوار، تمهيداً لخطة المعركة الجديدة التي ستخوضها معهم، بعد أن باءت بالفشل كل خططهم السابقة[٣].

قامت القوات البريطانية بضرب قبيلة زوبع بقنابل الفسفور الأبيض، والذي لم يكن معروفاً حينها، وهي المرة الأولى التي يُستخدم فيها هذا

---

(١)ويلسون، الثورة العراقية، ص١٢٩؛ العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٦١؛ أسعد الفارس، الكولونيل ليشمان والدرب الطويل إلى العراق، ص٢٥٣.

(٢) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٦٣.

(٣) المرجع نفسه، ص٦٤.

السلاح في العراق، إذ ضربت الطائرات القاصفة منزل الشيخ شنيتر الجاسم، شيخ عشيرة الكروشيين من زوبع، حيث أتت تلك القنابل على البيوت ومن فيها، وقتلت آلاف الرؤوس من الماشية حرقاً، وأحرقت كذلك جميع محاصيلهم الزراعية، لكن الشيخ شنيتر حين أخبره ولده فزع بما حصل قال له: الحمد لله، كلها تهون، ما دام بأسنا سالماً لم يتزعزع، ولن تنحني رؤوسنا لغير الله.

قابل الثوار تلك الهجمة بكل بسالة وصمود، وتمكنوا من إسقاط إحدى الطائرات المهاجمة وأسر طياريها، وأدى ذلك الجهد الهجومي الجديد على زوبع إلى إضعاف قدراتها القتالية إلى حد كبير، وبخاصة المحاصرة لمدينة الفلّوجة، إذ سحب الشيخ ضاري قسماً من تلك القوات لصد الهجمات الجوية والأرضية القادمة من بغداد، وهدفها تأمين خط المواصلات مع قواتها المحاصرة في الفلّوجة والرمادي، حيث كانت الخطة التي اتبعوها تتلخص في تحصين خط المواصلات بصورة تدريجية انطلاقاً من بغداد، عن طريق إرسال وحدادت من الدبابات والمصفحات لحماية الجهد الهندسي الذي يقوم بإنشاء نقاط حماية للطريق، بينما تحلق الطائرات فوقهم، لكن الثوار كانوا بالمرصاد لتلك العمليات، فقاموا يوم ١٨ أيلول بالهجوم على تلك القوات، لكن الطائرات رصدتهم وقامت بالتعامل معهم بكل قسوة ووحشية، ورغم ذلك فقد كبدو البريطانيين خسائر فادحة في المعدات، واسقطوا إحدى الطائرات الحربية من قاصفات القنابل.

كانت تلك آخر معركة تخوضها زوبع مع القوات البريطانية، وقد حدثت في منطقة حي تميم شرق خان ضاري، وفي نهايتها وجد الشيخ ضاري أن المعركة ليست في صالحه، وأن قبيلته ستُباد عن بكرة أبيها، بعد أن أيقنت القيادة البريطانية أن بقائها مرهون بزوال زوبع، فجمع أهله ورؤساء زوبع، وخطب فيهم قائلاً: ذلك أمر الله، وتلك مشيئته، وهو مقدّر ومكتوب علينا، وإني أوصيكم أن تكونوا رجالاً صابرين على

البلوى، واتفقوا ولا تتفرقوا، ثم أخذ طريقه على ظهور الخيل، إلى كربلاء للاتصال بالثوار[١].

في المعركتين كان موقف زوبع هو الفيصل في نتائجهما، فحين سيطرت على خطوط المواصلات بين بغداد والفلّوجة وقطعت خطوط الإمداد عن الفلّوجة والرمادي؛ أصبح تحرير المدينتين قاب قوسين أو أدنا من التحقق، وحين مُزق شمل زوبع وتم تحييدها واستعاد البريطانيون سيطرتهم على خط المواصلات استطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على كامل المنطقة الغربية من العراق، وهذا الذي حصل يشبه كثيراً ما حصل في معركتي الفلوجة في زمن الاحتلال الأمريكي للعراق، وهو ما سنتطرق إليه في المبحث القادم.

رابعاً- مآثر زوبعية:

حافظت زوبع على تقاليدها العربية الأصيلة، وامتلكت ناصية العز والمفاخر، بما تمتلكه من صفات سامية، من شهامة ومروءة وفروسية وغيرة على أهلها وتاريخهم وتراثهم المجيد، فكانت المبادئ التي حملتها في ضميرها كل لا تتجزأ، ولا تتبدل حسب الظروف، ومن المآثر التي خلدها ديوان زوبع وحملتها ذاكرة أبنائها مناراً وحافزاً لنيل المكارم كل حين، أذكر حادثتين وقعتا في زمن الاحتلال البريطاني للعراق هما:

أ- غيرة وشهامة:

عادت زوبع إلى مضاربها في أبو غريب بعد واقعة حصار الكوت، وقد قدمت فيها وفي معركة سلمان باك التضحيات، وبينما كان رجال زوبع مجتمعين في مضيف الشيخ ضاري وإذا بأحد الباعة المتجولين يدخل عليهم، قاصدا الضيافة عندهم، وقد سأله ضاري عن بغداد وأحوال

---

(١) العلوجي والحجية، الشيخ ضاري، ص٦٣- ٦٥؛ أحمد كامل أبو طبيخ، السيد محسن أبو طبيخ سيرة وتاريخ، ص١١٠-١١٢؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٥، ص٧٣؛ أسعد الفارس، الكولونيل ليشمان والدرب الطويل إلى بغداد، ص٢٥٥.

أهلها، فأخبره الرجل أن الإنكليز قد دخلوها، فخيم الصمت والذهول على الحاضرين، ثم قام الشيخ مشعان الظاهر شقيق ضاري الأكبر، وهو أحد أشهر فرسان زوبع، وكان له بلاء كبير في معركة سلمان باك مع البريطانيين ووقف على رأس الرجل يسأله: هل ما قلت حق؟. فقال الرجل بلهجة واضحة وقاطعة: نعم دخل الإنكليز إلى بغداد؟. وهنا أعاد عليه السؤال: هل تُشهد الله على ما تقول؟. فقال الرجل: أشهد الله أن الإنكليز قد دخلوا بغداد، ورأيتهم بعينيّ يتجولون في شوارعها.

ضرب مشعان يداً بأخرى وهو يقول: اللهم بطن الأرض خير من ظهرها وقد نجّست أقدام الإنكليز بغداد، اللهم بطن الأرض خير من ظهرها، ثم غادر المجلس وهو كظيم.

في الصباح تأخر عن الحضور إلى المجلس، فبعث ضاري أحد الرجال يستعلم عن سبب تأخره، فجاءه الجواب أنه محموم منذ ليلة الأمس، فأسرع لعيادة أخيه، وقد وجده خائر القوى، تأخذه بين الحين والآخر رعدة من شدة الحمّى، وهو صامت لا يتكلم، وبعد حين خاطب أخاه قائلاً: يا أخي لا طعم للحياة وقد نجّست أقدام الإنكليز بغداد. كرر تلك العبارة مرات، لا ينطق بغيرها، ثم أسلم روحه إلى بارئها.

ب- مروءة وفروسية:

قُبيل مقتل الكولونيل لجمان كان ضاري يحاول أن يُهدئ الوضع مع البريطانيين، على أمل إتمام حصاد غلة أرضه، للاستعانة بها على شراء الأسلحة والعتاد، وقد شعر البريطانيون بذلك الوضع، بعد أن صارت خيّالتهم تمر بمضارب زوبع قادمة من بغداد قاصدة الفلوجة، أو العكس، دون أن يعترض خط سيرها أحد من أبناء زوبع.

في أحد الأيام قدمت خيالة بريطانية من الفلوجة، قاصدة دار الشيخ ضاري في منطقة العبّادي، وكان على رأسهم الضابط المسؤول عن مدينة الفلوجة، ويُدعى (مستر يس)، وقد صحب معه فرساً أخرى دون خيال، وطلب من الشيخ ضاري أن يُبقي تلك الفرس أمانة لديه، إلى أن

يعود من إجازته التي يذهب خلالها إلى بريطانيا، وهو يفعل ذلك لأنها فرسه الخاصة، وليست تابعة للجيش البريطاني، ويخشى أن تتعرض للأذى خلال غيابه.

وافق ضاري على طلب الضابط الإنكليزي على مضض، لأنه يدرك أن أوان ثورته سيحل قبل عودة الضابط من إجازته، وهو أيضاً لا يحب التقرب من البريطانيين، أو أن يتقربوا منه، فكان ما توقعه، إذ تسارعت الأحداث بصورة دراماتيكية، فبعد أيام اضطر إلى الإجهاز على لجمان، وقبل أن يكمل استحضاراته للمواجهة التي يُعد لها منذ فترة، ثم اشتعلت المواجهات غير المتكافئة مع البريطانيين، وشددت قواتهم الضغوط العسكرية عليهم، مستخدمة القبضة الحديدية ضدهم بعد مقتل لجمان، فقصفت مضاربهم بجميع الأسلحة الثقيلة، وبالطائرات، مما اضطرهم إلى النزوح عن ديارهم، ويمّم غالبية زوبع وجوههم صوب الموصل، بينما خرج الشيخ ضاري مع جماعة من زوبع إلى سوريا، ومن هناك توجه إلى تركيا.

خلال المواجهات مع البريطانيين كان الشيخ فهران الصديد متواجداً في ضيافة أبناء عمومته، وكان فارساً بطلاً صنديداً، أبت مروءته أن يقعد عن نصرة أبناء عمومته، لكنه لم يجد فرساً تقله ليشارك القتال معهم في تلك الظروف التي يكون فيها الحصول على فرس ضرباً من المستحيل، وحين لمح فرساً مربوطة في فناء مضيف الشيخ ضاري ولم يقترب أحد منها رغم حاجة الرجال الماسة لها؛ استغرب الأمر، وسأل عن سر تلك الفرس، فأخبروه أنها فرس ضابط بريطاني، استودعها أمانة لدى ضاري، فما كان منه إلا أن اعتلى صهوتها، وقاتل مع الثوار حتى آخر لحظة قبل النزوح، وحين نزح مع بقية أفراد القبيلة اصطحب الفرس معه.

حين عاد الضابط البريطاني من إجازته صار يسأل عن مكان تواجد الشيخ ضاري فلا يجيبه أحد، وبعد أن دب اليأس إلى نفسه باح بسر

سؤاله عنه لأحد الرجال من قبيلة المشاهدة، فأخبره: أنه يسال عنه لأنه يريد استرجاع فرسه التي تركها أمانة عنده، فما كان من الرجل إلا سفه حلمه المستحيل، وضحك من سذاجة رأيه، وهو يقول له: بينكم وبين ضاري دماء، ورأسه مطلوب لحكومتكم، وأنت تريد منه أن يُعيد لكم فرساً.

كلام الرجل آذى الضابط البريطاني، وخيب آماله في عودة فرسه، التي من شدة حبه لها آثر أن يتركها أمانة بيد عدوهم على أن يمتطيها أحد سواه، لكنه رد على الرجل قائلاً: ضاري رجل شريف ونبيل ولن يخون الأمانة، وأنا واثق كل الثقة أنه سيعيد فرسي.

كتب الضابط البريطاني رسالة، فحواها: أنت ياضاري رجل شريف ونبيل، ولن تخون الأمانة، فإن كانت فرسي قد نفقت فأنت معذور، أما إن كانت ما تزال على قيد الحياة فلا أقبل عنها بدلاً بكل خيول الأرض. ثم أعطاها لذلك الرجل، وطلب منه أن يبعثها إلى الشيخ ضاري، فقام الرجل بتسليمها لأحد معارفه من زوبع، الذي أوصلها بدوره إلى الشيخ ضاري، وما أن وصلت الرسالة إليه حتى بعث برسالة إلى أخيه الشيخ درع، الذي يقيم في بادية الموصل، يطلب منه أن يُعيد فرس الضابط البريطاني بأي طريقة، ومهما كلفه الأمر، لأنها أمانة، وهو لن يخون أمانته مهما كانت الأسباب والظروف.

أستلم الشيخ درع الرسالة، وأيقن أن لا مناص من تنفيذ أمر أخيه، فبعث إلى الشيخ فهران من يخبره بمراد الشيخ ضاري، لكنه رفض تسليم الفرس، لأنه يعتبرها غنيمة، وعندها أرسل درع إلى إخوة فهران عارضاً عليهم طلب ضاري ورد فهران عليه، وأبلغهم أنه لا بد أن يسترد الفرس مهما كلفه الأمر، فطلبوا منه أن يمهلهم بعض الوقت، لأنهم لم يستطيعوا أقناع فهران بإرجاع الفرس، ولأن فهران كان فارساً صنديداً لا يمكن ملاقاته صبروا قليلاً، وعندما جن الليل ونام قاموا إليه جميعاً فأوثقوه، وأخذوا مفتاح رباط الفرس، وأرسلوها إلى الشيخ درع،

الذي أرسلها من فوره مع أحد رجاله إلى الفلوجة، وأمره أن يدخل المدينة عند الفجر، ويربط الفرس بباب الضابط البريطاني، ثم يخرج من فوره عائداً إلى الموصل، فكان كما أراد.

في الصباح خرج الضابط وإذا فرسه مربوطة عند الباب، وعند الضحى حين تجمع الناس في ساحة المدينة امتطاها وذهب إليهم، فتجمّع الناس حوله، فخاطبهم قائلاً: **كنت على الدوام أزعم أني ذكيّ وفطن، وأزعم أني على دراية بأخلاق الرجال الذين تعاملت معهم، وكنت مصراً على رأيي في الشيخ ضاري، أنه رجل شريف ونبيل، رغم كل الذي حصل بينه وبين حكومتنا، وها أنا اليوم أفخر بنفسي مجدداً وقد أثبتّ أني خبير بالرجال، فها هي فرسي قد أعادها ضاري إليّ، ولو لم يُعدها فأنا في قرارة نفسي لن ألومه بعد الذي حصل له.**

خامساً- كيفية تعامل الحكومة البريطانية مع قبيلة زوبع:

يصف الشيخ طلب الدرع المحّمود البريطانيين متهكماً بأنهم: أوفياء مع أصدقائهم، ومع مَنْ يقف إلى جانبهم، ولا يتخلون عنهم، لأنهم أبناء أصول، ولا ينسون ثاراتهم مع أعدائهم مهما تباعد الزمان بها، وهم لا شك بخلاف الأمريكيين في هذا الشأن، لأن الأمريكيين لا أصل لهم.

حسب هذا الوصف يمكن أن نفسّر طريقة تعامل البريطانيين مع زوبع، فهم يعلمون علم اليقين أن زوبع قد قاتلت ضدهم إلى جانب العثمانيين، ثم ثارت ضدهم بعد ذلك، وهم (محقون) في تعاملهم بتلك الطريقة مع زوبع وغيرها من قبائل العراق التي ثارت ضدهم، لأنهم جرّعوهم السم الزعاف، وبطشوا بخيرة رجالهم، وهو الذي جعل السر

هولدين يقول بعد الهزائم الكبيرة لجيشهم، ومقتل أشهر رجال استخباراتهم أي (ليجمن)[1]: إنها لتوحي للمرء بأن الله لا يقف بجانبنا[2].

لكن سياستهم (الحكيمة) هي التي تفرض عليهم المهادنة مع من هادنهم، كي لا يزيدوا عدد أعدائهم، لكنهم يعملون في الخفاء على النيل ممن ناصبهم العداء يوماً، ويمكن أن تتضح لنا طريقة تعاملهم مع قبيلة زوبع من خلال وقائع نذكر جانباً منها:

أ- فرض الغرامات المالية الباهظة على زوبع:

ضيّقت سلطة الاحتلال البريطاني الخناق على قبيلة زوبع، من خلال بعض الممارسات التعسفيّة، من اتهام لها أن أبناءها يغيرون على القوافل بغرض سلبها، ولم يتم إثبات أياً من تلك المزاعم بحق أحد منهم، ولا شك أن ذلك السلوك المنهجي ضد أبناء زوبع ينبع من هواجس وظنون تعشش في مخيلتهم البوليسية، لأنهم غرباء محتلون يتوجسون من كل مَنْ يظنون أنه يناصبهم العداء، ولأن زوبع أصلاً قد وقفت ضدهم منذ البداية، وهم يرجون من وراء ذلك أيضاً إيجاد ذريعة للانقضاض عليها، بعد أن عرفوا وتيقنوا صلابة موقف الشيخ ضاري تجاههم، وتحريضه القبائل على رفض وجودهم، وتأييده ووقوفه إلى جانب علماء الدين، الذين رفضوا الاحتلال، وأفتوا بمقاومته.

ومن إجراءاتها التعسفية تلك العقوبات المالية التي يفرضونها على أبناء زوبع ظلماً وجوراً، ومثال ذلك أن أحد أصحاب الدواب التي تستعمل في النقل ذلك الوقت فُقد له حمار على الطريق الرابط بين بغداد والفلّوجة، ففرضت على شيخ زوبع غرامة قدرها (١٥٠) ليرة، والليرة

---

(١) يقول نورمان براي واصفاً شخصية لجمن وأهميته بالنسبة لبريطانيا في العراق:(كان الناس في الصحراء الشرقية يظنون أن ليجمن هو ملك بريطانيا)، ينظر: نورمان براي، مغامرات ليجمن في العراق والجزيرة العربية، ص٢٢٤؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ص٧١.

(٢) عبد الجبار العمر، مصرع الكولونيل ليجمن، ص٥.

تساوي (٢٠) درهماً، علماً أن الحمار وما يحمل لا يبلغ ثمنه أربعة دراهم، أي أن مبلغ الغرامة قد ضاعفوه (٧٥٠) ضعفاً.

تلك الممارسات كان الهدف من ورائها إضعاف موقف زوبع الرافض للاحتلال، وإلهائها في أمور جانبية، يُبعد شبح ثورتها المخيم على تفكير قادة السلطة البريطانية في العراق.

ب- استثناء الشيخ ضاري وابنه سليمان من العفو العام:

أصدرت السلطة البريطانية بعد فشل الثورة وسيطرتها على العراق عفوا عاماً عن العراقيين الذين ناهضوها، وقاتلوا قواتها الغازية، لكنها استثنت ضاري وابنه سليمان من ذلك العفو، وذهبت إلى أبعد من ذلك في عدائها وحقدها على الشيخ ضاري بأن وضعت جائزة كبيرة على رأسه، للذين يرشدونهم إلى مكان تواجده، أو يساعدون في القبض عليه، وكان لها ما أرادت، فساقته إلى محاكمة جائرة، رفضها أبناء الشعب العراقي المتطلع للحرية من نير الاحتلال البغيض، وخالفت فيها كل الأعراف والقوانين الدولية، والقوانين العراقية، بعد أن حاكمته في بغداد، وتحت راية المملكة العراقية، على(جريمة اقترفها ضد القوات الغازية لبلاده).

أما ولده سليمان فلم تتجرأ السلطة الملكية في العراق على إصدار عفو بحقه، رغم مطالبة الغالبية العظمى من نواب البرلمان العراقي بذلك، وتحت تلك الضغوط على الحكومة العراقية أصدر الملك غازي عفواً شفوياً عنه أبلغه لرئيس الوزراء، كي لا يثير حفيظة البريطانيين.

كانت آثار العداء الذي تكنّه السلطة البريطانية للشيخ ضاري وذريته من بعده هو منهج دولة، لا ينقضي بانقضاء مرحلة في حياة تلك الدولة، لأن الإنكليز كما أسلفنا لا ينسون ثاراتهم، ومن آثار ذلك العداء المؤكد والموثق بوثائق الدولة البريطانية اعتبار عائلة الضاري عائلة مجرمة بكل أفرادها، أو على أقل تقدير أن آثار تلك الجريمة تترتب عليها علاقة ذرية ضاري بالدولة البريطانية، وعلى وجه الخصوص الشيخ سليمان

الضاري، الذي بقي اسمه على قائمة المطلوبين للسلطة البريطانية، ويشهد لذلك واقعة حصلت في نهاية ثمانينيات العقد المنصرم، حين أراد الشيخ حارث الضاري الذهاب إلى بريطانيا لغرض العلاج، فأرسل إلى أحد أصدقائه المقيمين في لندن في ذلك الوقت، وهو الدكتور صالح الداهري الحديثي، طالباً منه أن يحصل له على سمة دخول - فيزة - إلى بريطانيا، فجوبّه الطلب الذي قدمه الدكتور صالح بالرفض، وعندما أصر على معرفة السبب؛ عرضت له الموظفة المسئولة أسباب الرفض من خلال شاشة الحاسوب الذي أمامها، وأشارت إلى عبارة مكتوبة تعليقا على الطلب وهي(his family is criminal) وتعني أن عائلته مجرمة[١]، وبذلك نستنتج أن الديمقراطية وحقوق الإنسان التي تنادي بها دول الغرب لن تشفع لأبناء الذين لهم ثارات معها، حتى بعد عشرات السنين.

ت- موقف البريطانيين من العشائر المتحالفة مع زوبع:

لن تنتهي مكائد البريطانيين لزوبع عند حد معين، وهي تحاول اجتثاثهم من ذاكرة وضمير العراقيين، بعد أن اجتثتهم من ديارهم ووطنهم العراق، ومن تلك المكائد محاولتها دق إسفين العداء بينها وبين العشائر المتحالفة معها، أو جعل تلك العشائر تتخلى عن انتمائها لزوبع، وفق دعوات ومزاعم توضح سياسة البريطانيين الخبيثة في العراق، والتي أطلق عليها (سياسة فرّق تسُد)، حيث تقوم بإثارة النعرات القبلية والطائفية بين أبناء القبائل، والشعب العراقي عموماً، لذلك عمدت إلى الطلب من شيوخ القبائل المتحالفة مع زوبع التخلي عن ذلك التحالف، مذكّرة إياهم أنهم من قبائل أخرى كبيرة ومشهورة، وتوحي لأخرى بأنهم على خلاف مذهب قبيلة زوبع، فهم شيعة وزوبع سنة.

حين لم تُفلح سياسة الدس والمكائد الخبيثة؛ عمدت إلى سياسة الابتزاز والترهيب، ففرضت على حلفاء زوبع غرامات باهظة التكاليف،

---

(١) عبد الحكيم الضاري، الشيخ حارث الضاري كما عرفته شهادة للتاريخ، ص٩٢-٩٣.

مقابل بقائهم على تحالفهم مع زوبع، وهي ضرب من ضروب الخيال حتى في نظر البريطانيين، لكن شيوخ تلك العشائر وقفوا موقفهم الذي سجلته ذاكرة زوبع، وسجلته صحائف التاريخ، حين وقفوا بكل شموخ وإباء رافضين الانصياع لتخرصات البريطانيين، مصرين على عدم إعطاء الدنية في تاريخهم وتاريخ آبائهم مهما كانت العواقب، ومن أولئك الشيوخ حسن العلي شيخ الزرفات، وعباس الحسين شيخ السميلات، وكذلك الشيخ درفيل شيخ الدرافلة من قبيلة اللهيب.

كانت الغرامة المقررة من قبل البريطانيين على بعض العشائر المتحالفة مع زوبع هي تسليمهم (٤٠) بندقية، أو ما يعادل ثمنها، علماً أن البنادق في ذلك الوقت كانت نادرة الوجود لدى العشائر، ويعد شراؤها أمراً مكلفاً جداً، وهي خطة خبيثة من البريطانيين في ضرب عصفورين بحجر واحد، فهي تظن أن إثقال كاهل العشائر بتلك الغرامة سيولد نوعاً من الحساسية والنفور من زوبع، وهي في جانب آخر ومهم جداً بالنسبة لهم على الصعيد العسكري، فهم سيستحوذون على أكبر عدد من قطع السلاح التي قد تستخدم في أي تحرك ثوري لاحق ضدهم.

ث- مواقف البريطانيين اللاحقة وبعد عقود على انتهاء ثورة العشرين:

من مواقف البريطانيين العدائية والكثيرة ضد زوبع ما حصل بعد ما يقارب القرن من الزمان على إخماد ثورة زوبع ضدهم في أحداث ثورة العشرين، التي شاركت فيها قبائل ومكونات الشعب العراقي، وهو ما يؤكد ويرسّخ لدى أبناء زوبع وبخاصة منهم المطّلعين على خبايا التاريخ؛ الاعتقاد بفكرة العداء المستحكم في عقول وقلوب الساسة البريطانيين لهم، والعمل على تهميشهم وإبعادهم عن المشهد العراقي بكل تفاصيله.

في ليلة ذكرى ثورة العشرين ٣٠ حزيران ٢٠٠٤م قامت طائرات مروحية تابعة لجهاز الاستخبارات في الجيش البريطاني المشارك في احتلال العراق بالهبوط في أفناء بيت الشيخ ظاهر خميس الضاري،

وقامت قوات خاصة تتبع للجيش البريطاني باعتقال الشيخ ظاهر مع جميع أولاده، وقامت بتسييره على الحصى حافياً في أول أيام تموز، ما أدى إلى تهتك راحتي قدميه، وهو فعل يخفي وراءه حقداً دفيناً، وهو نوع من أنواع النكاية برمز قبيلة زوبع، رغم أن الرجل قد جاوز عمره حينها الثمانين، وهو مصاب بداء السكري، فذهب يمشي، وعاد محمولاً على كرسي متحرك، وبقي يعاني من آثار ذلك التصرف غير الإنساني شهوراً طويلة، لا يستطيع فيها المشي على قدميه، ولكنه كان يقول لمن يأسف ويحزن على ما أصابه: **إنها ضريبة الوطنية التي نفتخر بحمل وسامها.**



هؤلاء الرجال

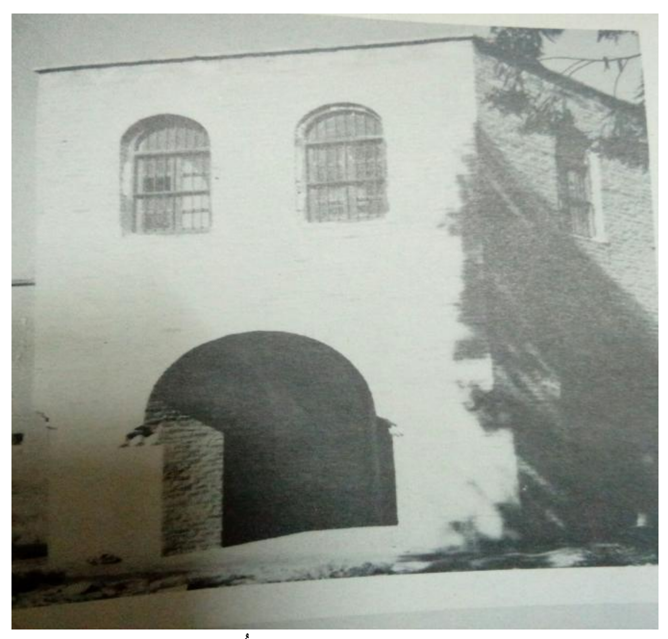
أطلقوا النار على الكولونيل ليجمن



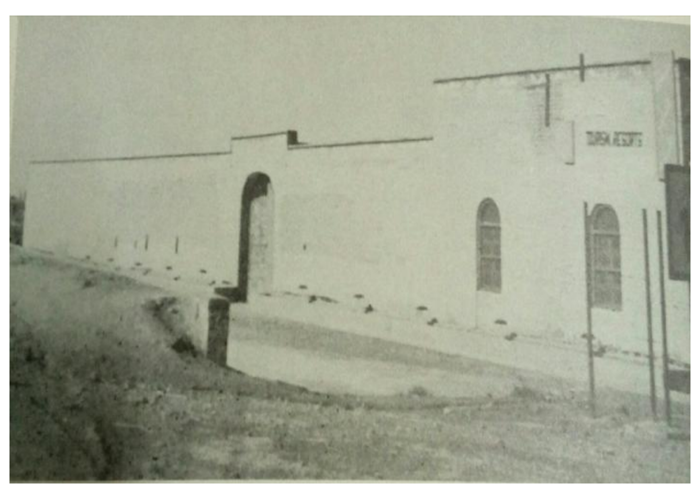
الكولونيل جيرارد إيفلين ليجمن



شاهدة قبر الكولونيل ليجمن في بغداد



النقطة - مخفر أبي منيصير - الذي قُتل فيه الكولونيل ليجمن



خان النقطة - خان ضاري - المجاور لمخفر أبي منيصير



الشيخ درع ظاهر المحّمود



الشيخ فزع الشنيتر



موقف زوبع من الاحتلال الأمريكي

لاشك أن موقف زوبع منذ البدء وقبل أن يُحتل العراق؛ كان رافضاً للاحتلال، معلناً مقاومته له فيما لو وقع، وهذا ما وجدناه حاضراً في حديث الشيخ ظاهر خميس الضاري إلى مراسل جريدة نيويوركر الأمريكية، حيث جرى اللقاء في مضيفه قبل أيام من بدء الحرب على العراق، وقد تطرقنا إلى هذا الموضوع في مبحث سابق .

بعد أن أصبح الاحتلال حقيقة واقعة؛ نهضت زوبع لتبّر بوعدها، فكانت السبّاقة إلى مواجهة المحتل، وكان رمز المقاومة العراقية الشيخ حارث الضاري، والذي أطلق عليه بعد حين السيد مشعان الجبوري أحد قادة العملية السياسية لقب (شيخ المجاهدين)، وصارت أبو غريب شبحاً مخيفاً يحاصر مخيلة القوات الأمريكية، حتى صار هذا الوصف ملازماً لأبي غريب عند كثير من العراقيين بعد ذلك، ولفهم تلك المرحلة في تاريخ زوبع المقاوم للاحتلال نحاول عرض بعض الوقائع التي يمكن أن توضّح بعضاً من سمات تلك المرحلة، ويتضح من خلالها موقف زوبع من الاحتلال الأمريكي، وهي:

أولاً- موقف الشيخ ظاهر الضاري من قوات الاحتلال:

اتخذت قيادة القوات الأمريكية في أبو غريب من سجن أبو غريب الشهير مقراً لها، ولا يفصل بوابته الرئيسة عن بيت ومضيف الشيخ ظاهر الضاري سوى الطريق العام الرابط بين بغداد والفلّوجة.

لم تمهل فصائل المقاومة تلك القوات يوماً واحداً من الاستهداف، وقد تتكرر الهجمات على مقرها في السجن أكثر من مرة خلال اليوم الواحد، فتدكه بكل ما لديها من سلاح، حتى أرهقت تلك الهجمات القوات الأمريكية، وحاولت بكل وسيلة أن تمنع حصولها، وعمدت إلى محاولة رشوة الشيخ ظاهر كما كانت تتصور، فحضروا لمقابلته أكثر من مرة، لكنه كان يصدهم بحجة مرضه، أو عدم وجوده حين حضورهم، لكن الأمر تكرر بصورة كبيرة، لذا نصحه بعض أفراد العائلة بمقابلتهم، خشية من تماديهم إلى ما لا يحمد عقباه، فيقومون باعتقاله.

كعادتهم في زياراتهم المتكررة حضر القائد الأمريكي في سجن أبو غريب، وبصحبته عدد كبير من الجنود، وعجلات الهمر، في عرض لإظهار القوة، قبل عملية تفاوض يظنون أنها ستحصل مع الشيخ، ويرافقه مترجمان يظهر عليهما أنهما من أصول خليجية، من خلال لهجتيهما التي لا تغيب عن الحاضرين .

خرج الشيخ ظاهر لمقابلتهم، ودعاهم للجلوس في الحديقة الملحقة بالمضيف، وما أن استقر القائد الأمريكي في مجلسه حتى نادى على الجنود الذين يقفون خلفه، وأصدر إليهم أمراً أسرعوا لتنفيذه، بينما كان المترجمان يحاولان التودد إلى الشيخ، وإظهار مدى حرصهما على البلد، وعلى المنطقة التي يعملون فيها مع القوات الأمريكية، وهما يحاولان التمهيد للخطوة اللاحقة، والتي تمثّلت بتقديم عدة أكياس من النقود كهدية للشيخ، والتي جاء بها الجنود من عرباتهم .

ما أن شاهدها الشيخ تكوم أمامه حتى قال للمترجم: ما هذا. فأخرج المترجم رزمة من فئة عشرة آلاف دولار، وهو يقول: دولارات، ملايين الدولارات. وبحدّة واستغراب خاطبه الشيخ بينما القائد الأمريكي يراقب الموقف بكل انتباه: وما دخلي بكل ذلك الأمر. فقال له: هي لك. وبذات الاستغراب وبحدّة أكبر قال: مقابل أي شيء.

كنت أراقب ملامح القائد وكأنه يتابع مسرحية شاهدها مرات سابقة، ويعرف أحداث مشهدها الأخير، وهو انهيار الطرف الآخر أمام سطوة الدولار، أو بالأحرى ملايين الدولارات، لذلك كانت أساريره قد انشرحت حين سمع الشيخ يسأل عن المقابل الذي يقدمه لهم ثمناً لتلك الأموال الطائلة.

هنا تدخّل القائد الأمريكي في الحديث، وبدأ المترجمان ينقلان كلامه للشيخ، الذي يطلب فيه أن يستخدم الشيخ هذا المال في إيجاد فرص عمل للشباب، بدل أن تدفعهم الظروف إلى الانتماء إلى الجماعات

(الإرهابية)، حسب تعبيره، ثم أضاف وهو يبتسم بخبث: وهناك مبالغ أخرى يمكن أن نقدمها لكم .

بينما القائد يتحدث بكل زهو نادى الشيخ ظاهر على أحد أبنائه بصوت عالٍ: أحضروا يطغي أي فراشي. فما كان من المترجم إلا أن التفت إليه وكله دهشة واستغراب وهو يتساءل: ماذا تعني ياشيخ. فقال له: أعني ما أعنيه بكل مصداقية، وقل لصاحبكم إني حاضر لتعتقلوني، لأني لن أستطيع أن أقدم لكم شيء مما تتوهمون أني قادر على تقديمه .

انتهى اللقاء بصورة مفاجئة بعد أن أيقن القائد الأمريكي فشل مهمته، فحملوا أكياس النقود وانصرفوا، لكنهم بعد يومين أوصلوا رسالة إلى الشيخ مخضبة برائحة البارود، بعد أن قام برج المراقبة الأمريكي المواجه لبيت الشيخ بإمطار سيارة يستغلها اثنان من أبنائه بالرصاص، لكن الله سلمهم .

بعد شهور قليلة أعادوا الكرة، فقتلوا أحد أبنائه، وكانت العملية مدبرة، إذ حلقت الطائرات الأمريكية فوق المنطقة على ارتفاع منخفض قبل الحادث بدقائق، وبقيت تحلق حتى ساعة متأخرة من الليل، في ظاهرة غير مسبوقة .

ثانياً- معركتا الفلوجة:

أ- معركة الفلوجة الأولى عام (٢٠٠٤م):

حاصرت القوات الأمريكية مدينة الفلوجة عام (٢٠٠٤م) فضربت عليها طوقاً خانقاً، وبدأت تدكها بالمدفعية، عازمة على اجتياحها والاقتصاص من أهلها، بعد حادث قتل ثلاثة من حراس شركة (بلاك ووتر) والتمثيل بجثثهم.

تحصن المقاومون في المدينة وقرروا أن لا تمر القوات الأمريكية إلا على جثثهم، ووقف كل الشعب العراقي مع أهل الفلوجة في موقفهم البطولي، معضدين ومعززين لهم.

في ميدان المواجهة لم تترك فصائل المقاومة الفلوجة وحدها في الميدان، فوجد المقاومون العراقيون ضرورة توحيد قواهم كلها للدفاع عنها من خلال إرباك القوات الأمريكية في كل قواطع عملياتها ضد المقاومة العراقية، فعمت العمليات المسلحة للمقاومة كل المناطق الثائرة ضد الاحتلال.

قامت الفصائل المقاومة في أبو غريب بقطع طرق الإمداد عن القوات المحاصرة لمدينة الفلوجة، وفي خطي المواصلات القديم والسريع اللذين يربطان الفلوجة وكل غرب العراق ببغداد وبقية المحافظات، وبخاصة في عقدة التقاء الخطين في أبو منيصير، وهي إحدى المناطق التابعة لمنطقة زوبع، وصارت عجلات ودبابات الأمريكان طرائد لرجال المقاومة، فصارت القيادة الأمريكية في ورطة كبيرة، حتى أن بوش قال واصفاً لها: (لقد واجهت قواتنا أسبوعاً عصيباً ..وأنا أصلي كل يوم من أجل أن تتراجع الخسائر ..).

بعد أن تكبدت القوات الأمريكية خسائر فادحة في مغامرة غير محسوبة؛ حاولت أن تحفظ ماء وجهها من خلال التفاوض والانسحاب، فوجهت القس آندرو وايت إلى التفاوض مع الشيخ حارث الضاري، لظنها الجازم أن كل طلقة تتوجه ضد قواتها وراءها الشيخ حارث، رغم أن بعض فصائل المقاومة لها مرجعيتها الخاصة، والتي تختلف بعضها فكرياً معه.

تحدّث القس وايت إلى الشيخ حارث نيابة عن الرئيس بوش، كما يدّعي، محاولاً جعل خروجهم من ورطتهم انسحاباً مشروطاً بوقف العمليات المسلحة التي اشتعلت في كل مكان من المناطق الثائرة على الاحتلال، لكن الشيخ حارث أصر على انسحابهم دون شروط، وكان

القس وايت حينها يجول في ساحات جامع أم المعارك - أم القرى - في الغزالية حيث مقر هيئة علماء المسلمين، وفي ساعة متأخرة من الليل حضر إلى مقر الشيخ ليخبره أن الرئيس بوش يتكلم معه في تلك اللحظة، وقد أصدر أوامره إلى القيادة الأمريكية في العراق أن تسحب قواتها من محيط الفلوجة، وهو يأمل أن تتعامل المقاومة العراقية مع هذا القرار بإيجابية، وهكذا انتصرت الفلوجة على عنجهية بوش، بعد أن عضد أبناء المقاومة العراقية صمودها، وبعد ثبات وإصرار الشيخ حارث على موقفه في وجوب انسحاب القوات الأمريكية دون شروط[١].

ب- معركة الفلوجة الثانية عام (٢٠٠٤م):

حشّدت القيادة الأمريكية قوات كبيرة لغزو واجتياح الفلوجة في نفس العام، في خطة جديدة تلافت فيها خطأها القاتل السابق، وكانت الخطة تتمثل في تامين خطوط الإمداد لقواتها التي ستحاصر الفلوجة في معركة جديدة، ولا شك أن خطوط الإمداد تمر بمنطقة زوبع، التي تتهمها القيادة الأمريكية والحكومة المتعاونة معها بأنها سبب جميع الأحداث التي تشهدها المنطقة، والتي تستهدف القوات الأمريكية.

الخطة الجديدة تبرهن بكل صدق على وحشية تعامل القوات الأمريكية مع الجميع، حين قامت بضرب أي تجمع لقوات المقاومة بالطائرات، حتى وإن كان مدفوعاً بالوشايات الكاذبة، وأياً تكن الخسائر في صفوف المدنين، ووفق تلك الخطة تشتت الجهد المقاوم، وضعف في منطقة زوبع إلى حد كبير، وبدأت على إثره القوات الأمريكية تأمين خطوط المواصلات تدريجياً، بعد توجيه ضربات بالطائرات والدبابات لعقد المقاومة التي تحاول قطع طرق إمداد القوات الأمريكية.

بعد فترة وجيزة من هذه الهجمة البربرية على المنطقة التي أزعجت الأمريكان كثيراً - منطقة زوبع - وكانت سبباً رئيسياً في عدم سقوط

---

(١) لمزيد من التوضيح ينظر: عبد الحكيم الضاري، الشيخ حارث الضاري كما عرفته شهادة للتاريخ، ص٩٦-٩٩.

الفلوجة في المعركة الأولى؛ استطاع الأمريكان أن يؤمنوا قواتهم الزاحفة نحو الفلوجة، والتي لم تستثني أي سلاح فتّاك لديها ومحرماً دولياً في صب حممه عليها.

قبل يومين من سقوط الفلوجة صريعة بيد الأمريكان قال الشيخ حارث والحسرة واللوعة تخيم على مشاعره: خرجت الفلوجة من أيدينا، وستدمرها القوات الأمريكية، بعد أن صم البعض آذانهم عن سماع نصحنا، وقد بينا لهم أننا لن نستطيع أن نقدم لهم العون هذه المرة، وعليهم أن ينسحبوا من المدينة، ويجنبوها الدمار.

وبعد أن تجبّر البعض وانتابت نفوسهم الخُيلاء لقصر نظرهم وظنهم أن الذين صمدوا في الفلوجة خلال معركتها الأولى هم وحدهم الذين أحرزوا النصر؛ سقطت الفلوجة بعد أن كانت جراحها كبيرة ومؤلمة.

في معركتي الفلوجة تحت ظل الاحتلال الأمريكي نجد بصمات قبيلة زوبع والقبائل المتحالفة معها واضحة، وهي ذات البصمات التي وضعتها في معركتي الفلوجة أيام الاحتلال البريطاني، وكما بيّنّا في المبحث السابق.

ثالثاً- موقف الأمريكان من زوبع:

اتخذ الأمريكان موقفاً عدائياً من قبيلة زوبع، فكانوا يشنون الهجمات عليها، لسبب ولغير سبب، وبخاصة بعد مقتل أكبر قادتهم في منطقة الزيدان، والضربات التي وجهت لهم في مقريهم في سجن أبو غريب وفي المزرعة القريبة من الفلوجة، والذي يذكره محمد العرب في كتابه (ما لم يذكره بول بريمر في كتابه)[١] فيؤكد كثيراً من ملامح موقف الأمريكان من زوبع، إذ يقول: حارث الضاري ألد الأعداء وحاضنة

---

(١) أياً تكن مصداقية أقوال محمد العرب فإن جميع القرائن وكثير من الدلائل تشير إلى مصداقية الرأي الذي يتبناه الأمريكان تجاه زوبع عامة وحارث الضاري بخاصة والذي صرح به محمد العرب نقلاً عن بريمر. ينظر: ما لم يذكره بول بريمر، www.iqr٣.com

الإرهاب. هكذا كان بريمر يلقب الضاري وولده، وهو يصف مثنى حارث الضاري بالذكي المتطرف. وطلب بريمر من أستاذ أمريكي تزويده بتاريخ عائلة الضاري، وما أن فرغ من قراءة هذا التاريخ المليء بالمؤامرات - حسب قوله - حتى اتصل ببعض مستشاريه يطالبهم بالتودد للضاري اتقاء شره .

هذا الرأي الذي تبنّاه بريمر تجاه الضاري حسب محمد العرب تؤيده حقائق ووقائع، ناهيك عن الأدلة والقرائن، فقد تعرّض الشيخ حارث إلى مضايقات ومؤامرات من الجانب الأمريكي، وصلت إلى محاولة اغتياله في أحدى المرات في بيته[1]، كما تعرض ابنه مثنى أيضاً لمحاولة من قبل القوات الأمريكية، إذ قامت إحدى الدوريات الأمريكية بإطلاق النار على سيارته في بغداد، ونجا هو ومرافقه بأعجوبة، بعد أن مزق الرصاص السيارة بالكامل، وكان الأمريكان يظنون أنه قد قضى في تلك المحاولة، لكن بعد أن تجمع الناس ووجدوه هو ومرافقه أحياء ولم يصبهم أي أذى؛ اعتذرت القوات الأمريكية بأنها كانت تطارد سيارة تقوم بإطلاق النار عليهم، تحمل ذات المواصفات.

غصّت المعتقلات الأمريكية بأبناء زوبع، وهم في الأغلب ممن ليسوا من رجال المقاومة، لكن الأمر كان يُفسّر – وهو الحقيقة – على أنه نكاية بحارث الضاري، وكان أول سؤال يوجه للمعتقلين هو عن علاقتهم بالشيخ حارث الضاري .

كانت عصابات الجريمة المنظّمة تعيث في العراق فساداً، وبخاصة في بغداد، وقد أكدت الأدلة والقرائن التي يتحدث عنها الكثيرون أن أغلب تلك العصابات إن لم تكن جميعها لها ارتباط بالقوات الأمريكية، أو بمن له علاقة وطيدة بها، وكانت تستهدف في الغالب أبناء المناطق والقبائل التي تقاتل القوات الأمريكية، وكان لكل مختطف سعر لدى سماسرة تلك العصابات، أو ما يُطلق عليهم (العلاّسة)، وكان المختطف من أبناء

---

(١) ينظر: عبد الحكيم الضاري، الشيخ حارث الضاري كما عرفته شهادة للتاريخ، ص٩٩–١٠٢.

زوبع الأعلى سعراً في تلك العمليات القذرة، وهو ما يعرفه أغلب العراقيين الذين اكتووا بنار تلك الفترة العصيبة من تاريخ العراق.

أخيراً

تلك (الوقائع المآثر) .. لأبناء قبيلتي طيّئ، وأبناء قبيلتي شمّر، وأبناء قبيلتي زوبع، وأبناء بلدي العراق؛ هي تراث خالد وحقيقي دوّنته ضمائر الناس قبل صحائف التاريخ، وهنا حين أستجلب في تلك (الوقائع المآثر) بعضاً من ذلك التاريخ المجيد، ليس لطلب جاه أو وجاهة، ولا هي نزوات رياء.

هنا أعيد التذكير، لإخوتي وأبنائي .. أبناء العراق، والله تعالى يقول :(وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين).

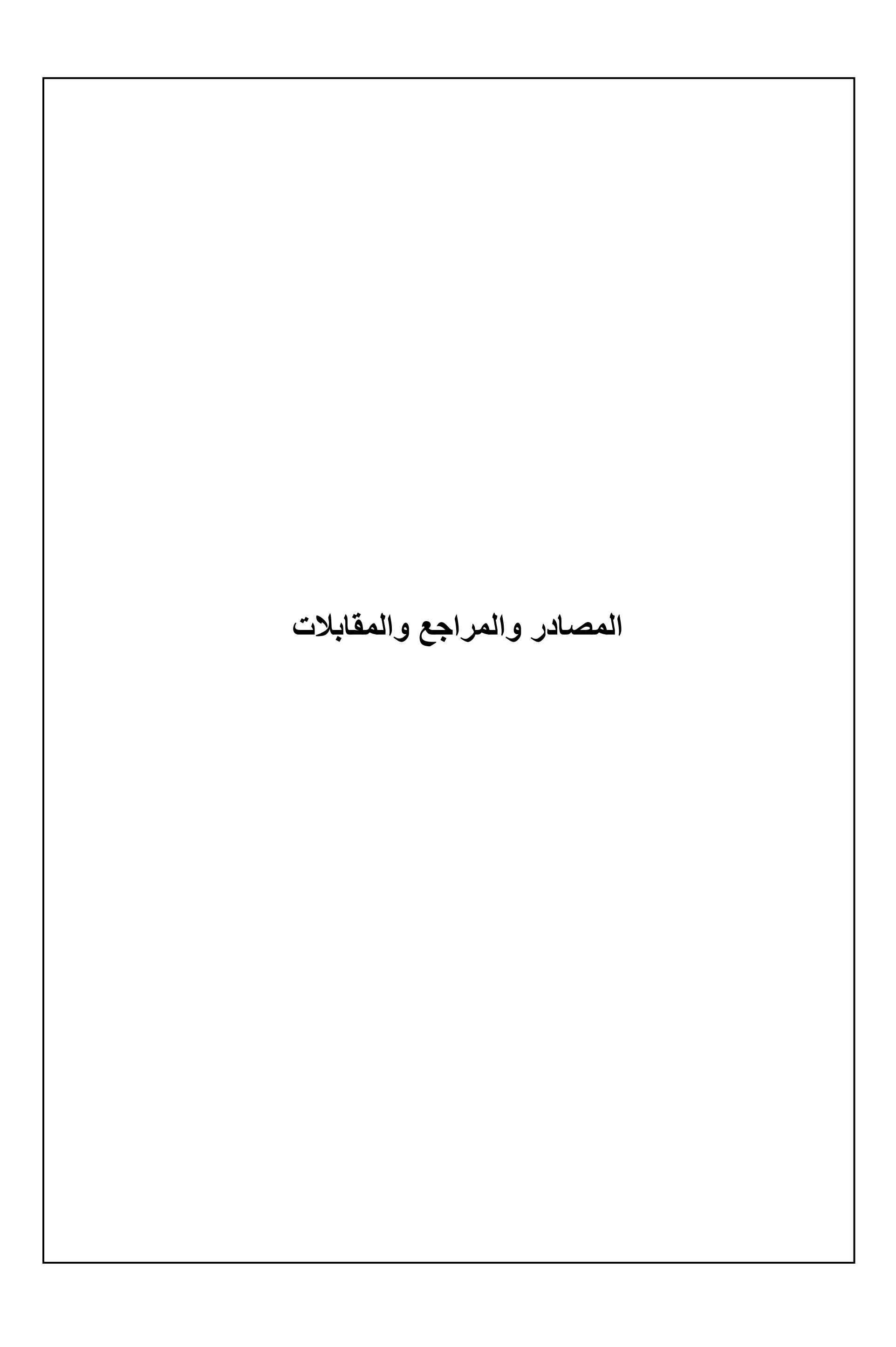
أذكّرهم بكل تلك المعاني السامية، التي أورثها لنا الآباء والأجداد، والتي غابت حيناً من الدهر عن العقول والقلوب والعيون .

تلك (الوقائع المآثر) التي دوّنتها هنا أود صادقاً أن يدوّن غيري من أبناء كل قبائل العراق ما حفظوا من مآثر آبائهم الكرام.

وقد وددت أن تكون كل واحدة من تلك المآثر التي ذكرتها هنا أولاً، لأنها كلها أول.

أبو الحسن

د. عبد الحكيم الضاري



المصادر والمراجع والمقابلات

أولاً- المصادر:

١- ابن الأثير، أبو الحسن علي أبو المكارم، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: محمد علي عوض، دار الكتب العلمية، ط١،(١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).

٢- ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب، المحبّر، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند (١٩٦٢م).

٣- ابن دريد، أبو بكر الأزدي، الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المثنى، ط١، بغداد (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

٤- ابن كثير، الحافظ أبو الفداء، البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

٥- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري، المعارف، دار اكتب العلمية، ط١، بيروت (١٩٧٨م).

٦- البسام، محمد بن حمد، الدرر الفاخر في أخبار العرب الأواخر، تحقيق: روزية الاطرقجي، وزارة التعليم العالي، بغداد (١٩٨٩م).

٧- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ط١، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

٨- البيهقي، المحاسن والمساوئ، مطبعة السعادة، مصر(١٢٢٥هـ - ١٩٠٦م).

٩- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة.

١٠- ديوان حاتم الطائي، شرحه وقدم له: أحمد رشاد، دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٧١م).

١١- السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد، الأنساب، تصحيح: الشيخ عبد الرحمن اليماني، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط١، الهند (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).

١٢- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الثقافة، بيروت.

١٣- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: علي الخاقاني، منشورات دار البيان، مطبعة النجاح، بغداد (١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م).

١٤- المقريزي، أحمد بن علي، البيان والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، القاهرة.

١٤- ياقوت الحموي، المقتضب من كتاب جمهرة النسب، تحقيق: ناجي حسن، الدار العربية للموسوعات، ط١، بيروت (١٩٨٧م).

١٥- ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت (١٩٥٥م).

١٦- اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبي، تقديم: محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، العراق (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).

ثانياً- المراجع:

١- أحمد فوزي، عبد السلام محمد عارف..سيرته، محاكمته، مصرعه، مكتبة التراث والمعاصرة، مطبعة الديوان، بغداد (١٤١٠هـ -١٩٨٩م).

٢- أحمد فوزي، أين الحقيقة في مصرع عبد الكريم قاسم، مطبعة الديوان، ط١، بغداد (١٤١٠هـ -١٩٩٠م).

٣- أحمد كامل أبو طبيخ، السيد محسن أبو طبيخ سيرة وتاريخ، بغداد (١٩٩٨م).

٤- أسعد الفارس، الكولونيل ليشمان والدرب الطويل إلى بغداد، الشركة العصرية للطباعة، ط١، الكويت (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

٥- أرنولد ويلسون، الثورة العراقية، ترجمة جعفر الخياط،ط، بغداد(١٩٧١م).

٦- بكر عبدالله أبو زيد، فقه النوازل، مؤسسة الرسالة، ط١.

٧- ثامر عبد الحسن العامري، معجم العامري للقبائل والأسر والطوائف في العراق، بغداد (٢٠٠١م).

٨- جمال مصطفى مردان، انقلابات فاشلة في العراق، المكتبة الشرقية، طباعة دار الدار العربية، بغداد.

٩- جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد (١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م).

١٠- الحاخام داني شمطوط، تحفة المداد في تاريخ يهود بغداد، مخطوط.

١١- حازم المفتي، العراق بين احتلالين، مكتبة اليقظة العربية، مطبعة سومر.

١٢- خليل إبراهيم حسن، ثورة الشوّاف في الموصل ١٩٥٩، مكتبة بشار، دار الحرية للطباعة، بغداد (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م).

١٣- خليل إبراهيم حسن، الصراع بين عبد الكريم قاسم والشيوعيين وعبد الوهاب الشوّاف وضباط الموصل الوحدويين، مكتبة بشار، دار الحرية للطباعة، الموصل (١٩٨٨م).

١٤- الشيخ رسول كركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٥- العزاوي، عباس، عشائر العراق، مكتبة الحضارات، لبنان، بيروت.

١٦- عبد الجبار العمر، الثلاثة الكبار.. ثورة ١٤تموز في ١٤ساعة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد(١٩٩٠).

١٧- عبد الجبار العمر، مصرع الكولونيل لجمان، دار القادسية للطباعة، بغداد (١٩٨٣م).

١٨- عبد الحكيم الضاري، الشيخ حارث الضاري كما عرفته شهادة للتاريخ، المتحدون للطباعة، ط٢، القاهرة (٢٠١٨م).

١٩- عبد الحميد العلوجي وعزيز جاسم الحجية، الشيخ ضاري قاتل الكولونيل لجمن في خان ضاري، منشورات مكتبة العلوجي والحجية، مطبعة أسعد، بغداد (١٩٦٨م).

٢٠- عبد الرزاق الحسني، العراق في دوري الاحتلال والانتداب، صيدا، لبنان (١٩٥٣م).

٢١- عبد الرزاق النصيري، نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام ١٩٣٢، مكتبة اليقظة العربية.

٢٢- عبد العزيز محمد باقر السهيل التميمي، في نسب العرب، مطبعة أسعد، بغداد (١٩٨٩م).

٢٣- علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مطبعة الأديب البغدادية، بغداد (١٩٧٨م).

٢٤- عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة.

٢٥- ل. ن. كوتلوف، ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق، ترجمة: عبد الواحد كرم، مطبعة وأوفسيت الديواني، بغداد (١٩٨٥م).

٢٦- الليدي آن بلنت، رحلة إلى بلاد نجد، ترجمة: محمد أنعم غالب، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ط١، الرياض (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

٢٧- لينا هويان الحسن، رجال وقبائل، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق (٢٠١٣م).

٢٨- ماكس فرايهير فون أوبنهايم، البدو، تحقيق: ماجد شبّر، دار الوراق للنشر.

٢٩- محمد حسين الزبيدي، الملك غازي ومرافقوه، دار الحرية للطباعة، بغداد (١٩٨٩م).

٣٠- محمد حمدي الجعفري، محكمة المهداوي أغرب المحاكمات السياسية في تاريخ العراق الحديث، مطابع دار الشؤون الثقافية، بغداد(١٩٩٠).

٣١- نورمان براي، مغامرات ليجمن في العراق والجزيرة العربية ١٩٠٨-١٩٢٠، ترجمة: سليم طه التكريتي، بغداد (١٩٩٠م).

ثالثاً- المقابلات:

١- الشيخ خميس الضاري

٢- الشيخ سليمان الضاري

٣- الشيخ كردي سليمان الضاري

٤- الشيخ ظاهر خميس الضاري

٥- الشيخ طلب درع الظاهر

٦- الشيخ حارث سليمان الضاري

٧- الشيخ ضاري خميس الضاري



زوبع

قصة قبيلة .. وقضية وطن

تلك (الوقائع المآثر) .. لأبناء قبيلتي طيّئ ، وأبناء قبيلتي شمّر ، وأبناء قبيلتي زوبع ، وأبناء بلدي العراق هي تراث خالد وحقيقي دونته ضمائر الناس قبل صحائف التأريخ ، وهنا حين أستجلب في تلك (الوقائع المآثر) بعضاً من ذلك التأريخ المجيد ليس لطلب جاه أو وجاهة ، ولا هي نزوات رياء .

وقد وددت أن تكون كل واحدة من تلك المآثر التي ذكرتها هنا أولاً ، لأنها كلها أول .

تلك (الوقائع المآثر) التي دونتها هنا أود صادقاً أن يدون غيري من أبناء كل قبائل العراق ما حفظوا من مآثر آبائهم الكرام .

ابو الحسن

د. عبد الحكيم الضاري

دار المنهج للطباعة والنشر

العراق - بغداد